دراسات في
المنهج و الفكر التاريخي

دراسات في المنهج و الفكر التاريخي



الدكتور/ محمد حسين الصافي

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المشارك

دراسات في المنهج والفكر التاريخي

الكتاب: دراسات في المنهج والفكر التاريخي.

المؤلف: أ.م.د. محمد حسين الصافي.

malsafi19@gmail.com

ت 711128985

الطبعة: االثانية. صنعاء.2023م. معدلة

تنسيق: الياسمين للطباعة والإعلان-صنعاء الدائري– ت 01211629

رقم الإيداع: 2016/38م

الناشر: مركز الإبداع الثقافي للدراسات وخدمة التراث.

فرع صنعاء. ش الستين الغربي.ت 715101331.



دراسات في

المنهج والفكر التاريخي

- المناهج الغربية لتفسير التاريخ في القرن 19م.
- المناهج الغربية لتفسير التاريخ في القرن العشرين.
- قراءة في مناهج التفسير النفسي للتاريخ.
- الحروب الصليبية على ضوء فلسفة التاريخ.
- قضية وحدة الوجود في عصر الأيوبيين والمماليك.
- نظرات في التفسير الإسلامي للتاريخ.
- المناهج الأوروبية المعاصرة ودراسة التاريخ الإسلامي.

أ.م.د/ محمد حسين الصافي

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المشارك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (120) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (121) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (122) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123) هود

إلى أساتذتي الكرام الذين لقيت منهم كل حب وتشجيع.

إلى طلابي وطالباتي الأعزاء،

بفضل أسئلتكم ومناقشاتكم الرائعة أقدم هذا الكتاب المتواضع عسى أن يكون مفيدا.

فهرس

مقدمة

أتذكر يوما عندما كنت شابا صغيرا أثناء أداء خدمة الدفاع الوطني في البيضاء على رأس جبل صغير في عزلة شبه كاملة عن العالم، بدأت في قراءة مذكرات غاندي: (سيرة حياتي)، فإذا به يشير في مقدمة كتابه: إذا شعرت في أي لحظة أثناء قراءة هذا الكتاب أنه لم يقصد به الله عز وجل فاتركه لأنه لا يستحق منك القراءة. أعجبت بهذه المقدمة الرائعة وثبتت في ذاكرتي المتواضعة، أعجبت بمعرفته الأكيدة لما يريد، وأعجبت لإخلاصه الشديد لما يريد الوصول إليه.

لا أستطيع أن أقول كما قال هذا الزاهد الكبير لكن هذه الأبحاث مجرد بحث عن الحقيقة وسعي للمعرفة. وما طالب العلم إلا باحث عن الحقيقة وساعٍ إلى المعرفة. والعلم الحقيقي هو بما يحمل من قيم وأخلاق وسلوك. قيم عليا يسمو بها إلى الله عز وجل القصد النهائي لأهل القلوب والعقول والأرواح المرهفة، فلا يتخذ العلم للتفاخر والزهو والعلو، إذ أن كثرة المعلومات ليست علما. كما قال احد الفلاسفة: كومة الحجارة لا تعني مبنى وكومة المعلومات لا تعني علما.

والعلم والبحث يبدأ بسؤال، ليبدأ معه السعي نحو معرفة الإجابة، وهذه هي حقيقة التعليم الأكاديمي. الذي يهدف إلى تعليم طريقة تفكير علمية سليمة، وليس مجرد جمع معلومات، كيف يفكر الإنسان؟ هذا هو أهم أهداف التعليم الأكاديمي. بل هو كذلك أهم أهداف التعليم السماوي كما جاء واضحا في قصة موسى مع الخضر عليهما السلام. وهو كذلك من أهم أهداف دراسة التاريخ.

وأهداف دراسة التاريخ متعددة يأتي منها: البناء التربوي، فللقصص التاريخي تأثير تربوي ومعنوي ونفسي هائل، ولذلك كان للقصص التاريخي مجال في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي. كما أن من أهداف دراسة التاريخ تصحيح الوعي التاريخي الكوني

والواقعي، فلا يمكن معرفة حقيقة الواقع دون معرفة حقيقة الماضي. والإجابة على السؤال الوجودي الخطير من أين أتينا وأين نقف والى أين نذهب؟ وكذلك فمن أهداف دراسة التاريخ معرفة الهوية، والحفاظ عليها، فالسؤال من نحن **مهم** في قضية الوعي الكوني. كما أن من أهداف دراسة التاريخ معرفة الحكمة الإلهية للأحداث "وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا". والكشف عن السنن التي تحكم الكون والتاريخ والانسان. ومن أهداف دراسة التاريخ معرفة التراث والحفاظ عليه ونشره.

إن معرفة أسباب قوة الأمم والمجتمعات والدعوة إلى الأخذ بها، وتشخيص الأمراض الخطيرة بالأمة والمجتمع يجعل من طالب التاريخ عصب الوعي في الأمة ومركز الفكر فيها.

والحقيقة إن المعرفة هي الوظيفة الوجودية للإنسان، يقول الله عز وجل: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا "(12)الطلاق.

في الأخير هذه مجموعة من الأبحاث في المنهج والفكر التاريخي دفعني اليها الرغبة في الحصول على اجابات لأسئلة برزت أثناء تدريسي لمادة فلسفة التاريخ. ولعلي قد وصلت الى أجوبة شافية نافعة، أرجو من الله أن تكون مفيدة للباحثين وطلاب وطالبات علم التاريخ. ولا أنسى توجيه الشكر للأستاذ الباحث محمد علي زيد في مركز الدراسات والبحوث في الحصول على المراجع العلمية المتخصصة لنظرية النبض الكلي، ولكل من ساعد في هذا العمل العلمي.

قراءة في
المناهج الغربية لتفسير التاريخ
في القرن 19م

تمهيد:

يتفق الباحثون على أهمية المنهج في البحث العلمي. لأن صحة و سلامة المنهج يؤدي إلى صحة و سلامة موضوع البحث المدروس و صحة وسلامة نتائج البحث.

لأجل ذلك اهتم العلماء والباحثون في قضية المنهج العلمي لدراسة التاريخ، وجعلوا الحديث عن المنهج مقدمة متعارفاً عليها ومدخلاً إلى الأبحاث العلمية. وإذا كان هؤلاء العلماء والباحثون قد اتفقوا على أن منهج البحث التاريخي هو طريقة جمع وتحليل الوثائق والمصادر التاريخية من خلال النقد والتحقيق[1]، إلا أنهم اختلفوا حول منهج

---

(1) كولنجوود ، ر.ج: فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل، القاهرة 1968، ص43،42 ؛ أحمد قائد الصايدي: منهج البحث التاريخي، صنعاء 1999، ص27. وللمزيد عن منهج البحث التاريخي أنظر أيضا: لانجلوا وسينوبوس: المدخل إلى الدراسات التاريخية، في كتاب النقد التاريخي، ترجمة عبدالرحمن بدوي، الكويت1977. ويعرف البحث العلمي أنه حزمة من الطرائق والخطوات المنظمة والمتكاملة تستخدم في تحليل وفحص معلومات قديمة، بهدف التوصل إلى نتائج جديدة ، وهذه الطرائق تختلف باختلاف أهداف البحث العلمي ووظائفه وخصائصه وأساليبه . وفي تعريف آخر إنه " عملية فكرية منظمة يقوم بها شخص يسمى (الباحث) من أجل تقصي الحقائق في شأن مسألة أو مشكلة معينة تسمى (موضوع البحث) بإتباع طريقة علمية منظمة تسمى (منهج البحث)؛ بغية الوصول إلى حلول ملائمة للعلاج أو إلى نتائج صالحة للتعميم على المشكلات المماثلة تسمى (نتائج البحث)".(أنظر: محمد مسعد ياقوت: البحث العلمي العربي: معوقات وتحديات، مجلة الجندول (الكترونية) ، السنة الثالثة : العدد24 سبتمبر2005م. WWW.ULUMINSANIA.NET). وكان المسلمون القدامى اتبعوا أسلوب التكلم عن مناهجهم في مقدمات كتبهم . أنظر على سبيل المثال : الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (ت505هـ): الاقتصاد في الاعتقاد، ب د ، ص5. بل ان الإمام السخاوي (771هـ) وضع منهجية دقيقة لكتابة التاريخ قبل الأوروبيين بمئات السنيين. (أنظر: طبقات الشافعية الكبرى، ب د ،ج2ص16) . والنهج لغةً: الطريق، نهج: بين واضح. والنهج الطريق المستقيم. وفي حديث العباس: لم يمت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى تركك على طريق ناهجة، أي واضحة بينة. ونهجت الطريق سلكته. وفلان يستنهج سبيل فلان أي يسلك مسلكه.(ابن منظور الإفريقي، جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب، ب د، مادة نهج) والمنهج في أعم معانيه، وسيلة لتحقيق هدف وطريقة محددة لتنظيم نشاط معين (روزنتال وآخرون: الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، بيروت 1985، ص502).

التفسير، أو طريقة التفسير، ومن هنا تعددت مناهج تفسير التاريخ خلال القرنين السابقين، التاسع عشر والعشرين وتباينت تبايناً كبيراً خاصة في أوروبا.

و لهذا تأتي أهمية دراسة قضية المنهج العلمي. بل أن بعض الباحثين يعتقد أن "المنهج هو الذي يضفي على المعرفة صفة العلم، لا مقدار اليقين الذي يتوفر لنتائج البحث"[(2)]. ومنعاً للالتباس لابد من التوضيح والتفريق بين منهج البحث، ومنهج التفسير وفلسفة التاريخ – أثناء هذه الدراسة– فمنهج البحث هو وسيلة العمل و أداة وطريقة التنفيذ وجمع المادة وتحليلها وتركيبها، والنقد والمقارنة، ومنهج التفسير هو المنهج الذي يتبعه الباحث لفهم واستنطاق وتفسير المادة التاريخية، أما فلسفة التاريخ فهي النتائج الفكرية ذات طابع التفسير الكلي التي أخذ بها الباحث سواء بعد إنجاز بحثه، أو اعتنقها، بطريقة قبلية مسبقة[(3)]. وإن كان البعض يعد قضايا المنهج العلمي جزء من الفكر الفلسفي بشكل عام. إلا أننا نستطيع أن نقول أن هذه الدراسة هي حلقة الوصل بين حلقتين ، حلقة منهج البحث و حلقة النظرية الفلسفية المفسرة، أي حلقة مناهج التفسير.

وتأتي أهمية القرن 19 الميلادي أنه شهد عصر الثورة الصناعية والعلمية الكبرى في أوروبا كمحصلة لحركة الاستعمار العالمية. كما شهد تغيرات سياسية واجتماعية هامة . على أن التحول الحقيقي كان في الفكر والثقافة والصراع الفكري الذي دار بين المثاليين والماديين وبين الوضعيين وغير الوضعيين وفي اختلاف المناهج وتعددها وما نتج عن هذا الصراع، كما سوف نرى في هذه الدراسة .

(2) أحمد قائد الصايدي: منهج البحث، 29.

(3) يستخدم المؤرخ الفلسفة لفهم وتفسير أحداث التاريخ ووقائعه بينما يستخدم الفيلسوف التاريخ لتأكيد أو نفي نظرياته الفلسفية.

تاريخ ونظريات مناهج تفسير التاريخ :

يعد بعض الباحثين أن المنهج العلمي هو أحد تراث العصور الوسطى[4] ، إلا أننا سوف نبدأ في استعراضنا الوصفي لهذه الدراسة من العصر الحديث. وخاصة بعد ما يسمى عصر التنوير، حيث علا شأن العلوم التجريبية وفلسفتها وهيمنتها على الحياة العلمية في أوروبا[5]، مما سبب في رد فعل بعض الفلاسفة على هذا التوجه، ومنهم هردر الذي حاول التفريق بين منهج يدرس الطبيعة ومنهج يدرس الإنسان وتاريخه.

هردر:المنهج الذاتي (لا يفهم الروح إلا الروح) :

كان منهج جون هردر[6] Johan Gottfried Herder (1744-1803م) لدراسة التاريخ، هو المنهج الذاتي، والفهم التعاطفي للحياة الباطنية للآخرين من خلال المنهج التحليلي، وذلك بناء على نظرته للتاريخ والكون.

حسب نظر هردر فإن التاريخ لا تتحكم فيه النزعة العملية الخاصة بانجاز الأفعال، بل كإنسان ذو مشاعر. وعلى ذلك لم ينظر إلى مجموع أفعاله كما يفعل المؤرخون

---

(4) كانتور، نورمان ف: التاريخ الوسيط، قصة حضارة : البداية والنهاية، ترجمة: قاسم عبده قاسم، القاهرة ب د، ص17.

(5) يذكر أنصار العلم التجريبي أنه يمتاز بعدة مميزات منها أنه يولد اليقين التام ، ومنها أنه يبرهن على حقائق لا يمكن الوصول إليها بغير طريق التجربة ، ومنها أنه أقدر على اكتناه أسرار الطبيعة. (أنظر : عبدالرحمن بدوي : فلسفة العصور الوسطى ، القاهرة 1979م ،ص يج.)

(6)هردر (1744-1803): فيلسوف ورجل دين وشاعر ألماني. امتاز شعره بالسهولة والنزعة الوجدانية , أشهر مؤلفاته كتابه الفلسفي خواطر في فلسفة تاريخ الإنساني وفيه حاول أن يفسر النمو الإنساني عن طريق البحث في ماهية اتصال الإنسان بالبيئة الطبيعية.. (للمزيد انظر: Herder, J. G., Another Philosophy of History and Selected Political Writings, Translated Evrigenis, I. D. and Pellerin, D., Indianapolis 2004, pp ix ff).

ولكن إلى ديناميكية مشاعره. وجميع الأفعال الإنسانية السياسية والفلسفية والدينية والفنية لا تمثل إلا الجانب الخارجي من الإنسان.[7]

كما أن الإنسان ارتبط ارتباطا وثيقا بالكون المادي المحيط به، فالكون وضع على هيئة كائن حي يسمح بخلق كائنات حية عليا فيه، تنمو وتتطور في داخله، لتبلغ مبلغ النضج الكامل، أو أسمى مراتب الخلق. فالإنسان بهذا هو حلقة بين عالمين، العالم الطبيعي – الكون المادي — الذي نشأ منه، والعالم الروحي الذي يخرج إلى حيز الوجود المادي في هذا الهيكل الإنساني، لأن وجوده الروحي يتخذ شكل قوانين روحية تظهر آياتها على الأرض.

والتاريخ:" مسرح يبين دور الله في رعاية الإنسان على الأرض. وكل شيء يجري في هذا المسرح لغاية ما؛ بالرغم من أننا لن نستطيع أن نرى الغاية النهائية. أنه مسرح تظهر فيه العناية ألإلهيه فقط من خلال ثغرات وأجزاء متناثرة من المشاهد الفردية"[8]. ولذلك فإن هردر لا يرى في التاريخ مجرد الأحداث الظاهرة الخارجية، بل يسعى إلى رؤية روحه، الروح الكامنة خلف الأقنعة والحجاب. وكل جزء من الأجزاء لا يعد جزءاً فحسب، بل أن الكل يحيا في كل جزء من الأجزاء، ولهذا توصف فلسفة هردر أنها تفسير روحي للتاريخ. حيث لا يفهم الروح إلا الروح[9]. وبما أن الكون كائن حي فالتاريخ هو أفعال هذا الكائن. ولذلك لا يمكن فهم روح الأمة وشخصيتها بمنهج العلوم الطبيعية التي سوف لن يبين سوى المظهر الخارجي للأحداث . أما روح التاريخ

---

(7) كاسيرر، آرنست :في المعرفة التاريخية، ترجمة أحمد حمدي محمود، القاهرة 1997،ص8 وما بعدها.

Hamilton, Paul., Historicism, London 1996, pp41ff

(8) كاسيرر : المعرفة التاريخية، 11.

Leventha, R S, The Disciplines of Interpretation: Lessing, Herder, Berlin1994, p.164

(9) كاسيرر: المعرفة التاريخية، 14.

وباطنه فلا يمكن التعرف عليه إلا من خلال الروح الداخلية للإنسان التي تستطيع ان تكشف روح العصر[10].

كان هردر يشعر بأهمية نظرته الذاتية إلى درجة أنه زها بتمكنه من قراءة التوراة كما لم يقرأها أحد من قبل، فالتوراة بعد قراءته أصبحت كتابا مقدسا كشف عنه الغموض بعد قرون من الغموض كما يدعي .

ويبدو المنهج الذاتي واضحاً في فكر هردر عندما جعل من أوروبا مركز تاريخ العالم وأعطى الجنس الأوربي أعلى مراتب التقدير في التاريخ الإنساني. كما أن نظريته تستند إلى أن الخصائص السيكولوجية المتوارثة في التكوين هي أساس الفوارق بين الأوضاع الاجتماعية و السياسية للأجناس البشرية المختلفة[11]. وهي نظرية كانت مبرره للتعصب القومي[12]. إلا أن بعض الباحثين يرون أن هردر أراد تأسيس المنهج العلمي لفلسفة التاريخ[13].كما أن الكثير منهم يقرون بتأثيره الكبير على تاريخ فلسفة التاريخ وتطورها[14]. وتأثيره على الفلاسفة أمثال هيجل ودلتاي[15]. وما نستطيع أن نقوله: أن فكره الفلسفي بلا شك كان له التأثير الأول في اتخاذه هذا المنهج.

(10) أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ،الاسكندرية1975، ص29.

(11) اختلف علماء النفس في العوامل المؤثرة والدافعة للسلوك الإنساني ، هل هي البيئة والظروف المحيطة أم العامل الوراثي، أو هي عوامل متداخلة بينهم تختلف بحسب ظروفها.(أنظر: سايمنتن، دين كيث: العبقرية والإبداع والقيادة ، ترجمة شاكر عبد الحميد، الكويت1993، ص49 وما بعدها).

(12) كولونجوود: فكرة التاريخ، 171 و ما بعدها.

(13) Pickering, M., Auguste Comte: An Intellectuall Biography, Cambridge ,1993, p279

(14) The Dictionary of the History of Ideas, Virginia, 2003, Vol. 3, p305

(15) Forster, M., "Johann Gottfried von Herder", The Stanford Encyclopedia of Philosophy (Winter 2001 Edition), Edward N. Zalta (ed.), URL <http://plato.stanford.edu/archives/win2001/entries/herder/>.

سيأتي التعريف بهيجل ودلتاي لاحقا.

على أن بهذا الفكر والمنهج كان هردر يعد رائد رفض فكر ما يسمى بعصر التنوير[16]، وهو العصر الذي انقلب على الكنيسة والمسيحية، كذلك كان رائد فكر استقلال المنهج التاريخي عن مناهج العلوم الطبيعية[17]. كأحد الفلاسفة المسيحيين.

رانكه : المنهج الوصفي (وصف ما كان كما كان):

يعد ليبولد فون رانكه Leopold Von Ranke [18] (1795- 1886) رائد المنهج الوصفي الموضوعي للتاريخ ، فهو وإن كان متأثراً في تفسير وفهم التاريخ إلى حد ما بفكر هردر إلا أن منهجه كان مختلفاً تماماً. وهو منهج "وصف ما كان كما كان" و البدء بالبحث التاريخي دون أحكام مسبقة " بموضوعية كافية" و بالاستناد إلى مصادر معاصره للحقبة موضوع الدراسة، مصراً على انه ينبغي للمؤرخ ألا يضيف لمادته شيئاً بقصد زيادة سحرها الجمالي، أو سعياً لإحداث تأثير بلاغي. أي كان منهجه المنهج الوصفي و الدعوة إلى الموضوعية التامة دون أي تأثير أو تدخل من المؤرخ نفسه. أو الانحياز إلى أي طرف، أو الدفاع عن أي برامج دينيه أو قوميه أو سياسية، ووصف من يقوم بذلك بأنهم ليسو مؤرخين بل مجرد كتاب نشرات .و بهذا قامت فكرة الموضوعية التاريخية عند رانكه على مثل هذا الفصل بين الذات و الموضوع

---

(16) كان أيضا من منتقدي حركة التنوير رواد الحركة الرومانتيكية الذي يعد هردر واحدا منهم. حيث هاجموا تقديس العقل الطاغي وقالوا أن العقل منحط لأن دوافعه منحطة ، إذ يتحول إلى مجرد أداة لتحقيق الشهوات المنحرفة. وان الأساس في الإنسان هو الأخلاق والقيم. لا نفع للعقل بدونهما (أنظر: أحمد محمود صبحي و صفا عبد السلام جعفر: في فلسفة الحضارة، بيروت1999،ص172-181).

(17) أحمد محمود صبحي : فلسفة التاريخ ، 26 وما بعدها.

(18) رانكه: أشهر المؤرخين الألمان في القرن التسع عشر. ويعده البعض مؤسس المنهج العلمي للتاريخ . ألف عدة كتب منها تاريخ الأمم اللاتينية والتوتونية. وفي هذه المؤلفات استخدم مصادر كانت تعد جديدة آنذاك مثل: المذكرات والمفكرات والرسائل والاستعانة بشهود عيان. (Krieger L., Ranke : The Meaning of History, Chicago 1977).

أو الشخصي و الواقعي. محاولاً عدم التعبير عن الاهتمام بصوره ذاتية أو شخصيه لكل الأحداث التاريخية التي وصفها[19].

كما كان رأيه أن التاريخ لا ينبغي أن يكون مُصاغاً بطريقه توجيهية تربوية مباشرة. حيث يمكن أن يحقق هذه الأهداف التربوية من خلال الوقائع المجردة و الأفكار، ودون تدخل المؤرخ نفسه.[20] والجدير بالذكر أن الوصف كان من أهم مناهج المعرفة بشكل عام منذ التاريخ القديم ، وخاصة عند اليونان.

وربما لا نستطيع فهم منهجه إلا من خلال قراءة فلسفته، فإنه وإن كان يعارض كل فلسفة تأمليه للتاريخ، إلا أنه كان يؤمن بالفهم الكلي لحركة التاريخ، وعالمية و كلية المتغيرات التاريخية. فالتاريخ لم يكن عنده مجرد سلسلة من الأحداث المنعزلة، بل كان أحداثا محكمة، متبادلة التأثير و صراعا محكما بين القوى الروحية، و كان لكل من هذه القوى معنى محدده عنده، وقد اسماها "أفكار الله".

فالتاريخ لا يقدم مشهداً لأحداث مجردة كما يبدو للنظرة الأولى، وهو ليس مشهداً للدول و الشعوب القائمة بالغزو أو الهجوم و يتلوا بعضها بعضاً، وهناك في الحقيقة قوى روحية تفيض بالحياة، وهي قوى خلاقة، إنها الحياة نفسها. وهناك طاقات أخلاقية نراها هي بدورها في التاريخ. و لا يمكن لهذه الطاقات أن تعرف، أو أن تفهم مجردة ، بالرغم من أننا نستطيع أن نراها و أن ندركها. ويستطيع أي شخص أن يدرب نفسه على الشعور بوجودها. إنها تنمو و تسيطر على العالم، و تظهر نفسها في كثير من الصور المتنوعة. كما أنها تتحدى بعضها البعض و يحد بعضها البعض و يتغلب

---

(19) كاسيرر: المعرفة التاريخية، 23 . عن الموضوعية والذاتية في الكتابة التاريخية أنظر: عبد المالك التميمي: الموضوعية والذاتية في الكتابة التاريخية المعاصرة، عالم الفكر، العدد 4 المجلد 29، الكويت إبريل يونيو 2000 .

(20) كاسيرر: المعرفة التاريخية، 23؛ احمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ،35. يعد التوجيه التربوي أحد أهم أهداف دراسة التاريخ، وأجل فوائده.(أنظر: أحمد قائد الصايدي: مناهج البحث، 34،33).

بعضها على بعض. ويكمن السر الكامل لتاريخ العالم في تلاقي هذه القوى، و في انتقالها، وفي استمرارها، و في تلاشيها، وعودتها للحياة ثانيةً. هذه الأشياء تعني أن هذه القوى تستطيع أن تحقق كمال أعظم[21] . ورغم أن معظم عمل رانكه والأكثر أهمية كان في تاريخ الكنيسة[22] ، إلا أن المنهج الذي اتخذه رانكه عُد نموذجاً للمنهج التاريخي[23].

على أنه وجهت انتقادات عديدة إلى فكر ومنهج رانكة من بعض المعاصرين له ومن تلاهم من المؤرخين ، منها أنه حول التاريخ إلى سجل جاف فاقد لبعده الأدبي حيث أصبح مجرد سجل للحقائق والمؤيدة بقائمة طويلة من المصادر والمراجع. كما أخُذ عليه أنه كان متعصباً للدولة البروسية ومناهضاً لكل حركات التحرر التي قامت في أوروبا في عصره. ومن أبرز منتقديه لامبرخت Lamprecht (1856-1915م)[24] ودروسن[25] Droysen و ياكوب بوركارت[26] Jacob Burckhardt (1818-1897) الذي كان تلميذاً لرانكه نفسه[27] .

---

(21) كاسيرر: المعرفة التاريخية، 25.أنظر على سبيل المثال : Ranke, L.V., The Ecclesiastical and Political History of the Popes of Rome :During the Sixteenth and Seventeenth centuries, Translated from the Germany by Austin, S., in two volumes, Oxford,1841.

(22) Amron, E., Interpreting Christian History: the Challenge of the Churches past,Oxford,2005,p153.

(23) Hughes, M., Fifty Key Thinkers on History, London, 2000,p260.

(24) لامبرخت: مؤرخ ألماني وأستاذ جامعي له من الدراسات: تقدم معايير التطور التاريخي والغاية القديمة والحديثة للمعرفة التاريخية. ومنهج تاريخ الحضارة (للمزيد أنظر: كاسيرر: المعرفة التاريخية، 127 حاشية 2، 6،5،4،3) .

(25) ستأتي الدراسة عنه لاحقا.

(26) ياكوب بوركار: مؤرخ سويسري اختص بتاريخ الفن والحضارة ، من مؤلفاته: تأملات في تاريخ العالم وحضارة النهضة في إيطاليا والتاريخ الحضاري لليونان، وكان مذهبه هو الحدس والخيال والتأمل في كتابه التاريخ (انظر:

المنهج الجدلي :

وهو أهم وأشهر منهج لتفسير التاريخ برز في القرن التاسع عشر على يد هيجل Hegel [28](1770-1831) رائد الفكر المثالي[29] في أوروبا. ثم اخذ عنه هذا المنهج كارل ماركس أهم فيلسوف للفكر المادي أيضا. وعلى ذلك فالمنهج الجدلي نموذج لمنهج تفسيري يمكن أن تستند إليه نظريتان متضادتان تماما في تفسير التاريخ وهما التفسير المثالي والتفسير المادي.

والجدل Dialectic في معناه اليوناني يعني تصادم الآراء المتقابلة بقصد معرفة الحقيقة أو طريقة الإقناع، الذي استعمله الفيلسوف اليوناني هيرقليطس[30] Heraclites (حوالي 500 ق م) بمعنى الصراع والتغير المستمر في الطبيعة[31].

كاسيرر:المعرفة التاريخية ،125،126، حاشية 12-15 ؛ مصطفى إبراهيم: الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، الإسكندرية 2020م،ص198)

(27) ويكيبيديا ، ليوبولد فون رانكه.

(28) هيجل: فيلسوف ألماني ولد في 1787 في مدينة شتوت جارد ، درس الفلسفة واللاهوت ثم ركز دراسته أكثر في أعلام التصوف الألمان ، عمل مدرسا خصوصيا، ثم مدرسا في جامعة ييل ثم في جامعة هيدلبرج وجامعة برلين، يعد أعظم الفلاسفة الألمان في عصره.(عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية، بيروت1984م، ج2ص574 وما بعدها).

(29) المثالية Idealism : من المثال وتعني في الإغريقية الصورة او الفكرة والفلسفة المثالية هي التي تقول أن أصل الوجود هو الفكر أو العقل أو الوعي والمادة هي الثانوية. بينما الفلسفة المادية تقول أن المادة هي أصل الوجود وان الفكر أو الوعي هو انعكاس لها .(عبدالمنعم حفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، القاهرة2000م، ص739،723).

(30) فيلسوف يوناني قديم سابق لسقراط ، ينتمي إلى الأسرة الملكية الحاكمة في افسوس آنذاك، أطلق عليه اسم الفيلسوف الضاحك والفيلسوف الغامض، قال ان العالم في حالة من التغير والحركة المستمرة.(عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية،533/2).

(31) جميل صليبيا: المعجم الفلسفي، بيروت ب د ،ج2ص310.

واشتغل به بعض الفلاسفة الغربيين(32)، على أن هيجل طور هذا المعنى فعد الجدل الذي هو عبارة عن القضية والنقيض لها ثم مركبهما أنه قانون الوجود والطبيعة والفكر والمجتمع، وأن الجميع في حالة صيرورة وتغير وتحول دائم بحسب هذا التركيب لمنطق الجدل(33).

تقوم نظرية هيجل في تفسير التاريخ على مبدأ وحدة الوجود، إذ لا موجود إلا المطلق الواحد، و المطلق هنا ليس مجموع أجزاء ، ولكن وحدة مطلقة لا تعتمد على شيء خارج عنها. وعلى ذلك لا توجد أي ثنائية على الإطلاق، فلا ثنائية بين عالم المثال وعالم الواقع حيث الفكر والوجود وحدة مطلقة.

والمطلق الذي هو روح العالم هو المسير الحقيقي لكل شيء ، وحركة التاريخ ما هي إلا سعي الروح الكلية لتحقيق وعيها الذاتي بحريتها. والحرية هنا بمفهوم قدرتها على تحقيق كل شيء. وأسلوب المطلق لتحقيق ذلك هو المنهج الجدلي حيث الصيرورة تبدأ من القضية أو الموضوع ثم نقيضه ثم المركب لهما. هذا المنطق هو الذي يحكم حركة التاريخ وهو الذي يفسر كل شيء.

والمثال التقليدي للجدل هو مثل حبة القمح التي تنمو فينبثق منها الساق فتنتفي كبذرة وينمو القمح ويحمل السنابل، عندها يهلك الساق، وهذا هو نفي النفي ، أو مركب النقيضين. على أن حبات القمح في السنابل تحمل خصائص البذرة الأولى وهكذا.

---

(32) أنظر على سبيل المثال: ديورانت، ويل: أبطال من التاريخ، ترجمة: سامي الكعكي و سمير كرم ، بيروت2001،ص227 ؛ سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، القاهرة1986م،ج2ص371.

(33) عبد المنعم حفني: المعجم الشامل ،249.أنظر على سبيل المثال:

Hegel, G.W.F, The Philosophy Of History, Translated by J. Sibree ,Kitchener 2001, pp73,79,458.

وعلى ذلك فإن حركة التاريخ هي صراع الأضداد، حيث لا تكشف الروح عن نفسها إلا من خلال صراع. ومن ثم فإن الجدل هو سر حركة التاريخ[(34)]. ومذهب هيجل من التعقيد بحيث يحتاج إلى مزيد من الشرح ، وقد ألتف حول النظرية الكثير من الأنصار، وحازت على الكثير من الدراسات والاهتمام، ومثلت قمة الفكر المثالي في أوروبا.

ولا نعرف ما إذا كان هذا المنهج قد سبق النظرية والفكرة عند هيجل أم أن النظرية هي التي صنعت هذا المنهج التفسيري. على انه سرعان ما اخذ عنه هذا المنهج كارل ماركس[(35)](ت1818م) ليضع نظريته المادية في تفسير التاريخ. لكن ماركس وانجلز[(36)] (ت1895م) اسقطا العمق والجوهر المثالي عن المنهج الجدلي واعتبروا أن جدل هيجل كان واقفاً على رأسه وليس على قدميه بسبب فكره المثالي، ثم ألبسوا المنهج لباساً مادياً لتفسير الظواهر الإنسانية والطبيعية على حد سواء . الشيء الذي عده بعض المفكرين تشويهاً للهيجلية وسوء فهم لها[(37)]. ومع ذلك فإن ماركس وانجلز

(34) أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ،209 وما بعدها؛ رأفت الشيخ: تفسير مسار التاريخ، القاهرة2000،ص151 وما بعدها؛ عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة،588/2 وما بعدها. أنظر أيضا: إمام عبد الفتاح إمام: المنهج الجدلي عند هيجل، بيروت1982.

(35) ماركس، كارل (1883-1818) : مؤسس الشيوعية وفيلسوفها من أصل يهودي ألماني درس القانون بألمانيا اضطهد في ألمانيا بسبب نشاطه الثوري فانتقل الى باريس حيث التقى فريدريك انجلز واصدرا معا الوثيقة الشيوعية الأولى المعروفة باسم البيان الشيوعي (1848) هاجر إلى انجلترا حيث أقام بها حتى وفاته له عدة مؤلفات أهمها كتابه رأس المال.(احمد صبحي: فلسفة التاريخ،221 حاشية1)

(36) انجلز، فريدريك (1895-1820) : اشتراكي ألماني شارك مع كارل ماركس في وضع أسس النظرية الاشتراكية وفي البيان الشيوعي الشهير 1848 اضطر إلى الإقامة الدائمة في انجلترا على اثر فشل ثورة 1848 كان من رجال الأعمال وساعد ماليا ماركس في التفرغ للبحث والدراسة ومن اهم كتبه معالم الاشتراكية العلمية (الموسوعة العربية الميسرة، 237).

(37) أنظر: عبد الرحمن بدوي : الموسوعة الفلسفية،575/2 وما بعدها.

اعترفا بالفضل لهيجل حيث يشير انجلز عن الجدل الهيجلي انه عمل لم يضطلع به أحد منذ أرسطو سوى هيجل، بل أنه أعظم ما أنجزته الفلسفة الكلاسيكية الألمانية[38].

لقد أعجب ماركس وانجلز بالمنهج الجدلي لأنهم رأوا فيه منهج يستطيع ان يفسر مجرى التطور والتغير المستمر في المجتمع وفي الطبيعة، كحركة دائمة، وذلك عكس المناهج الأخرى ذات النظرة الاستاتيكية الجامدة[39] .

ثم وضع ماركس قوانين تشكل منهجه في تفسير التاريخ، القانون الأول التغير من الكم إلى الكيف سواء في عالم الطبيعة أو عالم الإنسان. والقانون الثاني تداخل الأضداد وصراعها والقانون الثالث نفي النفي، وكلها قوانين تفسر حركة الطبيعة والمجتمع من منظور التفسير المادي.[40] وهكذا فالجدل منهج يفسر كل شيء –حتى الفكر– أنه يتطور من الأدنى إلى الأرقى نتيجة التناقضات الداخلية التي تعمل فيه.

وإذا كانت الفلسفة هي إبداع العقل البشري في الفهم ، إلا أن هذا العقل يتطرف أحيانا بعيدا في جانب محدد ويغفل كل الجوانب الأخرى، كما فعل ماركس وانجلز في تفسيرهما المادي للتاريخ عندما وضعا العامل الاقتصادي والحاجة المادية للإنسان وصراع الطبقات هو العامل الأهم المفسر للتاريخ.

---

(38) احمد محمود صبحي: فلسفة التاريخ،222.

(39) احمد محمود صبحي: فلسفة التاريخ،223.

(40) رأفت الشيخ: تفسير مسار التاريخ،170-172.

ثم لم يلبث أن وصلت التأثيرات الفكرية الأوروبية إلى الساحة العربية[41] ، فأخذ بعض الباحثين تطبيق المنهج الجدلي المادي في دراسة تاريخ الإسلام وفكره، وألبسوا نظرية صراع الطبقات على تفاصيل التاريخ العربي، فقالوا أن أبا ذر ومجموعة من الصحابة كانوا يساريين ومعاوية وآخرون من التيار اليميني. أو تقسيم آخر الأشاعرة والفقهاء كانوا رجعيين، بينما ابن رشد[42] والمعتزلة تقدميين عقلانيين.

ويرى أصحاب هذا المنهج أن الإسلام –فكراً وتاريخاً– ما هو إلا نتاج العلاقات الاقتصادية كحتمية تاريخية لا بديل عنها. وأنه انعكاس لتحولات أسلوب الإنتاج والتبادل داخل المجتمع العربي.[43]

على انه يلاحظ أن الدعاة إلى هذا المنهج خرجوا برؤى متباينة وتطبيقات مخالفة عن بعضهم البعض. الشيء الذي يصبغ الذاتية على أبحاثهم ودراساتهم ذات المنظور الماركسي للتاريخ الإسلامي.[44]

---

(41) يعد البعض الجامعة والمدرسة الحديثة بنظامها القائم جزء من التراث الاستعماري للمنطقة العربية، حيث الاهتمام والتركيز فقط على العقل وإغفال الجانب الروحي والقلبي والسلوكي ومتطلبات النمو الوجداني للطالب، بعكس المدرسة في التاريخ الإسلامي حيث الاهتمام المتوازي بنمو العقل وبناء الروح، أو علوم العقل وتزكية النفس، أو القيم والتطبيق. (أنظر على سبيل المثال: محمد حسين الصافي: علماء التزكية ودورهم العلمي والدعوي في عهد الدولة الرسولية، مجلة الإكليل، العددان 30-36 يناير يونيو 2010م، صنعاء، ص44،43).

(42) ابن رشد، محمد بن أحمد أبو الوليد (520-595هـ/ 1126-1198): فقيه وفيلسوف من قرطبة اهتم بفلسفة أرسطو وترجمها إلى العربية ، وزاد عليه زيادات كثيرة، ألف نحو خمسين كتاباً ، منها فصل المقال فيا بين الحكمة والشريعة ن الاتصال ،ومنهاج الأدلة في الأصول وتهافت التهافت في الرد على أبو حامد الغزالي. اتهمه أعدائه بالزندقة والإلحاد، فحرضوا عليه المنصور، ونفاه إلى مراكش، واحرق بعض كتبه ، ثم رضى عنه وأذن له بالعودة إلا انه توفي بمراقش، ونقلت جثته إلى قرطبة.(ابن العماد: شذرات الذهب،367/4؛ الزركلي خير الدين ، الأعلام ،318/5).

(43) شاكير احمد السحمودي: مناهج الفكر العربي المعاصر في دراسة قضايا العقيدة والتراث، جدة 2010م ، 41-44.

(44) شاكير السحمودي: مناهج الفكر،44 وما بعدها.

منهج همبولت (الوصف الخلاق):

أصبح منهج رانكة من الناحية العملية مهيمناً على الكثير من المؤرخين[45] ، مثل همبولت[46] Wilhelm Von Humboldt (ت1835م) الذي يقول مع رانكه[47]:" إن مشكلة المؤرخ هي أن يذكر ما حدث فعلاً ، فإن الوصف المباشر هو الطلب الأول و الجوهري الذي يطلب منه، كما أنه أسمى ما يستطيع أن يحققه". وإذا اتبعنا هذه النظرة فيبدو أن ما يقوم به المؤرخ هو أن يستوعب فقط، وأن يكرر لا أن يعمل عملاً مستقلاً جديداً وخلاقاً.

فهو يتفق مع رانكه إن منهج المؤرخ هو الوصف و لكنه يختلف معه في أن مهمة المؤرخ في حاجة إلى تعاون دائم مع الخيال الخلاق الذي يستطيع وحده ربط الوقائع المنفصلة و الموزعة في نطاق واسع بعضها ببعض في وحده حقيقية. ولكن من الواجب ألا ينطلق خيال المؤرخ بعيدا عن الأحداث الفعلية. و لكن التأمل و التجربة هي أوجه مختلفة للعقل المدرك للتاريخ.((48)).

أما فلسفة همبولت فهي تشير إلى أن الظواهر الجزئية لوقائع التاريخ، تظهر دواما معينا و نظاما و خضوعا للقانون. و التاريخ بصرف النظر عما يتراءى من مظهره

(45) تومسون ، كينيث: قادة الفكر الدولي في القرن العشرين ، ترجمة: حسين فوزي النجار ، القاهرة ب د ، ص4 وما بعدها.

(46) همبولت: مؤرخ ألماني، له العديد من الدراسات منها: مهمة الكتاب التاريخي، وتدهور الدولة الحرة اليونانية وسقوطها ومشروع العلم الانتروبولوجي المقارن و تأملات حول تاريخ العالم.(أنظر: كاسيرر: المعرفة التاريخية،121، 122 حاشية 31، 36، 39، 41).

(47) كاسيرر : المعرفة التاريخية،29.

(48) كاسيرر: المعرفة التاريخية، 29.

الحي، وتعدد جوانبه، فإنه يشبه آله ميكانيكية تخضع لقوانين ميتة لا تتبدل، كما أنه يبدو خاضعا لدفع قوى ميكانيكية.((49))

ولكن بالمقابل رفض همبولت أي غائية أو هدف محدد إنساني، أو إلهي. مدعيا إن القوى الدافعة في تاريخ العالم هي بصفه رئيسيه القوى الإنتاجية، و الحضارة و القصور الذاتي(الإنساني). و لذلك لا يعترف سوى بقوى الطبيعة الإنسانية فقط، ولا شئ سواها.(50)

و إذا كان همبولت اتفق مع رانكه حول المنهج الوصفي إلا أن رانكه اختلف عنه في نظرته للعوامل التي تسير حركة التاريخ، فهي بالنسبة لهمبولت قوى إنسانيه، بينما عند رانكه سر إلهي.(51)

ولعل هذا ايضاً نموذج للاتفاق في المنهج والاختلاف في الفكر الكلي بين اثنين من مفكري التاريخ كما في المنهج الجدلي.

(49) كاسيرر: المعرفة التاريخية، 31.

(50) كاسيرر: المعرفة التاريخية، 32.

(51) كاسيرر:المعرفة التاريخية، 32.

أوجست كونت: (المنهج الوضعي):

لكن سرعان ما ظهر اتجاه الاستخدام الوظيفي والغائي للمنهج التاريخي. وتمثل ذلك في أوجست كونت[52] August comte (1798 -1857) الذي عد نفسه مؤسس المذهب الوضعي وعلم الاجتماع[53]، وملخص مذهبه الدعوة إلى استخدام مناهج العلوم الطبيعية في دراسة العلوم الإنسانية .

والغاية من استخدام المنهج الوضعي هو البحث عن القوانين العامة للتغير المستمر في الفكر الإنساني، و لا يمكن أن يقتصر على مجرد سرد الحوادث. وهدف هذا المنهج هو الوصول إلى التنبؤ من اجل السيطرة و التحكم. [54] و الكشف عن فكرة التقدم في التاريخ و اعتبار أن الإنسان كائن حي مثل باقي الكائنات. و لذلك فهو خاضع للقوانين التي تتحكم في الطبيعة الحية. وكل ما قيل في طبيعة الإنسان الروحية باعتبارها شيئاً لا يخضع للوجود الحيواني وأحواله هو مجرد وهم. وعلى المنهج الوضعي نبذ ذلك. زاعماً أنه اكتشف القانون العام للتطور الذي تنشأ منه فلسفة أو منهج كلي حقيقي للتاريخ كما أن التطور الاجتماعي الذي تصوره، ما هو إلا استمرار للتطور البيولوجي الحاصل في بقية الكائنات الحية. [55].

---

(52) اوجست كونت : عالم اجتماع وفيلسوف اجتماعي، مؤسس الفلسفة الوضعية القائلة لا سبيل إلى المعرفة إلا بالحواس والخبرة (عبدالرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة،311/2 وما بعدها)

(53) الفلسفة الوضعية: الوضعية عند كونت تعني الواقعي والنسبي والمعطى المباشر من التجربة. ويمكن تعريف المذهب الوضعي بأنه هو الفلسفة التي تعمل ضمن فلسفة العلوم الطبيعية-الكشف عن القوانين- والداعية إلى استخدام المناهج التجريبية في العلوم الإنسانية لتحقيق المعرفة العلمية.(عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل،944،943 ؛ كولنجوود: فكرة التاريخ، 220).

(54) محمود عوده: تاريخ علم الاجتماع، ج1 بيروت ب د، ص 89.

(55) كاسيرر: المعرفة التاريخية، 35، 36 ؛ ويدجيري: المذاهب، 26، 265 ؛ كولونجوود: فكرة، 232 ؛ 236. أنظر أيضا: Lewes, G H., The Biographical History of philosophy from It Origin Greece Down to the Present Day, New York,1857,pp776-784.

وبالتقسيم المنهجي الذي وضعه كونت جعل مهمة المؤرخين هي فقط توثيق الوقائع التاريخية، و التأكد منها عن طريق النقد و التحليل، بينما مهمة الكشف عن قوانين حركة التاريخ تركت لعلماء الاجتماع، حسب زعمه.[56]

ونستطيع القول أن القرن التاسع عشر هيمنت عليه نزعة تنكر الدين، وتؤمن بإمكانية تفسير كل الظواهر باختلاف أنواعها وتعددها من خلال المنهج التجريبي فقط ، واستسلم مفكرو هذا العصر وفلاسفته لسيطرة نموذج فيزياء نيوتن القائم على التجربة، وتم تعميم أسس المنهج الوضعي لتشمل العلوم الإنسانية. وكان من نتائج ذلك ، أن تم اختصار الظواهر الإنسانية في جوانبها الحسية والفيزيائية، وإبعاد كل ما هو غيبي من هذا الوجود، حتى أصبح لم يعد هناك فرق بين الظاهرة الإنسانية والظاهرة الطبيعية. كما تم تجريد العلم من كل قيمة أخلاقية، والتركيز بطرح سؤال الوسائل دون سؤال الأهداف والغايات، ذلك أن "الحالة الوضعية تقوم أساسا على اعتبار الظواهر خاضعة للقوانين، وأن مهمة البحث العلمي هي العمل على الكشف عن هذه القوانين؛ أي بيان شروط وجود الظواهر، لا أسبابها الأولى والأخيرة. إن المهم والأساسي – في نظر أوجست كونت – هو بيان كيف يحدث الشيء، لا البحث في لماذا حدث"[57]. وبهذا تتحول أهداف الدراسات التاريخية من محاولة الإجابة على

---

(56) حدد كونت لهذا العلم أربعة مناهج أساسية للبحث و المعرفة العلمية الوضعية وهي: الملاحظة – التجربة – المنهج المقارن– المنهج التاريخي. والمنهج التاريخي، حسب نظره هو أفضل وسائل البحث (محمود عوده: تاريخ علم الاجتماع، 89). ولعل ابرز من استخدم المنهج المقارن هو الانجليزي أرنولد توينبي ، مع استخدام منهج آخر بجواره وهو منهج دراسة العلاقة أو الاتصال بين الحضارات. وبموجب ذلك توصل إلى نظريته الفلسفية للتاريخ ، نظرية التحدي والاستجابة. ولا ريب أنه تأثر في موضوع المنهج بمن سبقوه وخاصة أسوالد شبنغلر.(أنظر: توينبي، أرنولد: الحضارة في الميزان، ترجمة: أمين محمود الشريف، دمشق2006،ص217،216،25).

(57) علي صديقي : إشكالية المنهج في الدراسات الإنسانية والأدبية

سؤال لماذا ، إلى الإجابة على كيف حدث. فالعلم حسب نظره دراسة العلاقات السببية للظواهر وليس دراسة الماهيات للظواهر ذاتها . وبهذا فقدت النزعة العلمية التي يدعيها كونت فهم غائية الوجود والتاريخ والإنسان[58]. وربما نستطيع القول أن الوضعية لم تكن سوى رد فعل على المثالية الألمانية ومنهجها التأملي[59]، وهو ما يؤكد التفسير الجدلي للتاريخ الفكري لأوروبا. إذ عندما يسود تيار فكري معين لا يلبث أن ينشأ تيار فكري آخر مضاد له وهكذا. ومن النقد الذي وجه للوضعية : أن العلم ليس محايدا ولا مستقلا، بل أن العلم تجربة روحية تتداخل مع التجارب الروحية الأخرى[60].

هنري بكل: (المنهج الإحصائي لكشف قوانين التاريخ) :

كان المنهج الإحصائي هو المنهج العلمي الذي دعا إليه و اتخذه المؤرخ الإنجليزي هنري توماس بكل[61] Buckle (ت1862م) ليثبت من خلال هذا المنهج أن لا شيء مصادفة في التاريخ الإنساني، و أن التاريخ يخضع لقوانين صارمة شبيهة بقوانين الطبيعة، موضحا على سبيل المثال: أن عدد الجرائم التي تقترف كل عام تخضع لقوانين رياضية صارمة مثل أية ظاهره طبيعية.

. http://www.odabasham.net .2008/12/20

(58) الطيب بو عزة : الدين من المنظور الفلسفي الغربي ، الفلسفة الوضعية نموذجا ، مجلة التسامح ، العدد26 مسقط 2009م ، ص62 وما بعدها.

(59) باسكيز ، أضولفو: البنيوية والتاريخ ، ترجمة مصطفى المسناوي ، بيروت 1981،ص10.

[60]) عبدالله السيد ولد أباه: اضطراب المفاهيم في اللفلسفة الحديثة، جدل الحداثة لدى ليو شتروس نموذجا، مجلة التسامح ، العدد27 مسقط 2009م ، ص154.

(61) هنري توماس بكل: مؤرخ انجليزي ،اشتهر بكتابه: تاريخ الحضارة في انجلترا.

(أنظر: Wikipedia,Henry Thomas Buckle).

وكانت النتيجة هي الدمج بين التاريخ و علم الطبيعة حسب رأي بعض الباحثين، حيث لا شيء يخلو من النظام الطبيعي و حتميته الصارمة. و أن الحرية المزعومة للإرادة الإنسانية هي وهم. وبذلك فإن بكل أزال كل الفوارق بين العالم الاجتماعي و عالم الطبيعة، و بين الأخلاق و علم الطبيعة. بل الوقوف موقف الوسط بين العالم الميتافيزيائي و العالم الفيزيائي حيث يؤكد بكل: " أن توطيد شروط هذا التحالف يعني تحديد الأساس الذي يعتمد عليه كل التاريخ ".(62)

ولكنه يؤكد أن فكرة الرفاه البشري مرتبط بشكل أكبر بالمعرفة العقلية، فالظواهر الطبيعية والأخلاق، أقل تأثيراً من تأثير المعرفة، وبهذا فإن التقدم مرتبط بالعبقريات الفردية إلى حد كبير. ولذلك تمسك بكل بالقول أن معرفة قوانين العلاقات الاجتماعية هو قبل كل شئ يجب أن يكون موضوع البحث التاريخي

ولا يمكن معرفة القوانين العقلية التي تنظم تقدم المجتمع إلا من خلال المنهج الإحصائي والمستند إلى مسح شامل للبيانات. ذلك لأن المناخ والتربة والغذاء والسمات الأساسية للطبيعة هي الأسباب الأساسية للتقدم الثقافي كما يقول. (63)

---

(62) كاسيرر:المعرفة التاريخية،36، 37 ؛ويدجيري: المذاهب، 268 و ما بعدها؛كولنجوود:فكرة التاريخ، 261.
Wikipedia, Henry Thomas Bukle. –

(63) ويدجيري: المذاهب، 268 وما بعدها؛ كولنجوود: فكرة التاريخ، 261.
Buckle, H. T., History of Civilization in England,Oxford,1858,p267ff.
لم يكن الكشف عن قوانين التاريخ منهجاً سائداً أو غاية عند كل المؤرخين . فعلى سبيل المثال يشدد لانجلويس Langluis (ت1929) انه ليس على المؤرخ صياغة قوانين عامة، إذ الهدف هو فقط توضيح الحقيقة ، فالتاريخ ليس علم ملاحظة بل هو علم كيفية معرفة ماذا حدث في الماضي من خلال المصادر غير المكتملة المتوفرة للمؤرخ .(Britannica, Historiography).

تاين : الوصف ثم التفسير :

أما منهج الوصف ثم التفسير أو جمع الوثاق ثم البحث بعد ذلك عن العلل فقد كان المنهج الذي دعا إليه المؤرخ الفرنسي تاين Hippolyte Adolphe Taine (1828 –1893م) [(64)] ، الذي حاول التخلص من هيمنة الفكر المثالي الهيجلي. على أساس أن تلك الوقائع أو الظواهر تتحدث عن نفسها وتفسر نفسها بنفسها و التخلص من أي معايير أو أحكام مسبقة أو قبلية أو الشعور بأي تعاطف شخصي أو نفور، أي أن على المؤرخ الحياد الكامل أو عدم الانحياز.[(65)] والسعي إلى استخدام المناهج الوضعية لدراسة التاريخ.[(66)] ولأجل ذلك فهو يتفق مع بكل في استخراج القوانين الناظمة للتاريخ.[(67)]

إلا أن الفارق بينه و بين كل من رانكه وهمبولت هو التبسيط الشديد لتفسير وقائع التاريخ الذي اعترف به تاين نفسه، حيث يشير إلى أن: " الدافع الكامن وراء كل أبحاثه هو العثور على تعبير غير معقد يفسر الأحداث العظيمة التعقيد".[(68)] ولأجل

---

(64)تاين :مؤرخ وفيلسوف وناقد فرنسي له العديد من المؤلفات مثل، فلسفة الفن و تاريخ الأدب الإنجليزي: و مقدمة التاريخ (انظر كاسيرر: المعرفة التاريخية ، 123،و حاشية 8 ،10، 15
Weinstein,L., Hippolyte Taine, Oxford 1972)

(65) كاسيرر: المعرفة التاريخية، 37، 38. أصبح بعد ذلك الوصف ثم التفسير ثم التنبؤ ثم السيطرة هي محاور العلم الأربعة المفترض توفرها في أي علم. إلا أن بعض العلوم لا تكتمل فيها هذه الشروط مثل علم الفلك أو علم الجيولوجيا و لذلك يأتي السؤال هل التاريخ علم يحقق محاور العلم الأربعة؟(انظر: يمنى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين، عالم المعرفة، 264 الكويت ديسمبر2000،ص368).

(66) عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة ، بيروت1984م ، ج1ص433.

(67) أحمد محمود بدر: تفسير التاريخ من الفترة الكلاسيكية إلى الفترة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، العدد 4 المجلد 29، أبريل يونيو2001، الكويت،ص27.

(68) كاسيرر: المعرفة التاريخية، 38.

ذلك كان تاين يصر على أن منهجه هذا هو المنهج العلمي الصحيح لدراسة التاريخ.[69]

و في نقد و تقييم تاين، تساءل المؤرخ كاسيرر هل كانت التصورات أو التفسيرات التي قدمها تاين بناء على المنهج الاستقرائي أم المنهج الاستنباطي[70]؟ ليكشف أن تاين لم يلتزم بحرفية منهجه المدعي- الاستقرائي- ، بل شابت تصوراته كثير من التفاسير المستنبطة وهو ما يسقط الموضوعية التي يدعيها و يناقض منهجه المزعوم.[71]

على أية حال، ظل تاين يؤيد النظرة الفردية في التاريخ، أي أن الفرد هو بداية التاريخ و غايته. ومنبع كل معرفه حقيقة، حيث يقول[72]:" لا يوجد أي شيء إلا من خلال الفرد، انه الفرد نفسه الذي يجب أن يفهم ... اتركوا إذن نظرية الدساتير ــ القوانين ــ و التفسير الآلي لتركيبها، و نظرية الدين وأنساقها، و بدلا من هذه الأشياء حاولوا مشاهدة الناس في مصانعهم و مكاتبهم وحقولهم ، كما يعيشون تحت الشمس، فوق أرضهم و في بيوتهم ... انظروا إلى ما يأكلون، و ما الذي يرتدون. فهذه الخطوة الأولى في التاريخ".

---

(69) Mansfield, E., Art History and Its Institutions, London, 2002, p93

(70) المنهج الاستقرائي : يبدأ بدراسة الجزئيات ليصل منها إلى قوانين عامة أو صيغ عامة، ويعتمد على التحقق بالملاحظة المنظمة وفي العلوم التطبيقية تكون الملاحظة خاضعة للتجريب والتحكم في المتغيرات المختلفة، وذلك عكس المنهج الاستنباطي، حيف البدء بفرضية عامة ثم محاولة اثباتها (أنظر : محمد زيان عمر: البحث العلمي ، مناهجه وتقنياته، القاهرة2002،ص49،48).

(71) المعرفة التاريخية، 39 و ما بعدها.إذ يدعي الوضعيون ان الموضوعية في المنهج الاستقرائي ويهاجمون المنهج الاستنباطي.

(72) كاسيرر: المعرفة التاريخية، 40 وما بعدها.

دروسن : تعدد المناهج :

ثم لم يلبث بعد ذلك أن ظهر جيل جديد من المؤرخين، لا يقتنعون بمناهج رانكه و معاصريه ومن تلاهم من المؤرخين. و لكن سيطرت عليهم التوجهات السياسية، فوضعوا منهجاً جديداً في الدراسة التاريخية وهو تحديد أهداف مسبقة للدراسة ، محددة و مشخصة بدقة، و ذلك لتحقيق الاغراض السياسية التي تقام لأجلها الدراسة التاريخية،أي الاستخدام السياسي للدراسات التاريخية. على أن ذلك لم يسبب سوى نزاع جديد حول ما هي الأهداف السياسية الجديدة التي يجب أن تحدد للدراسة التاريخية[73] .

ومن هذه المدرسة الواقعية السياسية في ألمانيا أو مدرسة التاريخ السياسي يوهان دروسن Johann Droysen [74] (1808-1884م) الذي هاجم بكل في" كتابة تاريخ الحضارة في بريطانيا" بشكل تفصيلي، و هو لم ينتقد فقط جعل التاريخ علما بل هاجم كذلك كل المناهج المستخدمة آنذاك في دراسة التاريخ، فالتاريخ يثير أسئلة لا يستطيع -كما يقول- التأمل الفلسفي أو اللاهوتي الإجابة عليها، أو العلم التجريبي الذي يدرك عالم الظواهر من ناحية علاقاته الكمية فقط، أو المنهج الاستنباطي أو المنهج الاستقرائي، كذلك لا يمكن الإجابة على أسئلة التاريخ باستخدام اصطلاحات الطبيعة الرياضية، ويقول دروسن أن المناهج تختلف وفقا لموضوعاتها. ولذلك أصر على تأييد كثرة المناهج وتعددها في دراسة التاريخ، ولكن ركز

---

(73) كاسيرر: المعرفة التاريخية، 46، 47.

(74) دروسن: مؤرخ وأستاذ جامعي ألماني له العديد من المؤلفات منها: خلاصة التاريخ المنشور سنة 1864 (انظر كاسيرر: المعرفة التاريخية، 47 ؛انظر أيضا: كولنجوود: فكرة، 295 ، 296 - Wikipedia, Droysen

أكثر على فكرة الفهم وجعلها محوراً للمعرفة التاريخية. وفكرة الفهم هذه هي التي بدأ منها بعد ذلك دلتاي تشخيص فردية المعرفة التاريخية كما سوف نرى.[75]

منهج ثيودور مومسن :

أما ثيودر مومسن[76] Theoodr Mommsen (1817-1903م) فإنه وإن كان ينتمي إلى مدرسة التاريخ السياسي، إلا أنه أضاف إليها منهجاً مهما في دراسة التاريخ وهو أنه لا يتأتى فهم النظام السياسي و الحياة السياسية في الدولة إلا باستكمال دراسة جوانبها التشريعية والقانونية، ودراسة النقود، والمخطوطات القديمة، كما تميز منهجه لدراسة التاريخ، بضرورة التعاطف الوثيق مع الشخصية التاريخية المدروسة، حباً أو كراهية، ولابد من إطلاق مشاعر وخيال المؤرخ أيضاً، ولأجل ذلك نظر مومسن إلى التاريخ ليس كعلم بل كفنّ، لا يمكن للباحث فيه إلا أن يمتلك مواهبه الخاصة بذلك.

كما أعطى مومسن معرفة اللغات، وتحقيق النصوص والمخطوطات أولوية المنهج التاريخي، وذلك للوصول إلى ما أسماه روح التاريخ، وهو بهذا يقترب كثيراً من رانكه . ثم دعا إلى أسلوب منهجي جديد آنذاك، وهو العمل التعاوني، حيث رأى أن كاتباً واحداً بمفرده لن يستطيع الاضطلاع بأعباء البحث التاريخي، ولأجل ذلك من الضروري تنظيم العمل بين الموهوبين، على أن يأتي بعد ذلك دور المؤرخ الفذ بطابعه الفردي و عبقريته الخاصة به[77].

---

(75) كاسيرر:المعرفة التاريخية، 40-48.

(76) مومسن: مؤرخ ألماني ، حاصل على جائزة نوبل في الأدب، عمل أستاذا للتاريخ الروماني في جامعة برلين. له عدة مؤلفات منها: نظام التربيونات الرومانية في النظام الإداري (أنظر كاسيرر،المعرفة التاريخية: 124حاشية 9،18؛ Wikipeia,Theoodr Mommsen)

(77) كاسيرر: المعرفة التاريخية،49 وما بعدها.

بين التاريخ السياسي والتاريخ الحضاري :

يستطيع الباحث التاريخي اليوم أن يقف على جوانب نزاع طويل في القرن التاسع عشر نشب بين أنصار التاريخ السياسي والتوظيف السياسي للتاريخ وأنصار التاريخ العام للحضارة ومنهم مؤرخو التاريخ الاقتصادي، وكان باحثوا تاريخ الحضارة يستندون إلى حدٍ ما للأسس التي وضعها قبل ذلك فولتير Voltaire (1694-1778م)[78]، الذي أدرك ضعف الدراسات التاريخية المقتصرة على السياسة وحدها ولذلك يشير فولتير إلى أن التاريخ لا يكون فقط سجلاً من المعارك والعمليات العسكرية، أو المؤامرات السياسية ولكن عليه توضيح النشاط الفكري بأكمله، فإلى جانب الأحداث السياسية عليه أن يرسم صورة لتقدم الاتجاهات الفكرية والأدبية والفنية لكل عصر، إضافة إلى عرض للحياة الأخلاقية بكاملها في ذلك العصر[79].إذ أن التاريخ بالنسبة له هو قصة تقدم العقل البشري.

ورغم ذلك ظل تاريخ الحضارة كموضوع للدراسات التاريخية موضوع هجوم مستمر من كثير من المؤرخين العاملين في مجال الدراسات التاريخية في القرن التاسع عشر من حيث المنهج والموضوع، وان بالإمكان للصور الحضارية أن تصاحب دراسة الأحداث السياسية و لكن ليس أكثر من ذلك[80].

على أن أنصار التاريخ الحضاري لم يألوا جهداً في الدفاع عن منهجهم في دراسة التاريخ ولذلك يذكر ابرهارت جوتهاينEberhard Gothein (1853-

(78) فولتير: كاتب فرنسي اشتهر بعدائه للكنيسة والدين(أنظر:.Morley, J., Voltaire, London1923).

(79) كاسيرر: المعرفة التاريخية،55.

(80) كاسيرر: المعرفة التاريخية ، 6 . من هؤلاء على سبيل المثال ديترشي شافر D. Schaefer في كتابه: المهمة الحقيقية للتاريخ. (أنظر: كاسيرر: المعرفة التاريخية،125، 46 حاشية رقم2).

1923م)[81] تعذر فهم طبيعية الدولة وتطورها فهما كافيا بقصر النظر إليها من ناحية واحدة. ولابد من فهم العوامل الأخرى خاصة القانون والاقتصاد والدين والعلم والفن والآداب.

ويلاحظ المستعرض لهذا النزاع إلى أن المقارنة بين الاتجاهين في كتابه التاريخ لم تكن في صالح مدرسة التاريخ الحضاري سواء من ناحية المنهج أو المصادر المعتمدة للدراسات ، فكتابه التاريخ السياسي تستند إلى تاريخ طويل من العمل العلمي في هذا المجال، وأسس منهجيه واضحة. بينما كتابه التاريخ الحضاري – والتاريخ الاقتصادي– تفتقر إلى مثل هذا، وتفتقر كذلك إلى المصادر الكلاسيكية المتخصصة في هذا المجال[82].

على أية حال لم تكن أوضاع دراسات التاريخ الحضاري ذات أتساق واحد في أوروبا، ففي بريطانيا استمر فكر فولتير عن معنى تاريخ الحضارة وقيمته، وهو أن المحك الحقيقي لتقدم الحضارة هو تقدم المنهج والفكر، فالتاريخ ليس مجرد سرد، بل ينبغي أن يشرح السياق الفكري بأكمله ورسم صورة لتقدم الاتجاهات الفكرية وأن يقدم نظرة عامة للحياة الخلقية بأسرها في العصر. وفي فرنسا استخدمت جميع مناهج التحليل النفسي آنذاك لدراسة تاريخ حركة دينية هي اليانسينية Jansenism [83] وانتشارها،

---

81) ابراهارت جوتهاين: مؤرخ واقتصادي الماني، عمل استاذا في جامعة بون.(Wikibedia, Eberhard Gothein).

(82) كاسيرر: المعرفة التاريخية، 57،58.

(83) اليانسينية: نسبة إلى كورنيل يانسين Jansenism .C 1585-1638 رجل دين هولندي، أسس حركة دينية ضمن الفكر الكاثوليكي ، نشطت ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر. ارتبطت الحركة بدير بورت رويال، ثم أصدرت بابوية روما عدة إدانات لها في عهد كل من البابا انسونت السابع وكليمنت الحادي عشر، متهمة الحركة بالزندقة. (للمزيد أنظر:Doyle ,W .,Jansenism, Sydney 2000)

وفي دراسة تاريخ الفن. أما في ألمانيا اتبع كل من رييل Riehl [84] (1823-1897) وفرايتاج[85] freytag (1816-1895) منهج مختلف في كتابه التاريخ الحضاري حيث الاستغراق في التفاصيل الصغيرة ورسم مشاهد الحياة اليومية لتكون صورة تاريخية كبيرة عند تجميعها.[86]

دلتاي : الفهم و تكوين المجمل (مجمل الفترة التاريخية) :

حين كانت المدرسة الفرنسية الوضعية مثل أوجست كونت تحاول مماثلة منهج دراسة التاريخ مع مناهج العلوم الطبيعية والفيزيائية ، وكانت الفلسفة الوضعية تهيمن على الجامعات الألمانية، حتى نهاية القرن التاسع عشر، ظهر ويلهلم دلتاي Wilhelm Dilthey (1822-1911م)[87] يكتب فلسفته ومنهجه في التاريخ. حيث دعا إلى وضع حدود فاصلة بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، ولهذا رفض أطروحات الوضعيين الذين يريدون استخدام مناهج العلوم الطبيعية والفيزيائية في الدراسات الإنسانية؛ إذ أن هدف المناهج الطبيعية الوصول إلى قوانين عامة، بينما الدراسة التاريخية تهدف إلى فهم واقعة مفردة غير متكررة. ولهذا استخدم دلتاي مصطلح الفهم بدلا عن مصطلح التفسير ، حيث إن العلم يعلل بينما الدراسات

(84) رييل، وليم هنري: مؤرخ وصحفي ألماني من مؤلفاته: التأريخ الطبيعي للشعب الألماني.(أنظر:
Lehmann, H. and Melton, J. V. H., Paths of Continuity: Central European Historiography from the 1930s to the 1950s,Cambridge 2003 ,pp281 ff).

(85) فرايتاج، جوستاف: أديب وسياسي ألماني له قصص تاريخية لشخصيات شعبية(للمزيد عنه أنظر:
Warner, C. D ., A Library of the World's Best Literature - Ancient and Modern, London 2008,Vol.xv,pp6011 ff.

(86) كاسيرر: المعرفة التاريخية،58 وما بعدها.

(87) دلتاي: فيلسوف ألماني ومؤرخ عمل مع آخرين على وضع منهج جديد للعلوم الاجتماعية والإنسانية مختلف عن منهج العلوم الطبيعية (أنظر: بوبر، كارل: أسطورة الإطار، تحرير: مارك ر.بوبر، ترجمة: يمنى طريف الخولي، الكويت2993،ص 292 حاشية14ت، ويدجيري: المذاهب، 314)

الإنسانية تتفهم الحياة أو التجربة [88]. العلم الطبيعي موضوعه الطبيعة بينما التاريخ موضوعه الإنسان ولهذا لابد للمؤرخ أن يكون قادراً على أن يفهم من الداخل الأسباب والأغراض والانفعالات للأشخاص موضوع الدراسة التاريخية[89]

كما يرتكز منهج دلتاي في دراسة التاريخ على ما أسماه تكوين المجمل totalities، والجمل تعني هنا مجموع سمات عهد ما، ووصفه من جميع جوانبه. حيث لا يمكن أن نفهم المجتمع والتاريخ إلا من خلال هذا المنهج، فالوقائع التاريخية – حسب زعمه – لا يمكن أن تفهم من خلال قوانين تشبه قوانين الفيزياء، وبالتالي لا يمكن أن نستخدم مناهج الطبيعة الفيزيائية لدراسة الوقائع التاريخية.

ولهذا يشير دلتاي إلى أن الإنسان لن يصل إلى الإحاطة بمجموع الكون، كما أنه لن يصل بقانون واحد أو وحيد إلى تلخيص صيرورة الحياة التي لا تنقطع ولا إلى التنبؤ بمستقبلها . ورغم أن دلتاي كان يردد باستمرار أن المحيط الطبيعي يكيف حياة الإنسان كما أن الطبيعة هي مسرح الوجود الإنساني، وشرطه، إلا أنه يقول إنها ليست شرحاً له، ولا تملك مفاتيحه، وعلى ذلك لأجل الوصول إلى الحقيقة العلمية، لابد من الاستناد إلى اليقين المباشر والتجربة، كما لا يمكن أن نفهم التاريخ، إلا بالنظريات، ولا النظريات إلا بالتاريخ.

والعلاقة بين النظرية والتاريخ هو أن نبين العلاقة بين المعرفة المنتظمة وبين الوصف التاريخي[90].

---

(88) علي صديقي : إشكالية المنهج في الدراسات الإنسانية والأدبية .

http://www.odabasham.net..2008/12/20 Hamilton, Historicism,pp70ff

(89) عبد الرحمن بدوي : الموسوعة الفلسفية ، 161/2.

(90) آرون، ريمون: فلسفة التاريخ النقدية، بحث في النظرية الألمانية للتاريخ، ترجمة حافظ الجمالي، دمشق 1999، ص6-109، 298 ؛ ويدجيري: المذاهب، 314.

خاتمة : نظرة نقدية:

يعد النقد وسيلة مهمة لتطوير مناهجنا العلمية وأدواتنا المعرفية، ولا يقصد بالنقد هنا مجرد إظهار للعيوب، ولكن كما يقول فيلسوف المنهج العلمي في أوروبا كارل بوبر[91]: "يتوقف نمو المعرفة خصوصاً المعرفة العلمية، على التعلم من أخطائنا". ويقول أيضا[92]: "منهج العلم هو منهج المناقشة النقدية". فالنقد هو أحد أدوات المنهج العلمي للتطوير والإصلاح والتقدم العلمي.

يلاحظ على تاريخ المنهج الغربي الحديث أنه بدأ نشاطه بالانقلاب على الدين والكنيسة[93] ولهذا ظلت كثير من هذه المناهج خلال القرون التالية لهذا الانقلاب هي مجرد تراث هذا الانقلاب على الدين، واستمرار محاولات تجريد العلم من أي صفة إيمانية له. وبطبيعة الحال كانت العلاقة تضاد مع الذين يؤمنون بالدين، فكان المنهج يتراوح بين اللادينية والفكر اللاهوتي المسيحي الذي لم يبتعد عن فكرة المخلص للسيد المسيح في حركة جدلية استمرت حتى القرن العشرين بظهور نظرية أرنولد توينبي[94](ت1973م) Toynbee في التاريخ.

Kearney,R., Twentieth Century Continental Philosophy,London,1994,pp241 ff

لخص آرون المنهج التاريخي عند بعض المؤرخين الألمان كالتالي: عند زيمل توثيق الوقائع التاريخية ، وعند ريكيرت اصطفاء هذه الوقائع ، عند ماكس فيبر: الكشف عن العلاقات السببية ، وعند دلتاي تكوين الجمل.(أنظر: ص296).

(91) بوبر، كارل: أسطورة الإطار، 121.

(92)بوبر، كارل: أسطورة الإطار، 122.

(93) كانت حركة الاستنارة كما أطلق عليها ليس فقط ضد سلطان الكنيسة ولكن ضد الدين كيفما كان، واعتبر فولتير نفسه قائد حملة تستهدف القضاء على المسيحية، فقاتل تحت شعار "محق الباطل" وكان الدين بنظرهم مجرد من أي قيمة إيجابية (انظر: كولنجوود: فكرة التاريخ، 148-150) كما كانت قضايا التجسيد والثالوث المقدس والأساليب الكنسية من العوامل التي أدت إلى إبعاد المفكرين عن الدين (انظر: لانج، جيري: حتى الملائكة تسأل، عن قصة الإسلام في أمريكا، تعريب: زين نجاتي، القاهرة 2002 ص 14،13)

(94) ارنولد توينبي: مؤرخ انجليزي ولد عام1889 له العديد من المؤلفات منها تاريخ الحضارة الهلينية ومحاكمة الحضارة وغيرها ، لكن أهمها كتابه : دراسة للتاريخ.(رأفت الشيخ: تفسير مسار التاريخ،193 وما بعدها).

وتعددت المناهج تعدداً بيناً، كما رأينا، وكانت التأثرات متبادلة بين المنهج والفكر التاريخي نفسه، فأحيانا يؤثر المنهج بطبيعة الحال على نتائج الفكر الفلسفي، وأحيانا الفكر الفلسفي المسبق – القبلي – هو الذي يحدد المنهج والأسلوب.

كانت جهود العلماء كبيرة في الوصول إلى منهج معرفي يحقق أعلى درجات الدقة ومعرفة الحقيقة، والاستفادة من التاريخ. إلا أن المنهج الذاتي يكاد يفقد علميته وأمانته بتدخل الباحث وشخصيته دون قيد، مما يجعله عرضه للأهواء. أما ما يسمى بالمنهج الموضوعي، فهو يكاد لا يصل بالباحث إلى نتيجة، سوى وصف ما كان كما كان، وهو مالا يتحقق إلا نسبيا. وبالتالي لا يحقق محاور العلم الأربعة، الوصف التفسير التنبؤ والسيطرة. كما أنه يجعل من المؤرخ مجرد عامل أرشيف –إذا نجح في وصف ما كان كما كان – أو مجرد موثق فيفقد علم التاريخ بهذا صفته الايجابية، والقدرة على الاستفادة منه لفهم الحاضر ومعرفة توجهات المستقبل.

وكانت نظرية النسبية لإينشتاين أثبتت أن الذات العارفة هي طرف في معادلة فهم الطبيعة إذ أن موقع الشخص وسرعته معينات أساسية في المعادلة الرياضية في تفسير عمليات الكون[(95)] . وبهذا يسقط وهم الموضوعية سقوطاً لا رجعة عنه. فمكان وزمان الباحث التاريخي – كما ثبت علميا – إضافة إلى خلفياته الفكرية والنفسية يحددان اتجاهات كتاباته. وهو الشيء –على سبيل المثال– الذي تنبه له ادوارد سعيد[96] (ت2003م) في دراسته للاستشراق و محاولات الباحث الغربي دراسة الشرق.[(97)]

وأيضا مما يمكن أن يؤخذ على هذا المنهج هو تركيزه على الوسيلة وإغفال الغاية أو النتيجة النهائية، أي التركيز على دراسة الجزئيات دون الخروج إلى مفهوم كلي، أو

(95) أنظر : يمنى طريف الخولي : فلسفة العلم ،203،204 ؛ أنظر أيضا: بوبر، كارل : أسطورة الإطار، 288 حاشية 33م.

[96] ادوارد سعيد: اكاديمي ومفكر امريكي من اصل فلسطيني، ولد في القدس عام 1935م، له العديد من المؤلفات من اهمها كتاب الاستشراق.(ادوارد سعيد،ويكيبيديا).

(97) أنظر : إدوارد سعيد: الاستشراق ، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، القاهرة 2008،ص57.

صياغات كلية تساعد على فهم وتفسير السياق العام للتاريخ الإنساني. فهو كما اسماه كولنجوود:"التاريخ الذي يقوم على طريقة جمع المقتطفات[98] ".

أما أسطورة المنهج الاستقرائي أو منهج الملاحظة الذي لا يسترشد بمقولة استنباطية أو لا يسبقه فرض معين، فقد أسقطها ثلاثة من كبار علماء الغرب أنفسهم، كارل بوبر واينشتاين وتشارلز دارون، في دراسة تفصيلية لكارل بوبر لا حاجة لنا لاستعراضها هنا سوى القول: أن الاستقراء دون أي فكرة مسبقة هو مجرد وهم.[99]

وفي كل الأحوال، مثلت جهود علماء الغرب في القرن 19 حلقة هامة من حلقات تطور المناهج العلمية لدراسة التاريخ وما وصلت إليه في القرن العشرين.

---

(98) كولنجوود : فكرة التاريخ ،405 ؛ أنظر أيضا : عبد المالك التميمي : الموضوعية والذاتية في الكتابة التاريخية المعاصرة ، 39 وما بعدها .

(99) بوبر ،كارل:أسطورة الإطار، 124.

مدخل إلى
المناهج الغربية لتفسير التاريخ
في القرن العشرين

مقدمة

في العلاقات بين الشرق والغرب يقف العرب والمسلمون من الحضارة الغربية أمام ثلاث خيارات، أولها الأخذ الكلي لتجربتها ولكل ما نتج عنها وهي حالة التقليد الأعمى غير الفاعل. والخيار الثاني الرفض الكامل والمطلق للأخذ منها، وهو ما تطالب به بعض الجماعات المتشددة، الشيء الذي يحرم العرب والمسلمين من مكاسب الحضارة المعاصرة والاستفادة من تجربتها، والخيار الآخر هو أخذ ما يناسب ثقافة الشرق وبيئته وأوضاعه مما يحقق النهضة المطلوبة، وترك ما لا يناسبه فكرياً أو سلوكياً أو ايمانياً. أهم وجه لهذا هو المجال العلمي، وبالأخص مجال المناهج العلمية. وللأسف اخذ بعض الباحثين العرب– ربما نتيجة قناعات فكرية معينة – في تطبيق بعض المناهج الغربية على الدراسات التاريخية للإسلام تطبيقا شبه أعمى، وإسقاط مناهجي لا يطابق التاريخ الحقيقي للإسلام والمسلمين، كما سوف يتضح في بعض تفاصيل هذه الدراسة .

على انه لابد من الاعتراف أن رحلة الغربيين في قضية التطور العلمي كانت سعيا حثيثا جادا للوصول إلى المعرفة والوصول إلى الحقيقة. ولكننا نراها محاولات أصابوا في بعضها واخطئوا في بعضها الآخر وذلك نتيجة فلسفتهم الخاصة في فهم الوجود، وعلينا أن نكمل ما نراه ناقصا أو ما لا يتلاءم مع فلسفتنا نحو العلم والحقيقة وفهمنا للوجود والغاية منه.

يضم مجال الدراسات التاريخية ثلاثة محاور أساسية: المحور الأول منهج البحث، والمحور الثاني مناهج التفسير، والمحور الثالث النظريات المفسرة للتاريخ، أي فلسفة التاريخ. ويكاد يتفق العلماء على أساسيات منهج البحث، على أن الاختلاف الكبير

كان –ولا يزال– في مناهج التفسير ونظريات التفسير نفسها. ولذلك سيحاول هذا البحث إلقاء الضوء على مناهج التفسير الغربية في القرن العشرين.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى معرفة وفهم المناهج الغربية لتفسير التاريخ في القرن العشرين. وهو قرن حقق قفزات علمية ضخمة على كافة المستويات[100]، كما صدم فيه العقل الأوروبي بحربين عالميتين تسببتا بإعادة تقييم نظرتهم إلى التاريخ ودراسة التاريخ، خاصة في استقراء مستقبل الحضارة الغربية، مما قدم تنوعا كبيرا في تفسير التاريخ ومناهجه، مستفيدا كثيرا من التقدم العلمي في كافة التخصصات.

تمهيد:

الغاية الظاهرة لجميع الباحثين الأوروبيين هو الوصول إلى الحقيقة التاريخية، ولكن كيف يمكن أن نصل إلى الحقيقة التاريخية؟ ثم كيف نفسر ما حدث بالضبط ؟ يبدو أن هذا السؤال سيستمر ما استمر عقل الإنسان في التفكر والبحث، واستمر نهمه المتعطش للمعرفة. والحقيقة التاريخية أن النهضة الأوروبية لم تكن في التكنولوجيا حصرا أو نهضة تقنية فقط، ولكن حدث ما يمكن أن نسميه ثورة في العلوم الإنسانية أيضا، شملت تنوعا واختلافا أثرى دون ريب الحياة الفكرية والثقافية الأوروبية. كيف كان هذا التنوع؟ وكيف كان هذا الاختلاف في مجال المعرفة التاريخية ؟ هذا ما سنحاول معرفته في هذا البحث المتواضع. وإذا كان سيطر على القرن التاسع عشر إلى حد ما قضية

---

(100) أشهر هذه التطورات العلمية ظهور نظرية النسبية لاينشتاين في تفسير العالم الكبير ونظرية ميكانيا الكوانتم في تفسير عالم الذرة، في بدايات القرن العشرين. والنظريتان قدمتا تفسيرين مختلفين للوجود بين الحتمية وألا حتمية أو ألالا يقين(انظر على سبيل المثال: بدوي عبد الفتاح محمد: فلسفة العلوم، القاهرة2000م،ص217 وما بعدها).

الصراع بين الفكر المادي وخاصة الماركسي وبين الفكر المثالي وخاصة الهيجلي، فإننا سوف نرى في القرن العشرين توجه الفكر التاريخي أكثر نحو الجوانب العملية والنفعية للاستفادة من الدراسات التاريخية. كما سوف نرى.

ماكس فيبر: منهج دراسة العلاقات السببية :

من المناهج التي تسترعي الانتباه في أواخر القرن19 والربع الأول من القرن ال20 المنهج الذي اتبعه ماكس فيبر [(101)] Max Wiber (1864-1920) وهو رغم شهرته كعالم اجتماع إلا أنه كان مؤرخا اقتصاديا من الطراز الأول[(102)]. قدم من خلال كتابه الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية نظرية تأثير المعتقدات الدينية على السلوك الاقتصادي؛ إذ يرى أن التصوف البروتستانتي وقيمه من أخلاق التقشف وحب العمل، والادخار، وأداء الواجب بصورة سليمة ساعد على ظهور الرأسمالية كنمط للحياة والإنتاج[(103)] . درس ماكس فيبر اقتصاد الحضارة الصينية والحضارة الهندية الهندوسية. وكان المنهج الذي استخدمه، هو المنهج المقارن مع اختيار أو اصطفاء وقائع تاريخية ثم الكشف عن العلاقات السببية بينها [(104)]. ويبدو أنه من

---

(101) ماكس فيبر : عالم اجتماع وسياسي واقتصادي ألماني، من أشهر كتبه : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية.(للمزيد عنه أنظر Wiber, Marianne., Max Weber, Translated by Harry Zohn, New Yourk 2009)

(102) Wikipedia , Max wiber

(103) روبيرتس، تيمونز وهايت ، ايمي: من الحداثة إلى العولمة، ترجمة: سمر الشيشكلي، الكويت2004،ص105-114. وتوجد رؤية أخرى لدى مفكرين أوروبيين آخرين ترى أن اليهود هم القوة المحركة للرأسمالية .(أنظر: جورج قرم : تاريخ أوروبا وبناء الأسطورة، ترجمة: رلى ذبيان ، بيروت 2011،ص301). بينما يرى المؤرخ ارنولد توينبي ان الرهبان السسترسيون هم من زرعوا بذور النظام الرأسمالي في الإنتاج.(انظر: توينبي، ارنولد: تاريخ البشرية، نقله إلى العربية نقولا زيادة، بيروت1988م، ص153).

(104) آرون، ريمون: فلسفة التاريخ النقدية، بحث في النظرية الألمانية للتاريخ، ترجمة حافظ الجمالي، دمشق 1999، ص228-230.

خلال هذا المنهج جمع بين الذاتية والموضوعية، فاختيار الوقائع لاشك أنها تتحكم بها ذاتية الباحث أما الكشف أو دراسة العلاقات السببية بينها فهي ذات خاصية موضوعية. على أن فيبر كان يرفض مفهوم قوانين التاريخ ليؤكد مفهوم الأسباب الفاعلة للتاريخ، أي أن هدف الدراسة هو فهم الأسباب وشرحها وليس كشف القوانين(105). ولأجل ذلك أهتم في تطوير منهج البحث، إذ أن علم الاجتماع – حسب رأيه- على خلاف العلوم الطبيعية، لا يحد بصياغة قوانين السلوك ، ولكن أيضا عليه أن يحدد ما يسنده الناس إلى تصرفاتهم من معان وقيم(106). وبسبب قناعاته هذه وقف مضاداً للثقافة السياسية الأميركية، وديمقراطيتها المتعصبة، ونفعيتها المتواصلة.

نظرية ماكس فيبر ان التدين البروتستانتي هو الذي سبب ظهور الرأسمالية تصدم وتدحض نظرية القائلون ان اوروبا لم تتطور إلا بالعلمانية. والحقيقة ان كارل ماركس ايضا ربط بين الراسمالية والدين ، معتبرا ان الدين هو سبب خضوع العمال وقبولهم لهيمنة اثرياء الرأسمالية ، ولهذا قال: أن الدين افيون الشعوب. وكارل ماركس بهذا كان مؤرخا معاصرا شاهد نهضة اوروبا الصناعية وحال طبقات العمال فيها، مما يؤكد نظرية ماكس فيبر. كذلك ذهب شاتوبريان **Chateaubriand**[107] (ت 1848م) بمؤلفه عبقرية المسيحية Génie du christianisme ان العالم وليس فقط اوروبا مدين للمسيحية بتعلم الحضارة الحديثة من العلوم الى الفنون[108].

(105) كوليو، كاترين: ماكس فيبر والتاريخ، ترجمة : جورج كتورة ، بيروت1994، ص26،25 .

(106) عبد الوهاب الكيالي وكامل زهيري : الموسوعة السياسية، بيروت 1974م،ص417.

107) سياسي وأديب فرنسي ، ولد عام 1768م، عين وزيرا للخارجية. ثم اعتزل السياسة. (**Chateaubriand**، wekebedia).

108) جورج قرم: تاريخ اوروبا وبناء أسطورة الغرب، بيروت 2011،ص113.

كانتور:

أما منهج مؤرخ العصور الوسطى نورمان كانتور[109] Norman Frank Cantor (2004- 1929)، فقد أضاف إلى منهج رانكه[110] من وصف ما كان كما كان إلى وصف كيف حدث ما حدث، أو الطريقة التي حدثت بها الواقعة التاريخية. لكن لا يمكن أن نفهم التاريخ إلا من خلال فهم وإدراك درجة وعي الناس بالحوادث العظام التي حسمت مصيرهم، وبالتالي يجب أن نرى وان نحس، ليس فقط بالطبيعة الخارجية للحوادث، بل بمكنونها وطبيعتها الداخلية أيضا. وهذا يعني تأثيرها على فكر من عاصرها، ولا يكفي أن نحدد مراحل الغزوات الجرمانية وأحداث عصر شارلمان، أو أعمال الصليبيين على سبيل المثال، وإنما يجب أن نفهم كيف أثرت هذه الأحداث في وجدان الناس الذين عاشوا أثناءها. وأضاف كانتور إلى ذلك الدعوة إلى بحث العلاقة بين الأفكار وسياقها الاجتماعي الذي ظهرت به هذه الأفكار[111]. ويؤخذ على كانتور اعتباره أن الدراسة العلمية للتاريخ لم تبدأ إلا مع الغرب، ولازالت لا توجد لدى الشعوب الأخرى إلا في أضيق الحدود. وهذا تعصب لا يخفى للحضارة الغربية المعاصرة[112].

---

(109) كانتور: مؤرخ كندي أمريكي، أستاذ جامعي درس في جامعة برستون وجامعة كولومبيا ، من أشهر مؤلفاته حضارة العصر الوسيط. (Wikipedia, Norman Cantor)

(110) رانكه: مؤرخ ألماني من القرن التاسع عشر. يعده البعض مؤسس المنهج العلمي للتاريخ . ألف عدة كتب منها تاريخ الأمم اللاتينية والتوتونية. وفي هذه المؤلفات استخدم مصادر كانت تعد جديدة آنذاك مثل: المذكرات والمفكرات والرسائل والاستعانة بشهود عيان.(Krieger L., Ranke : The Meaning of History, Chicago) 1977

(111) كانتور، نورمان: التاريخ الوسيط،قصة حضارة : البداية والنهاية، ترجمة : قاسم عبده قاسم،القاهرة 1986، ج1ص13-19.

(112) كانتور: التاريخ الوسيط،16.

شبنجلر: منهج المماثلة التاريخية :

أسقطت آثار الحرب العالمية بضلالها على كثير من المفكرين الغربيين منهم اسوالد شبنجلر Spengler[113] (1880-1936) المؤرخ الألماني العملاق صاحب كتاب تدهور الحضارة الغربية، الذي تنبأ فيه بسقوط الحضارة الغربية المعاصرة. كان منهجه منهج التماثل المستخدم في علم الإحياء الطبيعي، حيث طوره إلى منهج دراسة المتماثلات التاريخية، على أساس أن العصور والمراحل والأوضاع والأشخاص تكرر ذاتها كنماذج حقيقية[114] . فالظواهر والصور الدينية والفنية والعلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية متماثلة بين جميع الحضارات في نشأتها وتطورها وفنائها، وكذلك التركيب الباطن لأية حضارة هو عينه التركيب الباطن لكل الحضارات، بل لا توجد ظاهرة واحدة ذات قيمة عميقة في التشكل التاريخي لحضارة ما دون أن توجد ما يناظرها تماما في غيرها من الحضارات . وهذا يعني أنه بإمكان الباحث أن يتنبأ تنبؤاً دقيقاً يقينياً بما ستكون عليه حال الأدوار التي ستمر بها الحضارة الغربية كما يعرف بالضبط الكيميائي والفيزيائي آليات عملياته التي يجريها[115]. ولكن هذا المنهج (المماثلة) لا يعني المشابهة السطحية للأحداث التاريخية. ونتيجة لهذا المنهج التفسيري للتاريخ نظر اشبنجلر إلى الحضارات والدول بموجب المماثلة البيولوجية للكائنات الحية، من نمو وشباب ونضوج ثم انحلال وموت[116] . كما اعتبر أن الحضارة وليست الدولة-كما ذهب هيجل-

---

(113) اسوالد شبنغلر: مؤرخ وكمفكر ألماني ، عاش حياة في غاية من العزلة فترة طويلة من حياته، أشهر كتبة تهور الحضارة الغربية، والذي سبب ضجة كبير في أوروبا آنذاك.(عبد الرحمن بدوي : اشبنجلر، بيروت 1982 ، ص3 وما بعدها).

(114) أنظر: أشبنغلر، اسوالد: تدهور الحضارة الغربية، ترجمة أحمد الشيباني، بيروت ب د، ج1ص41، 78.

(115) عبد الرحمن بدوي : اشبنجلر، بيروت 1982 ، 109-114.

(116) شبنغلر: تدهور الحضارة ، 76-78.

هي وحدة الدراسة التاريخية أو الظاهرة الأولية للتاريخ ، حيث لكل حضارة شخصيتها الخاصة بها المميزة لها[117].

والحقيقة أن هذا المنهج ليس مبتدعا من قبل شبنغلر ، إذ سبقه إلى ذلك ابن خلدون (ت808هـ)[118] ، الذي يقول [119]:" لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات". ولاشك أن هذا المنهج من المماثلة والمقارنة هو الذي ساعد ابن خلدون على تقديم تحليله ورؤيته الرائعة عن حركة التاريخ والمجتمع. على أن شبنغلر وضع أسس هذا المنهج وقدم رؤية متكاملة حوله ، وربطه ربطاً وثيقاً بعلوم الأحياء الطبيعية.

والجدير بالذكر أن هردر[120] Herder كان أنكر وجود تشابه أو مماثلة بين أمتين في التاريخ، فهذا افتراض لوحدة الطبيعة البشرية في كل زمان ومكان ، مع أن التغيير الدائم هو جوهر مسار التاريخ حسب رأي هردر.[121]

(117) رأفت الشيخ: تفسير مسار التاريخ، القاهرة 2000، ص189 .

(118) ابن خلدون عبدالرحمن بن محمد ابوزيد (732-808هـ): الفقيه والأصولي والمؤرخ ولد بتونس من أسرة حضرمية اشتهر بالعلم فشغل وظائف حكومية وعلمية في تونس ومصر ، وزار العديد من البلدان والحكام، اعترف بفضله العلماء الغربيون المحدثون.من أشهر مؤلفاته كتاب ديوان العبر وكتاب المبتدأ والخبر، والمقدمة (ابن العماد، عبدالحي الدمشقي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت ب د، ج7ص75؛ الزركلي: الأعلام،330/3).

(119) المقدمة: بيروت 1981م ، ص9 .

(120)هردر (1744-1803): فيلسوف ورجل دين وشاعر ألماني. امتاز شعره بالسهولة والنزعة الوجدانية , أشهر مؤلفاته كتابه الفلسفي خواطر في فلسفة تاريخ الإنساني وفيه حاول أن يفسر النمو الإنساني عن طريق البحث في ماهية اتصال الإنسان بالبيئة الطبيعية.. (للمزيد انظر: Herder, J. G., Another Philosophy of History and Selected Political Writings, Translated Evrigenis, I. D. and Pelerine, D, Indianapolis 2004,pp ix ff).

(121) أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ ،الإسكندرية ب د ، 28 .

مناهج التفسير النفسي للتاريخ :

ولم يلبث أن برز بعد ذلك التفسير النفسي للتاريخ Psychohistory وهو دراسة الدوافع النفسية للأحداث التاريخية، عبارة عن دمج مناهج التحليل النفسي بمناهج العلوم الاجتماعية لفهم الأصول النفسية للسلوك الاجتماعي والسياسي للمجموعات والأمم والأفراد. وهناك ثلاثة محاور لهذا المنهج، الأول: دراسة الطفولة لدى الزعماء. والثاني: الدراسة النفسية للشخصيات التاريخية. والثالث: دراسة علم نفس المجتمعات التاريخية، أو علم نفس الجماعات[122]. ثم تطور إلى تخصصات أكثر دقة، مثل دراسة الأسس النفسية للتفسير الاقتصادي للتاريخ.[123]

رافي باترا : المنهج الاستنباطي الإحصائي المقارن :

ومن المناهج العلمية في دراسة التاريخ الاقتصادي والتجاري في أواخر القرن العشرين ، المنهج العلمي الذي اتبعه الاقتصادي الأمريكي رافي باترا[124] Ravi

---

(122) أنظر : DeMause, L., Foundations of Psychohistory, Creative Roots Pub, New Yourk,1982.

- DeMause,L.,The Emotional Life of Nations, New Yourk ,2002.pp.87 ff.
- Wikipedia, Psychohistory.

(123) أنظر على سبيل المثال:

Ogburn, W. F., The Psychological Basis for the Economic Interpretation of History, in The American Economic Review, Vol. 9, No. 1, Supplement, Papers and Proceedings of the Thirty-First Annual Meeting of the American Economic Association (Mar., 1919), pp. 291-305.

يلاحظ ان البحث استند إلى منهج التحليل النفسي لفرويد.

(124) رافي باترا: أستاذ العلوم الاقتصادية في جامعة سوتري ميتوديست بالولايات المتحدة الأمريكية، ورئيس دائرة الاقتصاد. حصل على كرسي أستاذ وعمره ثلاثون عاما، وحل في المرتبة الثالثة من بين 46 باحثا من علماء الاقتصاد في الجامعات الأمريكية والكندية، ويعد واحدا من كبار منظري التجارة في العالم، له العديد من المؤلفات أهمها:

Batra وهو المنهج الاستنباطي(125) ولكن باستخدام المنهج الإحصائي المقارن لإثبات فرضياته العامة، وما يهمنا ليس فقط المنهج العلمي الذي اتبعه، بل أيضاً النتائج الخطيرة التي توصل إليها في تفسير التاريخ الاقتصادي والتجاري للولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص والتاريخ الاقتصادي والتجاري للعالم بشكل عام.

استخدم رافي باترا المنهج الإحصائي المقارن لإثبات نظرية ساركار(126) الهندي في تفسير حركة التاريخ التي ارجع بها معظم الظواهر الاجتماعية إلى الطبيعة البشرية وطبيعة العقل البشري، حيث المجتمع يتطور مع الزمن في إطار أربعة عصور واضحة المعالم، فتارة يهيمن على المسرح الاجتماعي والسياسي عصر المحاربين وهم الفئة الاجتماعية التي تواجه مشاكلها بالعضلات وهم يمثلون في المجتمع العسكر والرياضيين، وتارة أخرى يهيمن عصر المفكرين وهم الفئة الاجتماعية التي تتمتع بقدرات عقلية وفكرية عالية، ومنهم كما أسماهم رجال الدين والكتاب وأساتذة الجامعات، ثم يسود عصر المتكسبين وهم الفئة الاجتماعية التي يغلب عليها غريزة جمع المال والتجارة ثم هناك فئة اجتماعية رابعة هم العمال غير المهرة، وهي الفئة التي لا تتمتع بالقدرات العقلية للمفكرين ولا القدرات الجسدية للمحاربين ولا غريزة التملك والمغامرة للمتكسبين.(127)

الكساد الكبير في التسعينات (أنظر: محمد حسين الصافي: انهيار الرأسمالية ، الفوضى القادمة، القاهرة 2004، ص59،58).

(125) المنهج الاستنباطي أو الاستدلالي : وفيه يربط العقل بين المقدمات والنتائج ، أو بين الأشياء وعللها ، على أساس المنطق العقلي ، والتأمل الذهني ، فهو يبدأ بالكليات أو الصيغة الكلية ليصل منها إلى الجزئيات، أو يحاول إثباتها من خلال دراسة الجزئيات (أنظر: محمد زيان عمر:البحث العلمي، ب د ،49،48).

(126) ساركار، براهات رانجان ساركار: زعيم معاصر لطائفة هندية تدعى اناندا.

(أنظر: Wikipedia , Prabhat Ranjan Sarkar)

(127) باترا، رافي: الكساد الكبير في التسعينات، ترجمة:موسى الزعبي، بيروت 1993،ص 8 وما بعدها.

تقول نظرية ساركار أن المجتمع ينتقل من طور إلى طور حسب نموذج واحد محدد في العالم كله، وإن اختلف من منطقة إلى أخرى، حيث يأتي عصر المحاربين في أعقاب عصر العمال، ثم عصر المفكرين، ثم عصر المتكسبين ، ثم ثورة اجتماعية. هذا التطور الاجتماعي هو قانون الطبيعة الذي لا يخطئ.

وهو نظام دوري يشمل كل عصر أيضاً بدورات علو وانخفاض ضمن عصر كل فئة اجتماعية، ومن خلال تحليل رافي باترا فإن الحضارة المعاصرة اليوم هي عصر المتكسبين والمدهش في نتائج دراسة رافي باترا اكتشافه الدورة المنتظمة لحجم الكتلة النقدية في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية وفي الوقت الذي يتفق فيه جميع الاقتصاديون على أن حجم الكتلة النقدية عرضة لعدد كبير من المؤثرات التي تبدو غير متصلة ببعضها، لكن كيف استطاعت كل هذه القوى والمؤثرات أن تلتقي لتسير في مسار محدد منذ أكثر من قرنين؟ ولا تفسير كما يذكر لهذا سوى أن قانوناً طبيعياً يتحكم في حركة الكتلة النقدية، ليس ذلك فحسب بل كشفت الدراسة الإحصائية التاريخية الدورة المنتظمة للتضخم [128]حيث تبين أنه خلال مائتي وثلاثين سنة الماضية بلغت نسبة التضخم المالي العقدية قمتها في كل ثالث عقد ثم تتراجع عادة خلال العقدين التاليين، باستثناء فترة ما بعد الحرب الأهلية.[129]

وبالمقارنة بين الرسم البياني لنمو الكتلة النقدية والرسم البياني لنسبة التضخم وجد أن نمو الكتلة النقدية هو العامل الأول في تحديد نسبة التضخم، فكل عقد تبلغ فيه الكتلة النقدية قمته تبلغ خلاله نسبة التضخم ذروتها، ليس ذلك فقط بل أيضاً كشفت هذه الدراسة من خلال هذا المنهج أن درجة التنظيمات والإشراف الحكومي

(128) يعرف التضخم أنه ارتفاع أسعار السلع مع ازدياد كمية النقود وضعف قيمتها (انظر عبد الوهاب الكيالي وآخرون: الموسوعة السياسية، بيروت 1974، ص157).

(129) باترا: الكساد الكبير في التسعينات، 59 وما بعدها.

تبلغ ذروتها مرة كل ثالث عقد فهي تتحرك بشكل مترابط مع دورات الكتلة النقدية والتضخم. وهو ما يؤكد الاعتقاد أن تاريخ اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية يكاد يسير ضمن دورات منتظمة، بل تاريخ الاقتصاد العالمي ككل حسب نظرية ساركار، هكذا كان رافي باترا استخدم المنهج الإحصائي المقارن لإثبات فرضية استنباطية هي نظرية ساركار[130]. وتمكن من تقديم قراءة مستقبلية بموجب دراسته للتاريخ. وهذا إجابة لتساؤل البعض عن الأهمية العملية من دراسة التاريخ.

(130)باترا: الكساد الكبير في التسعينات، 62 وما بعدها.

حاول رافي باترا تقديم حلول للاقتصاد الأمريكي حتى يتجنب الأزمة التي توقعها عام 1990. لكن الاقتصاد الأمريكي لم يسقط في أزمة في التسعينات بفضل سقوط الاتحاد السوفيتي وتحول الصين إلى اقتصاد السوق الرأسمالي، إضافة إلى حرب الخليج الثانية عام 1990 التي دعمت الاقتصاد الأمريكي(أنظر: محمد حسين الصافي: انهيار الرأسمالية، 81 وما بعدها).

المنهج الكمي ومنهج الإحصاء التاريخي والنظم الرياضية :

يعد المنهج الذي اتبعه رافي باترا من المنهج الاستنباطي إلا أنه استخدم مايسمى منهج التاريخ الكمي Quantitative history. وهو منهج يقوم على أساس تصنيف المعلومات التاريخية وتنسيقها وتحليلها، اعتماداً على قاعدة المعلومات والقياس والأساليب الإحصائية. ويشمل التحليل الأولي والتحليل المتقدم، وتحليل الفترات الزمنية، ثم العلاقة بين المتغيرات في مجال الدراسة(131).

بدأت دراسات التاريخ الكمي لدراسة بيانات الناخب الأمريكي وتوجهاته. ثم استمرت لدراسة التحولات الاجتماعية في المجتمع الأمريكي. وساعد على تطور واستمرار هذا المنهج ظهور الحاسبات الالكترونية واستعمال برامج إحصائية مثل برنامج: ASA وSPSS . (132)

ولا يزال بعض الأكاديميين التاريخيين في الغرب يرفضون هذا المنهج، على أساس أن علم التاريخ هو علم الكيف وليس علم الكم(133). بينما المدافعون عنه يقولون إن هذه النماذج الرياضية لها قدرات توضيحية سواء للنظريات الفلسفية المختلفة أو للبيانات التاريخية(134): (أنظر الرسوم البيانية)

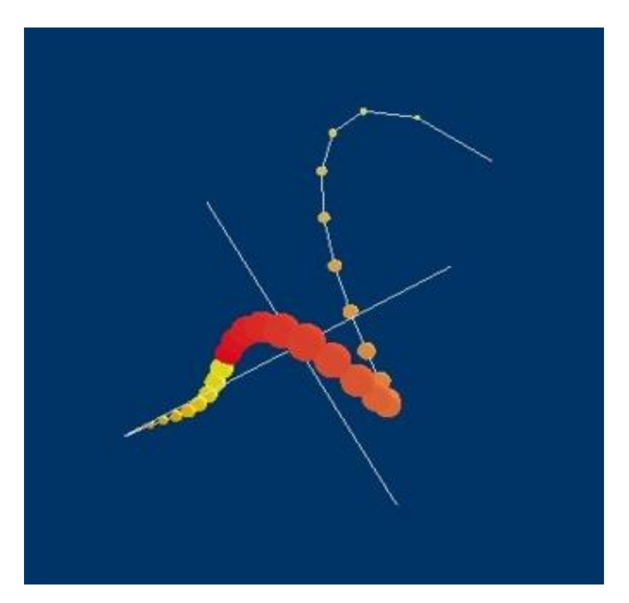
---

(131) إبراهيم بن عبدالعزيز الجميح: التاريخ الكمي، http://www.kau.edu.sa 2006/5/10.

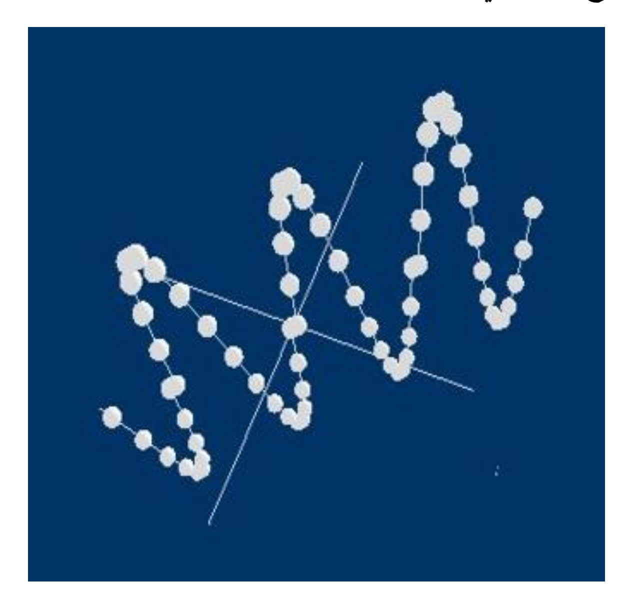
(132) Jarausch, K. H., Quantitative Methods for Historians: A Guide to Research, Data, and Statistics, New York 1991, pp2-3ff
- Hudson,P., History by Numbers: An Introduction to Quantitative Approaches, London2000, pp3-4ff
- Wikipedia, Quantitative history.

(133) عبد الرحمن بدوي : موسوعة الفلسفة ، بيروت 1984م ،ج2ص486 ،487.
-Wikipedia, Quantitative history

(134) Wikipedia, Quantitative history



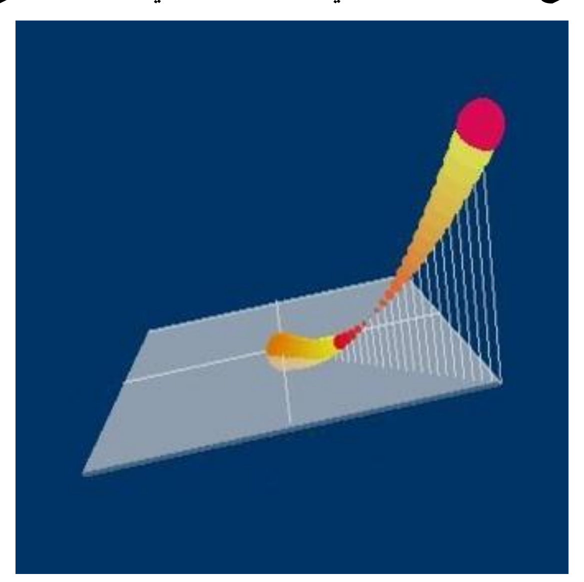
النموذج الحلزوني أو التصاعدي ويمثل فكر هيجل وكارل ماركس



النموذج الدوري للتغير التاريخي ويمثل فكر توينبي وشبنغلر.



النموذج الفوضوي (لاحتمي) للتغير التاريخي (لحركة التاريخ).



النموذج الخطي للتغير التاريخي (لحركة التاريخ) ويمثل فكر سان أوغستين وإمانويل كانت.

وقد ظهرت استخدامات للتاريخ الكمي في بعض دراسات التاريخ الإسلامي مثل: الحياة الاجتماعية في مكة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر العباسي، لإلهام أحمد البابطين. ودراسة لشارل بيلا بعنوان: معدل المواليد زمن النبي صلى الله عليه وسلم. كما قدم الدكتور عبد الله إبراهيم عسكر دراسة باللغة العربية عن التاريخ الكمي وأساليبه(135).

وبجوار منهج التاريخ الكمي ، نشأ أيضا منهج الإحصاء التاريخي، أو ما يطلق عليه اصطلاحاً ، كليومتركس Cliometrics والذي يستخدم مناهج علم الاقتصاد الإحصائية والقياسية لدراسة التاريخ الاقتصادي. أول من أطلق هذا التعبير كان جوناثان هيور وستانلي ريتر عام 1960. ثم حصل كل من روبرت فوجل Fogel (ت2013)(136) ودوجلاس نورث North (ولد1920) عام 1993 على جائزة نوبل لتأسيس هذا المنهج العلمي لدراسة التاريخ الاقتصادي. كما أصدر مجموعة المؤرخون هؤلاء مجلة علمية باسم Cliometrica ، تشجع النقاش حول المناهج واستعمالها في هذا المجال . مثل بناء النماذج الاقتصادية (الموديل) واستعمال النظريات الإحصائية والاقتصاد القياسي للجمع بين المعلومات التاريخية والنماذج الإحصائية . ثم لم يلبث أن تأسس فرع جديد أكاديمي لهذا المنهج سمي: Cliodynamics يستعمل فيه أدوات علوم الطبيعة (فيزياء- علم الإحياء-علم الإحصاء) لدراسة التاريخ بشكل عام وليس فقط التاريخ الاقتصادي(137).

(135) إبراهيم بن عبدالعزيز الجميح: التاريخ الكمي. http://www.kau.edu.sa/IALJOMAIH/host.asp

(136) فوجل، روبرت: مؤرخ وعالم اقتصاد أمريكي، عمل أستاذا بجامعة شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية، حصل على جائزة نوبل في العلوم الاقتصادية. (Wikipedia, Fogel)

(137) Wikipedia, Cliometrics. -Britannica, Fogel.

ولعل أشهر دراسة تمت بموجب منهج الإحصاء التاريخي دراسة اقتصاد العبودية في الولايات المتحدة الأمريكية. ثم توسع العلماء في استخدام الطرق الرياضية في دراسة التاريخ ، ولعل ذلك بسبب التغيرات الكبيرة في حقل إنتاج وسرعة معالجة المعلومات.

ويدعي أنصار هذه المناهج أن تطبيق الطرق الرياضية لا يسهل فقط معالجة المعلومات التاريخية، لكن أيضا يمكن أن يعطي للمؤرخ فهما أعمق لحركة التاريخ.

ومن أشهر من استخدم الطرق الرياضية لدراسة التاريخ توماس مالثوس Malthus [138] (ت1838م) الذي قدم نظرية أن نمو السكان يتم بمعدل أسي، بينما النمو الزراعي يتم بمعدل حسابي، مما سيؤدي في النهاية إلى حدوث مجاعة عارمة نتيجة التزايد المستمر لعدد السكان كما يدعي[139]. كذلك كان فرناند براوديل[140] Fernand Braudel (1902-1985م) من المؤرخين الداعين إلى استخدام هذا

(138) مالثوس، روبرت: رجل دين وباحث اقتصادي انجليزي، تأثر بماكينز وبدارون، اشتهر بنظرية النمو السكاني وارتباطه بالزراعة.(Wikipedia, Malthus) .

(139) أنظر : : Turchin. P.,(ed)., History and Mathematics: Historical Dynamics and Development of Complex Societies, Moscow,2007, pp12ff

- .Wikipedia, Malthus وعن نقد هذه النظرية أنظر :أنور الجندي: أخطاء الفلسفة المادية،ب د،ص19.

كما أن هناك نقد لهذه النظريات على اعتبار أن المجاعات المعاصرة والمحتملة ليست بسبب تزايد السكان ولكن بسبب النظام الرأسمالي المحتكر بواسطة الشركات الكبرى وكبار الملاك .(للمزيد ينظر:فرانسيس مولاربيه، وجوزيف كولينز:صناعة الجوع ، خرافة الندرة ، ترجمة احمد إحسان ، الكويت1983،ص17 وما بعدها؛ روجيه غارودي: العولمة المزعومة ، تعريب: محمد السبيطلي، صنعاء1998 ،ص11 وما بعدها). ويذكر جارودي ان مالثوس كانت تنفق عليه شركة الهند الغربية حتى يبرر عبر نظريته جرائمهم ضد السكان المحليين. (ينظر: جارودي، روجيه: حوار الحضارات، ترجمة عادل العوا، بيروت 1982م،ص59).

(140) مؤرخ فرنسي عمل في مجال والحضارة والرأسمالية (Wikipedia, Fernand Braudel).

المنهج. وهو مؤرخ فرنسي صاحب رؤية للتاريخ الرأسمالي تستند إلى نظام الدورات التاريخية.[141]

على أن دراسات مناهج العلوم الاجتماعية أشارت بوضوح إلى أن مناهج الإحصاء لوحدها لا تكفي لفهم حقيقة الموضوع المبحوث. وان استخدام مناهج أخرى مثل منهج دراسة الحالة يظهر حقائق وأبعاد لم يكن لمناهج الإحصاء إبرازها. بل أحياناً تقدم صورة مضللة، إذا تم الاكتفاء بمناهج الإحصاء المختلفة[142].

المنهج البنيوي Structuralism:

وهو المنهج الذي يدرس فيه الباحث الظواهر من خلال التركيب البنائي لها، أو من خلال البنية الظاهرة. والبنية هي مجموع العناصر المؤلفة للشكل وتشكل نسقا يتسم بالديمومة النسبية ويتناسب مع الوظيفة أو يوجه الوظيفة[143]. ويعرف كذلك أنه مجموعة من الوقائع وتجمع في شكل ما يسمى هيكلا ، ثم المرحلة الثانية من هذا المنهج هو مرحلة التصور حيث يتخيل الباحث مبدأ ينظم الوقائع وهو ما يسمى بالبنية، فهو يتخيله أو يخترعه، أو يتعرف إليه فقط [144]. فالبنية هي الكيفية التي تنتظم بها عناصر

(141) أنظر: Braudel, F., Civilization and Capitalism, 15th-18th Century: the Wheels of Commerce, California 1992, pp3ff.

(142) أنظر : Young ,P., Scientific Social Surveys and Research: And Introduction to the Background, New York 1947,p331 ff.

(143) عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، القاهرة2000،ص ،164.

(144) اومينس ، رولان: فلسفة الكوانتم، ترجمة احمد فؤاد باشا ويمنى الخولي، الكويت 2008 ،ص338.

مجموعة ما، متماسكة فيما بينها بحيث يتوقف كل عنصر على باقي العناصر الأخرى وبعلاقته بها.[145]

وظهر هذا المنهج أيضا في الدراسات اللغوية والأدبية والاجتماعية والإنسانية، حيث يرى أن كل ظاهرة سواء كانت إنسانية أو حتى طبيعية هي عبارة عن بنية، أو نسق متكامل يتكون من عناصر تربط بينها علاقات وثيقة. مع اختلاف الباحثين الذين عملوا بهذا المنهج في بعض التعاريف والمهام البنيوية مثل إضافة طابع التحولات الداخلية للبنية.[146] ولهذا يعرف في الدراسات الأدبية مثلا أنه: "منهج وصفي في قراءة النص الأدبي يستند إلى خطوتين أساسيتين وهما: التفكيك والتركيب ، كما أنه لا يهتم بالمضمون المباشر، بل يركز على شكل المضمون وعناصره وبناه التي تشكل نسقية النص في اختلافاته وتآلفاته."[147] أما بالنسبة إلى الدراسات التاريخية فإن دعاة البنيوية يشيرون إلى أن الوعي التاريخي عليه أن يبدأ بالبناءات التجريدية، ويقولون[148]:" إن الحدث التاريخي كحدث عار، منكشف من تلقاء ذاته، غير موجود. وفهمه يعني موضعته بعيدا جدا عن ظاهره ودمجه في كلية يشكل جزءا منها مع أحداث أخرى كعناصر مترابطة يعتمد بعضها على بعض بشكل متبادل". وذلك لأن الأحداث لا تنكشف من مجرد النظر إليها لأنها لا توجد على مستوى الظاهر المرئي. ومهمة المؤرخ هي اكتشاف العلاقات التكوينية الموجودة بين نسق وآخر من خلال الوقائع التي تظهر

---

(145) شاكر احمد السحمودي: مناهج الفكر العربي المعاصر في دراسة قضايا العقيدة والتراث، جدة2010، ص65 ؛ عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل،164،165.

(146) شاكر السحمودي : مناهج الفكر،65 وما بعدها.

(147) أحمد أتزكنرمت: قراءة في مقالة مستويات الدراسة البنيوية لصلاح فضل، http://fassila.maktoobblog.com

(148) باسكيز، أضولفو: البنيوية والتاريخ، ترجمة: مصطفى المسناوي، بيروت1981،ص10.

فيها هذه العلاقات ضمن سيرورة من التطور والتغير. وعلى ذلك فالأطروحة الأساسية للبنيوية هي أن ما من حدث فعلي إلا ويفترض بنية ما. وأن علة وجودة بنيوية.[149]

استخدم هذا المنهج ضمن تعددية منهجية عند بعض الباحثين العرب بهدف إعادة قراءة تاريخ الفكر الإسلامي. على أن استخدام هذا المنهج في دراسة تاريخ الفكر الإسلامي واجه الكثير من النقد حول المصداقية العلمية لأمثال هذه الدراسات.[150]أمثال محمد عابد الجابري في كتابه : نقد العقل العربي.

وكان هذا المنهج عندما استخدم في الفيزياء كشف عن عدم دقته حيث اتضح أن بعض هذه البنيات محض أوهام . بل أن من الممكن أن شخصاً أوسع خيالاً قد يستطيع أن يفترض بنيات تختلف عن باحث آخر .[151] كما أنه يضل منهجاً ناقصا لأنه يعجز عن شرح التطور وتفسير الانتقال، حيث يكتفي بالكشف عن عناصر البنية كأجزاء مترابطة ، متبادلة التفاعل والوظائف داخل البنية . ولا يعطي لأي منها أولويات أو أفضليات.[152] كذلك انتقد هذا المنهج العديد من كبار الفلاسفة الغربيين، منهم على سبيل المثال روجيه غارودي[153](ت2012م) ، ورغم انه اعتبر أن كارل ماركس هو أول من صاغ مبادئ منهج بنياني كأداة ضرورية للبحث العلمي إلا أن ماركس– حسب غارودي– لم يجعل البنيوية فلسفة وان البنية هي الواقع الوحيد

(149) باسكيز: البنيوية والتاريخ ،14، 40 .

(150) شاكر السحمودي: مناهج الفكر ،66 وما بعدها.

(151) اومينس، رولان : فلسفة الكوانتم ، 338.

(152) أنظر على سبيل المثال: علي زيعور: مذاهب علم النفس، بيروت1984،ص8.

(153) روجيه غارودي: فيلسوف فرنسي كان ماركسيا ثم أعلن إسلامه ، له العديد من المؤلفات ، هاجم الصهيونية وأنكر تضخيم مذبحة اليهود في الحرب العالمية الثانية، مما سبب له صراعاً مريراً مع اللوبي اليهودي الفرنسي، ومحاكمته.(للمزيد عنه انظر: فوزية شمسان: روجيه جارودي، الرؤية والتغيير، صنعاء2003).

للوجود، كما أن غارودي نظر إليها أنها مجرد تنظيم للظاهرات وليس كشفا للماهيات.[154]

وكان ذهب بعض الباحثين العرب الى البحث عن جذور البنيوية عند نظرية النظم عند الجرجاني[155]، او الربط بينهما[156].

(154) روجيه غارودي: البنيوية فلسفة موت الإنسان، ترجمة جورج طرابيشي ، بيروت 1985،ص115،13.

155) عبدالاله بلقزيز: نقد التراث، بيروت2014م، ص49.

156) احمد زعبي: مقالات في الأدب والنقد العربي والأدبي، بيروت1993م، ص77.

كارل بوبر: منهج حل إشكالية تاريخية (المشكلة التي يعالجها البحث) :

أما فيلسوف المنهج العلمي في القرن العشرين كارل بوبر[157] (1902-1994) Karl Popper فإنه يصرح أنه لا أهمية كبيرة لدراسة التاريخ ما لم يكن منهج البحث هو تحديد مشكلة ومحاولة الإجابة عليها وذلك من خلال ما أسماه تحليل الموقف، وتحليل الموقف يعني محاولة الإجابة على سؤال ماذا كانت العناصر المهمة الفعالة في الموقف التاريخي؟

وقدم أمثلة حول تحديد المشكلة التاريخية أو السؤال التاريخي مثل:كيف اندلعت الحربان العالميتان؟ وهل كان بالإمكان تفاديهما؟ معتبرا أن منهجه منهج موضوعي لفهم التاريخ وليس ذاتي مثل منهج كولنجوود.

ففي رأيه إننا نستطيع أن نظفر بأفضل تفهم لمناهج العلوم الطبيعية، والمثل تماماً لمناهج العلوم الاجتماعية، إذا سلمنا بأن العلم يبدأ دائماً بمشكلات وينتهي بمشكلات، إذ أن التقدم العلمي – أساساً– في تطور المشكلات العلمية، ويمكن تقييم التقدم العلمي بواسطة الزيادة في رهافة هذه المشكلات وثرائها وخصوبتها وعمقها[158].

ويكاد كارل بوبر بهذا يماثل بين منهجي العلوم التطبيقية والعلوم الإنسانية بما فيها علم التاريخ، ولخص نظريته في ذلك كالتالي: مشكلات ثم نظريات لمحاولة حلها، ثم انتقادات للنظريات وحلولها، ثم نشوء مشكلات جديدة[159].

---

(157) كارل بوبر: أشهر فلاسفة العلم والمنهج العلمي، هاجر من موطنه النمسا عام 1929، إلى نيوزلندا حيث عمل في الجامعة، ثم استقر في انجلترا، حصل على لقب سير وخمس عشرة دكتوراه فخرية، من كتبه المنشورة: "منطق الكشف العلمي" وعقم النزعة التاريخانية" وهو الكتاب الذي هاجم فيه نظريات تفسير التاريخ، (انظر: بوبر، كارل: أسطورة الإطار، تحرير: مارك ر.بوبر، ترجمة: يمنى طريف الخولي، الكويت2993، 317).

(158) بوبر، كارل:أسطورة الإطار، 185.

(159) بوبر، كارل: أسطورة الإطار، 188.

وكان كارل بوبر اشتهر بكتابه "عقم النزعة التاريخية" الذي أنكر فيه أن للتاريخ مسار يمكن التنبؤ فيه، ورغم ذلك فإنه يعد نمو المعرفة هي الخطة الأساسية لتطور الحياة أو لسير التاريخ، وهذه إجابته حول سؤال:

هل هناك خطة للتاريخ؟ أي هل هناك سياق محدد للتاريخ يمكن الكشف عنه[(160)]. ولأن العلم يتوقف حسب رأيه على الذكاء الخارق لعبقريات فردية ، فإنه لا يمكن التنبؤ بالتقدم العلمي وبالتالي لا يمكن التنبؤ بمسار التاريخ.[(161)]

ومهما يكن من أمر: فإن منهج دراسة المشكلات ليس بجديد عند المؤرخين، حيث كان اللورد أكتون [(162)] Acton (1834-1902) منذ القرن التاسع عشر يقول بدراسة المشكلات وليس العصور[(163)].

اما الامام ابو حامد الغزالي فقد سبق الاثنين فيقول[164]:" ولا يخفي لذة العالم في علمه، وفيما ينكشف له في كل لحظة من مشكلات الأمور، لا سيما إذا كان في ملكوت السموات والأرض، والأمور الآلهية. وهذا لا يعرفه من لم يذق لذة انكشاف المشكلات. ثم أنها لذة لا نهاية لها، لأن العلوم لا نهاية لها، ولا مزاحمة فيها". اي ان لذة العلم عند العالم هي في كشف المشكلات وهي لا تنتهي عند اهل العلم.

---

(160) بوبر، كارل: أسطورة الإطار، 188 ؛ يمنى طريق الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين، سلسلة عالم المعرفة، 264 الكويت ديسمبر 2000، ص331.

(161) عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة ، 370/1.

(162) اللورد اكتون : كاتب ومؤرخ وسياسي انجليزي، صاحب العبارة المشهورة : السلطة المطلقة مفسدة مطلقة. (Wikipedia, John Dalberg-Acton, 1st Baron Acton)

(163) مارو: هـ. أ: من المعرفة التاريخية، ترجمة جمال بدران، القاهرة: 1971، ص50 ؛ بوبر، كارل: أسطورة الإطار، 172.

164) ميزان العمل، ب د، ص5.

ولارشتاين :منهج النظم العالمية World Systems :

كذلك من التصورات الحديثة في المناهج التاريخية ودراساتها ، ما يسمى منهج النظم العالمية ، تنطلق فكرة هذا المنهج، من عدم قبول فكرة التحولات الاجتماعية والاقتصادية في مجتمع ما بمعزل عن البلدان الأخرى، أو المجتمعات الأخرى، وتفترض هذه النظرية وجود نظام عالمي، وبهذا تصبح بعض البلدان مجرد أجزاء أو عناصر في بنية أكبر وأكثر رحابة. ولذلك من منطلق هذا المنهج لا يمكن أن نفهم ما يحدث من تحولات اجتماعية واقتصادية في مجتمع ما إلا من خلال فهم سياق الإطار الأوسع، أي النظام العالمي.

وعلى سبيل المثال، كان انهيار الإمبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر، نتيجة متغيرات لعملية تغير عالمية واسعة. حيث يكون تفسير انهيار هذه الإمبراطورية من خلال التحولات الداخلية على المجتمع البريطاني يسبب في الوصول إلى نتائج مبتورة ومنقوصة[165]. وهذا المنهج يختلف تماما عن المنهج التاريخي المتأثر بمنهج العلوم الطبيعية ، وهو أن يعزل المؤرخ موضوعه زمانا ومكانا عن سائر العصور كما يعزل العالم الطبيعي الظاهرة الطبيعية المراد دراستها عن ما حولها من مظاهر .[166]

ويذكر أنه مما يميز فكر ولارشتاين[167] Immanuel (1853-1923) Wallerstein مؤسس منهج النظم العالمية ، إن منهجه تبنى أفكار مدرسة التاريخ

(165) تيلور،بيتر وفلنت ،كولن: الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر: ترجمة عبد السلام رضوان وإسحاق عبيد ،عالم المعرفة 282، الكويت ،يونيو2002،-39،40

(166) أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ ،22،23 .

(167) ولارشتاين، امانويل : عالم اجتماع أمريكي ، حصل على الدكتوراه عام 1959م ، عمل أستاذا في جامعة بينجانتون حتى تقاعده عام 1999م. اشهر مؤلفاته النظام العالمي الحديث ، ومنهج النظم العالمي . اشتهر مع نعوم تشومسكي بمعاداة الرأسمالية، يرفض فكرة العالم الثالث ويقول بوجود نظام عالمي واحد ظهر نتيجة شبكة معقدة من

الفرنسية، أو ما يطلق عليهم French Annales [168] ، أصحاب منهج التاريخ الحضاري، كذلك استقى فكره من نقد ما يسمى بالماركسيين الجدد لنظريات التطور في العلم الاجتماعي الحديث. على كل حال، يحاول منهج النظم العالمية الوصول إلى علم اجتماع تاريخي يتسم بالشمولية[169].

وبغض النظر عن الفكر الفلسفي لهذا المنهج، تستوقفنا بعض نتائج الدراسات التي يأخذ بها منهج النظم العالمية، وهي محاولات رصد تاريخ الاقتصاد العالمي، مثل دورات كوندراتيف[170] (1892-1938) Kondratieff، وهي دورات في تفسير التاريخ الاقتصادي ، تتكون دورات كوندراتيف من مرحلتين ، واحدة للانتعاش الاقتصادي (أ) ، وأخرى للركود الاقتصادي (ب)[171]، ويوجد شبه إجماع بين الباحثين على دورات أربع – من خمسين دورة كاملة – وقعت بالفعل مع اختلاف حول تأكيد التحديد الزمني لهذه الدورات، وهي كالتالي :

1- 1780 /1790 – (أ) –1810/1817 –(ب) – 1844/1851

2- 1844/1851 – (أ) –1870/1875 –(ب) –1890 / 1896

3- 1890/1896 – (أ) -1914/1920—(ب)—1940/1945

علاقات التبادل الاقتصادي التي أفرزت تراكم لانهائي للرأس المال. أثارت نظريته في النظم العالمية الكثير من النقد. . (Wikipedia ,Wallerstein)

(168) تأسست المدرسة الفرنسية لتفسير التاريخ Analles من قبل لوتش فيفر Febvre ومارك بلوك Block حيث كانت محطة رئيسة للتغيير من دراسة الأفراد إلى دراسة التاريخ الحضاري مثل المواضيع الجغرافية والاقتصادية والسكانية (أنظر: Wikipedia,Philosophy of History – Britannica, Febver, Luicien) .

(169) تيلور، بيتر وفلنت، كولن: الجغرافيا السياسية ،40،39

Wallerstein, I., The Modern World-System: Capitalist Agriculture and the Origins of the European World, New Yourk,1976,pp229-233.

(170) كوندراتيف : اقتصادي روسي صاحب نظرية الدورات الاقتصادية من 40-60 سنة ، أعدمه ستالين عام 1938م .(Wikipedia, Kondratieff)

(171) Medhi,J., Statistical Methods, New Delhi 1992,pp338f. ,

4- 1945/1940—(أ)—1973/1967—(ب)-- ؟

واستندت هذه الدورات في رصدها للعديد من الظواهر الاقتصادية إلى أسس مثل الإنتاج الزراعي والصناعي، وإحصاءات المعاملات التجارية لبلدان كثيرة في العالم. وإذا كان الباحثون متفقين حول هذه الدورات الأربع، إلا أنهم اختلفوا حول تفسير مسبباتها، ويغلب عليهم الظن أن هذه التحولات ترتبط بشكل وثيق بالتحولات التكنولوجية التي شهدها العالم(172).

وفي تفسير سياق التاريخ الاقتصادي والعالمي، قبل عام 1780م، كشف الباحثون عن دورات أطول زمنا، تمتد إلى حوالي ثلاثمائة عام، تسمى اللوجستيات Logistics، وهي كذلك تحتوي على فترات انتعاش وفترات ركود، منها على سبيل المثال الدورات التالية:

1- حوالي سنة 1050م – 1250م فترة انتعاش.
سنة 1250 – 1450 فترة ركود.
2- حوالي سنة 1450 – 1600 فترة انتعاش.
سنة 1600- 1750 فترة ركود.

وهناك أدلة تاريخية وان لم تكن في مثل تأكيد دقة دورات كوندراتيف ، تؤكد مصداقية هذه الدورات ، وتمثلت هذه الأدلة في مواضيع مثل استخدام الأراضي الزراعية والوضع السكاني(173) .

---

(172) تيلور ،بيتر وفلنت ،كولن: الجغرافيا السياسية،40،39. وعن نقد هذه النظرية أنظر : Murray, N. R., The Kondratieff cycle: Real or fabricated?, www.lewrockwell.com، دعا موراي إلى إطلاق مصطلح تقلبات بدلا عن دورات .كما وجه لهذه النظرية انتقادات عديدة لكن يلاحظ أن هذا النقد تميز بالسطحية والسخرية أكثر منه معالجة علمية عميقة.

(173) تيلور: الجغرافيا السياسية ، 44.

تعكس مرحلة الركود في الفترة من 1250-1450 في أوروبا، تدهوراً في الإنتاج بسبب تقلص النشاط الزراعي، ويسمي البعض هذه المرحلة باسم (محنة الإقطاع). وتنتهي هذه المرحلة بظهور أنشطة تجارية جديدة، وتقدم تكنولوجي في الإنتاج الزراعي. وكانت النتيجة – كما يزعم أصحاب منهج النظم العالمية – ظهور كيان جديد للاقتصاد العالمي يقوم آنذاك على الرأسمالية الزراعية. وقد نتج عن هذا النظام موجه لوجستية واسعة الأفاق خلال القرن السادس عشر، ثم تلاها فترة ركود عرفت باسم محنة القرن السابع عشر(174).

وهنا يأخذ منهج النظم العالمية بالتفسير الدوري للتاريخ من خلال الدورات الاقتصادية والسياسية، منها: دورات مودلسكي(175) Modelski الطويلة للسياسة العالمية، وكل دورة مدتها مائة عام تبدأ من عام 1500م(176).

ولعل أفضل تعريف يمكن أن نصل إليه عن منهج النظم العالمية هو أنه: منهج تاريخي لدراسة الجغرافيا التاريخية والسياسية والاقتصادية من منظور عالمي بالاستناد إلى معايير نمط الإنتاج وغيرها من الأنماط الاقتصادية. ونستطيع القول أن من أفضل الدراسات التاريخية الحديثة التي صدرت معتمدة على منهج النظم العالمية هي دراسة جانيت أبو لغد Abu-Lughod [177](ت2013م) بعنوان:" قبل الهيمنة الأوروبية، دراسة في النظام العالمي1250-1350م".(178).

---

(174) تيلور: الجغرافيا السياسية،45.

(175) جورج مودلسكي : أستاذ العلوم السياسة بجامعة واشنطن (Wikipedia, Modelski) .

(176) تيلور: الجغرافيا السياسية،118 ؛ أنظر أيضا: Modelski,G., Long Cycle of World Politics,London1987 أنظر أيضا لنفس المؤلف: System History, London 2000, p3-23.

177) جانيت ابو لغد: مؤرخة وعالمة اجتماع امريكية من اصول فلسطينية، عملت استاذة في جامعة شيكاغو والجامعة الامريكية في القاهرة.(ويكيبيديا: جانيت ابو لغد).

(178) للمزيد عن النظريات والأطروحات المختلفة لمنهج النظام العالمي أنظر: Frank,A G.,World System History, Prepared for Presentation at the Annul Meeting of the New England Historical Association, Bentley College, Waltham, Mass, April ,23L1994,pp1-13.

ولعل بروز هذا المنهج كان تأثرا بالتحولات التي شهدتها مناهج العلوم الاجتماعية الأخرى ، ومن أهمها نظرية الجشطالت Gestalt التي أشارت إلى ضرورة فهم الموقف الكلي الذي يتفاعل فيه الكائن الحي ، على اعتباره جزءاً متفاعلاً من كل محيط . (179)

(179) للمزيد عن هذه النظرية أنظر: Wertheimer, M., Gestalt Theory, London,1944,pp3ff

الخاتمة: نظرة نقدية:

شهد القرن العشرين في أوروبا قفزات علمية ضخمة على كافة المستويات سواء في الدراسات الإنسانية أو دراسات الطبيعة والفيزياء. وسواء في المناهج أو في فروع العلم نفسه. وانعكس كل ذلك على دراسات التاريخ منهاجا وتفسيرا. فشهدنا تنوعاً جميلاً في مناهج تفسير التاريخ ، يساعد بلا شك الباحثين للوصول إلى معرفة الحقيقة التاريخية قدر الإمكان والمستطاع. ولكن النظرة النقدية الفاحصة تستطيع أن تبرز العديد من الملاحظات على هذه المناهج. فمثلاً ادعاء كارل بوبر أن المنهج البحثي السليم هو البحث عن حل لمشكلة، فهذا يعني أن مجالاتنا المعرفية لن تتعدى قدراتنا على تحديد المشاكل فقط، وتظل مجالات وآفاق المعرفة مقفلة ومحدودة، لأننا لا نعلم لها مشاكل تبحث عن حل. كذلك زعمه أن التقدم التاريخي هو تقدم العلم ، يعد دون ريب حصر مجالات الإنسانية الواسعة في مجال واحد مهما عظم شأنه.

أضف إلى ذلك مناهج الإحصاء الاقتصادي ومنهج التاريخ الكمي، فقد حُصرت في الدراسات الاقتصادية التاريخية، والتي فقط يتوفر لها بيانات إحصائية، كما أنه ثبت عجزها عن تقديم حقيقة تاريخية متكاملة كما بينا ذلك. أما منهج القياس التاريخي، وهو المنهج الوحيد الذي وصل إلى أعلى درجات العلمية الممكنة فإن استخداماته — حسب علم الباحث – حتى الآن للدراسات النفسية ودور الفرد، وهو ما يعني الاستفادة من علم التاريخ ومناهجه لدراسات علم النفس، كذلك كان حال منهج النظم العالمية، كان مجرد منهج مقارن يمثل استخدام علم التاريخ لدراسة وفهم الجغرافيا السياسية.

وعليه يمكن القول أن هذه المناهج باستثناء علم القياس التاريخي لم تحقق محاور العلم الأربعة: الوصف، التفسير، التنبؤ، السيطرة.أي أنها مناهج عاجزة عن الخروج من

دراسة الجزئيات إلى نتائج عامة أو مفاهيم كلية تساعد على تقديم تفسير عام لحركة التاريخ. وإذا كانت بعض هذه المناهج حققت الأهداف التي حددتها لنفسها.

وإذا كان الصراع بين الدعوة إلى مماثلة مناهج العلوم الطبيعية والتطبيقية وبين محاولات إضفاء الجانب الإنساني على مناهج البحث سيطر على تاريخ المنهج العلمي لدراسة التاريخ فترة القرن التاسع عشر. وهو النزاع الذي نشأ عنه علم الاجتماع في الغرب ، فإن القرن العشرين اتخذ مساراً آخر هو أقرب إلى الناحية العملية والنفعية في معظمه. فظهرت مناهج مثل المنهج الإحصائي ومناهج التفسير النفسي ومنهج القياس التاريخي ومنهج النظم العالمية.

ولذلك فإننا أمام هذا التنوع والتعدد نقول: يجب أولا أن نحدد ماذا نريد من هذا المنهج ؟ فمعرفة الغاية وتحديدها بدقة يساعد على معرفة المنهج المناسب وتحديده، ومعرفة هل هذا المنهج -الذي هو مجرد وسيلة- صالح للوصول إلى هذه الغاية أم لا. خاصة في ظل تعدد المناهج وتنوعها. بمعنى أن موضوع الدراسة وزمان ومكان الموضوع يحددان منهج دراسي دون آخر ، فليس كل منهج صالح لكل دراسة تاريخية . فلا يمكن لمؤرخ مسيحي أو يهودي استخدام المنهج النفسي لدراسة التاريخ الإسلامي على سبيل المثال.[180]

---

(180) منذ بدأت التحولات المنهجية في الدراسات التاريخية من المنهج الوصفي إلى المنهج النقدي والتحليلي للمصادر ، وبشكل خاص للنصوص التاريخية في ما يسمى معالجة النصوص ، أخذ بعض ما يسمى مفكري التنوير يطبقون المنهج العقلي على الكتاب المقدس – التوراة والإنجيل — الشيء الذي تسبب في إلقاء شكوك جدية حول زعم الكنيسة بأن الكتاب المقدس هو نص مقدس أو نص مباشر من الله تعالى. حيث اتضحت دلائل كثيرة تدل أن النص هو نتيجة عمل بشر أو ما سمي وكالة إنسانية (انظر: فرح دونر : اتجاهات الكتابة الغربية عن تاريخ الإسلام، قراءة نقدية ، مجلة التسامح ، العدد 8 السنة الثانية، خريف 1425هـ/2004م،ص240).

على أية حال، أصبح المنهج السائد الآن، خاصة في الأكاديميات العربية هو منهج الوصف والتحليل، أو الوصف والتفسير، وهو المنهج الذي يحاول أن يتضمن الإجابة على الأسئلة ماذا حدث؟ وكيف حدث، ولماذا ومتى[181] ؟ وللأسف يتم في أحيانا كثيرة إغفال أي نتائج كلية للدراسة.

(181) أسامة عبد الرحمن النور: محاضرات في منهج البحث التاريخي: من التقنيات إلى المنهج، مالطا2000 ،ص109-113.

قراءة

في مناهج التفسير النفسي للتاريخ

مقدمة

يعد الكشف عن أسباب الوقائع التاريخية ومعرفة لماذا وقع الحدث التاريخي أحد أهم أهداف المؤرخين ودراسة التاريخ. ولأجل ذلك حلل المؤرخون تعدد عوامل ودوافع الفعل التاريخي، فمنها العامل الاقتصادي والعامل السياسي والعامل النفسي. وهو دافع للفعل لا يمكن معرفته والكشف عنه إلا بمعرفة علم النفس ومناهجه، ولهذا ظهر تيار علمي يدعو إلى استخدام مناهج علم النفس لتفسير أحداث التاريخ، خاصة في سير الأفراد والعظماء، أو حتى تاريخ الجماعات والشعوب، واعتبار علم النفس من أهم العلوم المساعدة في دراسة التاريخ.

علم النفس هو العلم الذي يهتم بدراسة السلوك والعقل والتفكير والشخصية والإدراك ، والآليات المستنبطة لدراسة ذلك، بهدف فهم السلوك وتفسيره والتنبؤ به والتحكم فيه من خلال الكشف عن القوانين التي يعمل من خلالها السلوك الإنساني.[182]

وبشكل عام مصطلح النفسي يشمل ما هو عقلي أو ذهني كالتفكير والتذكر، كما يشمل أيضا ما هو وجداني أو انفعالي مثل المشاعر المختلفة.[183]

وعلم النفس يساعد على فهم أصول كثير من المشكلات التاريخية والاجتماعية والسياسية، مثل انتشار الجريمة والتفكك الأخلاقي والصراع المناطقي أو الاجتماعي والصراعات الدولية، أو القلق المتفشي بين الناس، وفهم أساليب الغزو الفكري

(182) صلاح الدين أحمد الجماعي: علم النفس العام، صنعاء،2010، ص4،3.

(183) احمد عزت راجح: أصول علم النفس، الإسكندرية، ب د،ص24.

ومحاولات التأثير على السلوك عبر الإعلام وغيره. ومحاولات تغيير القيم والعادات، وأساليب الهيمنة الفكرية والنفسية.[(184)]

وإذا كان علم النفس مهم هكذا في فهم الحاضر فهو مهم أيضاً في فهم التاريخ ولأجل ذلك تهدف مناهج التفسير النفسي للتاريخ – ضمن ما تهدف– إلى معرفة دوافع وغايات السلوك والفعل الذي صنع حركة التاريخ. مثل ما دوافع الإمبراطورة ايرين[(185)](ت802 م) في ممارسة السياسة؟ أو ما دوافع الإمبراطورة ثيودورا (ت548م)[(186)] في عدم الهرب من ثورة نيقيا وتفضيلها الموت على الهرب، والحقيقة أننا من دون فهم الغاية من السلوك لا نستطيع فهم السلوك ذاته وتفسيره، فمعرفة غاية الفاعل تساعد على فهم سلوكه.

أهمية البحث:

أهمية البحث من أهمية المنهج العلمي، فصحة المنهج ضرورة لصحة البحث ونتائجه. وعلم النفس الحديث ومناهجه احد أهم العلوم المساعدة في دراسة التاريخ.

(184) احمد عزت راجح: أصول علم النفس، وما بعدها24.

(185) الإمبراطورة ايرين: زوجة الإمبراطور البيزنطي ليو الرابع الايسوري (ت780م) ، تسلمت زمام الحكم بعد موت زوجها كوصية على ولدها قنسطنطين السادس، وحينما نشب الصراع بينهما على السلطة سملت عينيه للتخلص منه. (السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية323-1081م، بيروت1982،ص222 وما بعدها؛ محمد محمد مرسي الشيخ: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية 1994،ص141 وما بعدها).

(186) ثيودورا: زوجة الامبراطور البيزنطي جستنيان(527-565م) اشتهرت بالجمال والذكاء وبالدور الكبير في رسم سياسات زوجها الامبراطور.(أنظر: نيكول، دونالد: معجم التراجم البيزنطية، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة2003م،ص94،95؛ الباز العريني: الدولة البيزنطية،66 وما بعدها).

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى معرفة مناهج التفسير النفسي للتاريخ كأحد أهم مناهج دراسة التاريخ، وظروف نشأتها، وأراء ونظريات العلماء في هذه المناهج، ومجالات استخدامها، مما يساعد الباحث التاريخي في الوصول إلى أقصى ما يمكن من معرفة الحقيقة التاريخية والقدرة على تفسيرها.

نظرة عامة على علم النفس ومناهجه:

يعد الألماني وليم فونت Vont [(187)](ت1920م) مؤسس علم النفس الحديث Psychology ومؤسسا للمدرسة البنائية[(188)] في علم النفس[(189)].

برزت عدة مدارس في علم النفس[(190)] كان من أبرزها المدرسة الفرويدية Freudism التي تتبع منهج التحليل النفسي، حيث سرعان ما أخذت طابعا شموليا يقدم نظريات تفسير تطور الثقافة والحضارة والمجتمع والتاريخ بل وحتى الدين والفن.[(191)]

---

(187) فونت، وليم : فيلسوف ألماني، ولد في نيكاراو في بادن، بألمانيا، أسس واحدًا من أوائل معامل علم النفس التجريبي عام 1879م. عمل على إثبات أن طرق دراسة علم النفس تتضمن كل التجارب المعملية والاستبصار.(للمزيد انظر: قدري حفني: لمحات من علم النفس،ب د ،ص50)

(188) المدرسة البنائية هي المدرسة التي تعتمد على عملية الاستبطان للتعرف على مشكلات الشخص عن طريق الشخص نفسه، ومساعدته في حل هذه المشكلات وتصحيح رؤيته لها.(صلاح الدين الجماعي: علم النفس،2).

(189) صلاح الدين الجماعي: علم النفس،3.

(190) منها على سبيل المثال المدرسة الوظيفية والمدرسة البنائية والمدرسة الربطية والمدرسة السلوكية والمدرسة القصدية والمدرسة الشكلية.(أنظر: فاخر عاقل: مدارس علم النفس، بيروت1987م،ص13 وما بعدها).

(191) فيصل عباس: التحليل النفسي والاتجاهات الفرويدية، بيروت1996، ص6.

تستند نظرية فرويد Freud [192] (ت1939م) إلى القول أن الجهاز النفسي للإنسان يتكون من الوعي واللاوعي أو الشعور واللاشعور ، وهو الأكبر والأكثر سيطرة على الشعور ، وعلى ذلك فإن كثير من سلوك الإنسان وتصرفاته ناتجة من تأثير اللاشعور. كما أن الشعور واللاشعور ينقسم بدوره إلى الأنا الأعلى والهو والانا، حيث يمثل الهو الغرائز البدائية لدى الإنسان ، ويسعى بشكل دائم لإشباعها خاصة غريزة اللذة والجنس، وبذلك هو لا يخضع للعقل. أما الأنا الأعلى فيمثل القيم الخارجية والتربية والتقويم والضغط الاجتماعي حتى يستطيع أن يعيش مع الجماعة. وهو المسئول عن خروج الدوافع إلى الفعل الخارجي إذا وجدها مقبولة لديه ما لم فإنه يكبتها، والكبت لدى فرويد هو أهم أسباب المرض النفسي والبدني. فالأنا الأعلى هو الوعي الأخلاقي أو الضمير لدى الإنسان الذي اكتسبه من تعلم الخير والشر من الوالدين والسلطة المحيطة به.

أما الأنا فهو المسؤول عن التوافق والتوازن الحي والديناميكي بين الهو وضوابط الأنا الأعلى. وعلى ذلك فالشخصية الإنسانية وسلوكها عبارة عن التفاعل بين هذه الثلاث المناطق النفسية عند الإنسان الواعية وغير الواعية.[193]

(192) فرويْد، سيجْمونْد : طبيب نمساوي صاحب نظرية سيطرة الدوافع غير الواعية على كثير من السلوك مما ساعد في توسيع مجالات علم النفس وتسمى نظريته نظرية التحليل النفسي. ولد فرويد في مورافيا . بتشيكوسلوفكيا السابقة وتخرج من كلية الطب، بجامعة فيينا عام 1881م. وتخصص في علم الأعصاب لدراسة وعلاج اضطرابات الجهاز العصبي. وفي عام 1923م نشر نسخًا معدلة للعديد من نظرياته الأولى. انتقل وعائلته إلى إنجلترا عندما سيطر النازيون على النمسا في عام 1938م وتوفي هناك. كتب فرويد عدة أعمال أهمها تفسير الأحلام، ومقدمة في التحليل النفسي. وتعتبر نظرياته ومنهجه في العلاج أساس علم النفس الحديث.(فاخر عاقل: مدارس علم النفس،174 وما بعدها).

(193) علي زيعور: مذاهب علم النفس، بيروت 1984م،ص220 وما بعدها.

أثر فرويد تأثيراً بالغاً في علم النفس الحديث ، سواء سلباً أو إيجاباً، إلا أنه يؤخذ عليه إعطائه الأولوية للجنس واللذة في تفسير دوافع وسلوك البشر، والحط من قدر الأخلاق والقيم الروحية ، كما انه اغفل دور الغائية حيث أضعف دور الإرادة والوعي في الشخصية لمصلحة اللاوعي والرغبات والغرائز.[194]

ثم سرعان ما ظهرت انشقاقات في مدرسة التحليل النفسي فظهر الفرد أدلر Adler [195](ت1938م) الذي أعاد دوافع السلوك الإنساني إلى الحاجة إلى إثبات الذات نتيجة الشعور بالنقص الذي يشعر به كل طفل أمام من هو أكبر منه سناً على سبيل المثال. هكذا استبدل أدلر مبدأ اللذة عند فرويد بمبدأ إرادة القوة أو غريزة التفوق والقوة ، إذ أن الجنس ما هو إلا تعبير عن هذه الإرادة.[196] كذلك أكد أدلر إلى أهمية القوى الاجتماعية في تحديد السلوك، إذ حسب رأيه أن كل فرد ولد ومعه خاصية تسمى الاهتمام الاجتماعي، وهي التي تمكن الفرد من الانتساب لبقية الناس.[197]

ثم انشق عن فرويد أيضا كارل غوستاف يونغ Carl Jung[198] (ت1961م) حيث لم يقبل بشمولية وهيمنة الجنس كدافع للسلوك، ولا بغريزة التفوق والقوة ،

---

(194) علي زيعور: مذاهب علم النفس،252،249.

(195) أدلر،الفرد: طبيب نمساوي وُلد في مدينة فيينا، وحصل على درجة الماجستير من جامعة فيينا في عام 1895م. كان اختصاصيًا في العيون وطبيبًا للأعصاب قبل أن يُصبح طبيبًا نفسانيًّا. ثم عمل أدلر مع الطبيب النّفساني سيجموند فرويد في الفترة من عامي 1902 و1911م. وفي الفترة ما بين عامي 1919 و1934م. وفي عام 1934م انتقل أدلر إلى نيويورك. يعد من رواد مدرسة التحليل النفسي .(فاخر عاقل: مدارس علم النفس،207 وما بعدها).

(196) علي زيعور: مذاهب علم النفس، 256، 259.

(197) عبد الستار إبراهيم: علم النفس، أسسه ومعالم دراساته،القاهرة557،2003؛ الموسوعة العربية العالمية، بيروت ب د ، ج2ص8.

(198) غوستاف يونغ: عالم نفس سويسري ولد يونج في مدينة كسفيل بسويسرا. وفي عام 1895م، تأهل طبيبًا في جامعة زيوريخ عام 1902م، وبدأ ممارسة الطب النفسي في بازل. استخدم يونج في وقت مبكر من حياته العملية

فالإنسان اعقد وأصعب من أن يفسر بهذه الغريزة أو تلك، وقدم بديلاً هو مفهوم الغريزة الحيوية، أو القوة الخالقة للحياة والمحافظة عليها أو الطاقة الحيوية والأساسية، وما عداها من غرائز ما هي إلا مظهر من مظاهر هذه الطاقة. وهذا مفهوم يقترب من مفهوم برجسون Bergson(199)(ت1941م) عن الوثبة الحيوية والديمومة الخلاقة، ومن مفهوم شوبنهاورSchopenhauer(200) (ت1860م) عن إرادة الحياة.(201)

و قدم الطبيب الهنغاري ليبوت زوندي(202) Léopold Szondi (ت1893) نظريته التي تقول أن اللاوعي وهو المتحكم الأساسي في السلوك بحسب فرويد، محكوم

نظريات التحليل النفسي التي استحدثها فرويد. وتقابل الاثنان في عام 1907م، وشارك يونج في حركة التحليل النفسي. إلا أن يونج رأى أن فرويد اهتم كثيرا بالغرائز الجنسية في سلوك الإنسان. ثم تخلى عن فرويد. وأصبح أستاذًا في علم النفس الطبي في جامعة بازل عام 1943م.(فاخر عاقل: مدارس علم النفس،213 وما بعدها؛ ناتاليا يفريموفا وتوفيق سلوم: معجم العلوم الاجتماعية، بيروت1992،ص480).

(199) برجسون، هنري: فيلسوف فرنسي من أصل يهودي ولد في باريس عام 1859،حصل على جائزة نوبل في الأدب عام 1927م. له العديد من المؤلفات الفلسفية، سوف يأتي الحديث عنه في المنهج الحدسي. (عبدالرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية، بيروت1984، ج1ص321).

(200) شبنهور: فيلسوف ألماني متشائم من عائلة ارستقراطية تأثر بكانط وبالاوبنشاد الهندية، عمل مدة أستاذا في جامعة برلين.(للمزيد انظر:عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية ، 31/2 وما بعدها).

(201) علي زيعور:مذاهب علم النفس،262-264،وحاشية رقم 1؛ عبد الستار إبراهيم: علم النفس،557.

(202) ليبوت زوندي: طبيب نفسي هنغاري ولد عام 1893 في هنغاريا. ونال شهادة في الطب من جامعة بودابست عام 1919. وعمل في تلك الجامعة، بمناصب أكاديمية مختلفة في مجال الطب والطب النفسي بعد نيله الشهادة، ، توصل إلى وضع مذهب الحتمية الجينية ، الذي أصبح بعد ذلك مع التحليل النفسي الفرويدي الأساس لاختباره. فقد توصل من خلال أبحاث الجينات الوراثية، إلى نظرية عامة في القضاء والقدر ؛ أطلق عليها اسم ''تحليل القدر''. فالناس على وفق نظرية زوندي محكومين بالقدر الذي تحدده صفات جيناتهم الكامنة.بعد الحرب العالمية الثانية انتقل إلى سويسرا حيث واصل تطوير نظريته واقتسم العمل في ذلك مع أطباء نفسانيين آخرين .
(Szondi,P.,Introduction to Literary Hermeneutics, Combridge,1995,pxxv).

بالمورثات أو الجينات الوراثية التي تحدد دوافع السلوك ، سواء كانت هذه الجينات ظاهرة أو متنحية.[203]

ثم تعددت اتجاهات ومدارس علماء النفس في موضوع الدوافع والحاجات للإنسان، لعل من أشهرهم أبراهام ماسلو[204] Maslow (ت1970م) الذي وضع نظريته في دافعية الإنسان وحاجاته من سبع مستويات: المستوى الأول الحاجات الفسيولوجية مثل الهواء والماء والطعام والجنس والنوم، والمستوى الثاني: يمثل حاجات الأمن والسلامة والاطمئنان والاستقرار، والمستوى الثالث: الحاجات الاجتماعية من الحب والانتماء والقبول من الآخرين، والمستوى الرابع: حاجات احترام الذات والثقة والشعور بالأهمية ، والمستوى الخامس: الحاجات المعرفية والفهم والاستكشاف، والمستوى السادس الحاجات الجمالية، والمستوى السابع: تحقيق الذات.[205] لكن ماسلو تميز في دراسته للشخصية الإنسانية في دراستها في حالة الصحة والتفوق وليس في حالة المرض والضعف كما فعل معظم الباحثين في علم النفس. مستخدماً في ذلك المنهج الفينومنولوجي. وتوصل بعد مستوى تحقيق الذات إلى مستوى تجاوز الذات ، وهو أعلى مستوى للكمال الإنساني.[206] وقد درس شخصيات معاصرة له وشخصيات تاريخية لمعرفة خصائص ومميزات الذين حققوا ذواتهم ووصلوا إلى أقصى ما

(203) علي زيعور: مذاهب علم النفس، 271 وما بعدها.

(204) ماسلو : عالم نفس أمريكي من أصل روسي يهودي، درس في جامعة وسكنس ماديسون، وأصبح أستاذا في كلية بروكلين وجامعة كورنيل.(انظر: Engler.B., Personality Theories, New yourk,2013 ,pp322ff.).

(205) علي سعيد احمد الطارق: حاجات الإنسان من المنظور الإسلامي النفسي، مجلة كلية الآداب، جامعة صنعاء، المجلد32 العدد يناير -يونيو2009،ص138-148.

(206) انظر على سبيل المثال: Daniels, M.,Shadow, Self, Spirit: Essays in Transpersonal Psychology, London 2005,p153

يمكن من الكمال الإنساني، وهي الحالات التي تسمى بالتجربة الصوفية، أو تجربة الوعي الكوني. موضحاً أن من سماتهم التميز بالبساطة والتلقائية والطبيعية والتواضع[207].

ولعلم النفس عدة مناهج بحثية، مثل منهج الملاحظة، والمنهج التجريبي، والمنهج الكلينيكي، والمنهج التتبعي، ومنهج التأمل. وبشكل عام فإن خطوات المنهج العلمي تتلخص في: 1) تحديد المشكلة. 2) صياغة فرض أو عدة فروض لها. 3) اختبار صحة الفرض ، والاختبار في المنهج الوصفي العثور على ما يؤكد صحة الفرض. 4) التعميم. وتختلف معالم هذه الخطوات من منهج إلى آخر حسب نوع المنهج.[208] كما تختلف الفروض بحسب النظريات المفسرة التي يأخذ بها الباحث.

على أنه بحكم طبيعة علم التاريخ يفرض على الباحث مناهج معينة دون سواها، وأهمها منهج الوصف التحليلي، حيث يجمع الباحث كل المعلومات المتعلقة بالحالة المراد دراستها – شخص أو مجتمع– ثم يقوم بالتحليل بناء على المعلومات المتوفرة.

---

(207) للمزيد انظر - Grof,S.,Psychology of the Future: Lessons from Modern Consciousness Research, New York 2000,p157.
- Goble,F., The Third Force: The Psychology of Abraham Maslow, London 2004,p74.

(208) احمد عزت راجح: أصول علم النفس، الإسكندرية ب د ، ص45-64.

علم النفس والدراسات التاريخية:

يعد المؤرخ العربي عبد الرحمن بن خلدون[209](ت1406م) أول من قدم تفسيرات نفسية للأحداث التاريخية، مما عد معه–إضافة إلى تفسيراته الأخرى– أحد أعظم فلاسفة التاريخ في العالم.[210]

أما في العصر الحديث وأثناء تطور علم النفس ظهر ما يسمى بالتاريخ النفسي Psychohistory وهو عبارة عن دراسة الدوافع النفسية للأحداث التاريخية. من خلال الجمع بين وجهات نظر أو رؤى العلاج النفسي مع منهجية البحث في العلوم الاجتماعية لفهم دوافع السلوك السياسي والاجتماعي للأفراد والجماعات والأمم في التاريخ. ويعرف أيضا أنه التطبيق المنهجي لنتائج وأساليب علم النفس للمساعدة في تفسير وفهم سلوك الفرد والجماعة في الماضي والحاضر.[211]

ومجالات التفسير النفسي للتاريخ تتمحور حول تاريخ الأسرة والطفولة ودراسة الأفراد البارزين تاريخيا أو العظماء، ودراسة الأمم والجماعات،أي علم النفس الجماعات.

بدأ سيجموند فرويد أول مجالات التفسير النفسي للتاريخ من خلال كتابه قلق الحضارة (1929) حيث كتب تحليلا للتاريخ على أساس نظريته في التحليل النفسي.

(209) عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين بن خلدون: الفقيه والأصولي والمؤرخ ولد بتونس من أسرة حضرمية اشتهر بالعلم فشغل وظائف حكومية وعلمية في تونس ومصر ، وزار العديد من البلدان والحكام، اعترف بفضله العلماء الغربيون المحدثون.من أشهر مؤلفاته كتاب ديوان العبر وكتاب المبتدأ والخبر، والمقدمة (ابن العماد، عبدالحي الدمشقي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت ب د،ج7ص75؛ الزركلي: الأعلام،330/3).

(210) احمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ، الاسكندرية2004م،ص143.

(211) Beisel, D., Teaching Psychohistory, The Journal of Psychohistory 25 (4) Spring 1998.

واستخدم منهجه لتحليل شخصيات تاريخية أمثال ليوناردو دافنشي[212] (ت 1519م) ودوستوفسكي[213](ت1881م) ، فأُخذ عليه انه حط منهم واستنقص أمجادهم . كما أنه قدم تفسيراً للحضارة ضمن إطار مذهبه حول اللذة والجنس كدافع أساسي للسلوك.[214]

ثم توالت المحاولات العلمية في هذا المجال، فكتب الفيلسوف والطبيب النفسي إريك فروم[215] Erich Fromm حول الدافع النفسي للفكر السياسي عام

---

(212) دافينشي، ليوناردو: أشهر وأهم فنان إيطالي في عصر النهضة الأوروبية. وتُعد أعماله الفنية الموناليزا والعشاء الأخير أشهر اللوحات الفنية على الإطلاق. كان ليوناردو عبقريًا حقيقيًا تجلت عبقريته في شتى الصور. درس التشريح وعلم الفلك، والنبات والجيولوجيا وصمم آلات عديدة جديدة في عصره. وقد كان أثر العلماء العرب والمسلمين واضحًا في أعمال دافينشي ومعاصريه خاصة في علمي الفلك والجيولوجيا، وقد اعترف دافينشي بأنه استقى معلوماته عن الأحجار والأحافير من الكتب العظيمة لابن سينا. وكان من بين المخترعات التي سبق بها عصره تصميم الطائرة المروحية وتصميم المنطاد والغواصة. (ليوناردو دافينشي الرسام الخالد، بيروت 1994م).

(213) دوستويفسكي، فيودور : من أشهر كتاب الأدب الروسي، ولد في مدينة موسكو، ونال تعليمه في الهندسة العسكرية في مدينة سان بُطرُسْبرج، لكنه تحوّل بعد ذلك إلى الأدب. كانت المساكين (1846م) أول رواياته، وهي دراسة نفسية كُتبت بأسلوب خطابي. وفي أواخر الأربعينيات كتب دوستويفسكي عدة روايات، تناول فيها الفقراء والمضطهدين، بالإضافة إلى الشخصيات الغريبة وغير العادية. برز دوستويفسكي في أعماله المتأخرة رائدًا للتحليل النفسي، وواحدًا من أبرز المفكرين ؛ حيث نفذ إلى أعماق النفس البشرية ووضع الأساس للعديد من الأفكار التي بُنيت عليها الحركة التي عُرفت فيما بعد بالوجودية.(Leithart,P., Fyodor Dostoevsky, new York 2011).

(214) علي زيعور: مذاهب علم النفس، 252.

(215)اريك فروم: ولد في فرانكفورت ودرس في جامعة هايدلبيرج متخرجا عام 1922م وفي عام 1933م حاضر في الولايات المتحدة في معهد التحليل النفسي في شيكاغو، ،ثم ودرس في جامعات الولايات المتحدة والمكسيك. كان من أنصار فكرة أن أغلب سلوك الإنسان هو تأثر بالظروف الاجتماعية المحيطة به. ولذلك رفض فروم أغلب ما في نظرية فرويد، إذ كان فرويد يتمسك بأن الغرائز تحدد أغلب سلوك الإنسان.له الكثير من المؤلفات في الفلسفة، علم النفس، الدين، علم الاجتماع. (Funk,Rainer.,Erich Fromm,His life and Ideas, New York 2000,pp78ff).

1941م. ودعت لويد دي ماوس[216] DeMause منذ العام 1974م إلى اعتبار التاريخ النفسي حقل معرفي مستقل بنفسه له مناهجه وأساليبه الخاصة وأهدافه التي تستقل وتختلف عن الدراسات التاريخية التقليدية وعن الانتربولوجيا، ولذلك عدت لويد دي ماوس رائدة هذا العلم.[217]

على أن هذه الدعوة واجهت معارضة من بعض العلماء وشككوا في مصداقيتها العلمية، وشارك بعض أنصار فرويد في التشكيك حول صحة إجراء التحليل النفسي بعد الوفاة.[218]

لكن سريعا ما أصبح التاريخ النفسي مادة علمية تدرس أكاديميا بجانب دراسة المواد التاريخية .[219] وأصبحت شخصيات تاريخية مثل هتلر[220](ت1945م) على سبيل المثال محط دراسات التفسير النفسي للتاريخ[221].

---

(216) دي ماوس: أستاذة أكاديمية أمريكية ولدت عام 1931م بديترويت الأمريكية وعملت بجامعة كولومبيا، اشتهرت بأعمالها في التاريخ النفسي وخاصة الطفولة (Trahair,R., From Aristotelian to Reaganomics: A Dictionary of Eponyms with Biographies, London 1994,p161).

(217) DeMause,L., Foundations of Psychohistory, Creative Roots Pub,USA,1982.
- DeMause,L.,The Emotional Life of Nations USA,2002.pp.87 ff

(218) Wikipedia, Psychohistory

(219) Beisel, Teaching Psychohistory, The Journal of Psychohistory 25 (4) Spring 1998.

(220) هتلر، أدولف : (1889- 1945م) : زعيم سياسي ألماني ، ولد في النمسا، أصبح زعيم الحزب الوطني الاشتراكي ، أي النازي حاول القيام بعصيان مسلح ي ميونخ 1922م أنتخب مستشارا 1933م ثم رئيس الدولة المطلق1934. أقام نظاماً ديكتاتورياً بوليسياً . أشعل الحرب العالمية الثانية فاحتل ألبانيا 1936م والنمسا وتشيكوسلوفاكيا 1938 وبولينا 1939م ثم هزم وانتحر في برلين 1945م.(انظر: Nicholls, D., Adolf Hitler: A Biographical Companion, Oxford 2000).

(221) Langer,W., The Mind of Adolf Hitler, New York,1972,pp11ff

أثارت هذه الدراسة سؤال: كيف كان هتلر ينظر إلى نفسه، وهل كان صادقا مع نفسه أم كان محتالا. فبينت انه كان يعتقد نفسه أعظم ألماني في التاريخ.

والعلاقة بين علم النفس ودراسة التاريخ لا تنحصر في محاولات فرويد أو نظريات لويد ماوس ، إذ إنها علاقة طويلة لعلها تبدأ من المؤرخ لامبرخت.

لامبرخت :

يعد لامبرخت Lamprecht[222](1856-1915م) من أوائل من دعا إلى استخدام المنهج الاستقرائي[223] وعلم النفس في الدراسات التاريخية. مع استخدام وفحص مادة الوقائع بعناية، ثم يجب بعد ذلك على المؤرخ الحكم وإبداء الرأي.

ولذلك يقول لامبرخت[224]:"لن يكون هناك أي بحث علمي حقيقي للتاريخ إذا اعتبر أنه يعتمد على افتراضات،أي فلسفة، مهما كانت هذه الافتراضات – مثالية أو وضعية – فعلم التاريخ هو علم استقرائي يخضع لحدود التحديدات والاستكمالات النظرية، التي يسمح بها في الاستقراء".

(222) لامبرخت: مؤرخ ألماني وأستاذ جامعي له من الدراسات: تقدم معايير التطور التاريخي والغاية القديمة والحديثة للمعرفة التاريخية.ومنهج تاريخ الحضارة (أنظر: كاسيرر: المعرفة التاريخية، 127 حاشية 2، 3، 4، 5، 6؛ (Chickering, R., Karl Lamprecht: A German Academic Life, new Jersey 1993)

(223) المنهج الاستقرائي : هو عكس المنهج الاستنباطي، يبدأ بدراسة الجزئيات ليصل منها إلى قوانين عامة أو صيغ عامة، ويعتمد على التحقق بالملاحظة المنظمة وفي العلوم التطبيقية تكون الملاحظة خاضعة للتجريب والتحكم في المتغيرات المختلفة (أنظر : محمد زيان عمر: البحث العلمي ، مناهجه وتقنياته، القاهرة2002،ص49،48).

(224)كاسيرر، آرنست :في المعرفة التاريخية، ترجمة أحمد حمدي محمود، القاهرة 1997 ،ص 74.

-Chickering,R., Lamprecht K, A German Academec Life (1856-1915),New Jersey,1993,pp.28,34,51,225.

كذلك اعتبر علم النفس هو الأساس العلمي الوحيد لعلم التاريخ، وليس مجرد علم من العلوم المساعدة، إن "التاريخ في ذاته ليس أكثر من علم نفس تطبيقي، ولذا فمن الواضح أنه يجب أن يكون علم النفس النظري مفتاح فهمه فهماً كاملاً"[225].

وما يلفت النظر في منهج لامبرخت إشارته أن دوافع الأعمال الاقتصادية لا يمكن أن تفهم فهماً مؤكداً إلا عند النجاح في تفسيرها نفسياً، أي بإرجاع هذه الأفعال إلى مواقعها النفسية النهائية، ولا يؤدي الاقتصار على الدوافع الاقتصادية وحدها إلا إلى تجريدات غير نافعة، لأن معنى ذلك هو تجاهل خاصية السيكولوجية الجماعية للتاريخ، ويرفض لامبرخت النظرة المثالية للتاريخ القائلة: إن القوى الفكرية وحدها هي القوى الرئيسة في التاريخ، فالاقتصاد هو العامل المساعد المهم في باطن الأحداث التاريخية، ولكن لا يمكن كذلك استيعاب وفهم تاريخ أمة من خلال التاريخ الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي فقط، بل كذلك من خلال الحياة العقلية لهذه الأمة أيضاً.[226]

لقد ظن لامبرخت أن تاريخ الحضارة هو أول منهج علمي لدراسة التاريخ بعد عملية فحص الوقائع المفردة ومجموعات الوقائع فحصاً نقدياً لأن جمع المادة التاريخية ليس هو الغاية، ولكن الغاية هي وضع تصور عام يتضمن رؤية كل شيء[227].

كان لامبرخت بهذا المنهج يحاول صف علم التاريخ مع مجموعة العلوم الطبيعية، وتحويله من صورة وصفية بحتة، إلى صورة خاضعة للتفسير العلمي، بصرف النظر عن نجاحه في تطبيق هذا المنهج في دراساته الخاصة أم لا[228]. كذلك كان لامبرخت من

(225) كاسيرر: المعرفة التاريخية، 81.

(226) كاسيرر: المعرفة التاريخية، 81، 82.

(227) كاسيرر: المعرفة التاريخية، 82.

(228) كاسيرر: المعرفة التاريخية، 73-82.

أهم الأصوات المنتقدة لمن يحصرون التاريخ في مجال التاريخ السياسي(229). ورغم أن نظرته هذه أثارت خلافاً كبيراً بين المهتمين ، إلا أنها أدت إلى إعادة التدقيق في قضية المنهج التاريخي وخاصة في مجال التاريخ الاجتماعي والثقافي.(230). والجدير بالذكر أن ابن خلدون يعد أول من استخدم الملاحظة واستقراء الحوادث والخروج إلى تعميمات في دراسته للتاريخ. وربما بفضل هذا المنهج وصل إلى ما وصل إليه من نتائج.(231)

المنهج الحدسي:

يعد الحدس أحد مناهج التفسير النفسي، وهو منهج متبع عند بعض الفلاسفة مثل هنري برجسون الذي يعد منهجه مناهض للمنهج الوضعي لأوجست كونت ، كما أنه مختلف عن المنهج الحدسي لديكارت. فالحدس عنده ليس عاطفة ولا إلهاماً أو انجذاباً مشوشاً ، بل هو منهج معد كأحد مناهج الفكر الفلسفي الذي يضاد الفكر الوضعي. وبرجسون يضع ضمن منهجه الحدسي قاعدة طرح المشكلات وخلقها. وتاريخ الناس ، سواء لجهة الممارسة أو الجهة النظرية، وهو تاريخ تكوين المشكلات. وعلى المؤرخ أن يعي هذا النشاط ، أو طبيعة التاريخ هذه.(232) وهو بهذا يقترب من منهج كارل بوبر(233) Karl Popper (1902-1994) أن دراسة التاريخ هو دراسة

(229) Burke,P., History and Social Theory, New york,2005,p.13.

(230) Britannica, Lamprecht.

(231) أحمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ،143.

(232) أنظر : دولوز، جيل : البرغسونية ، تعريب: أسامة الحاج ، بيروت 1997م،ص5 وما بعدها.

(233) كارل بوبر: فيلسوف نمساوي يعد أشهر فلاسفة العلم والمنهج العلمي، هاجر من موطنه النمسا عام 1929، إلى نيوزلندا حيث عمل في الجامعة، ثم استقر في انجلترا، حصل على لقب "سير" وخمس عشر دكتوراه فخرية، من كتبه المنشورة: "منطق الكشف العلمي" وعقم النزعة التاريخانية" وهو الكتاب الذي هاجم فيه نظريات تفسير التاريخ، (انظر: بوبر، كارل: أسطورة الإطار، تحرير: مارك ر.بوبر، ترجمة: يمنى طريف الخولي، الكويت2993، 317).

مشكلة تاريخية محددة. لكن برجسون يختلف عنه بانتقاده الشديد للعقل، إذ أن المعرفة العقلية عنده لا تلمس موضوع المعرفة إلا لمسا سطحيا وتتناوله من الخارج فقط ولا تستطيع مطلقا أن تنفد إلى باطنه ، كما أن المعرفة العقلية نسبية عاجزة عن الوصول إلى ما هو عليه الشيء في الواقع وطبيعته النابضة بالحياة ، والمعرفة العقلية كمية وميتة استاتيكيا لا تنقل لنا إلا حالة واحدة للشيء حيث تجمد حركة الأشياء وتجعلها ثابتة. وعلى ذلك فالحدس عنده نوع من الإدراك المباشر لحياتنا الباطنية ولمجرى الشعور الداخلي وهو وحدة الذي يستطيع أن يتفهم الحياة وينفذ إلى تيارها المتدفق ، الشيء الذي يعجز عنه العقل.[(234] ولأجل ذلك اعتبر هذا المنهج ضربا من المعرفة الصوفية الذوقية يعترف بها أحد كبار فلاسفة الغرب المعاصرين.[(235] ولابد من الإشارة إلى أن العديد من العلماء الغربيين اعترفوا بأهمية الحدس في الكشف عن قوانين الطبيعة. يقول اينشتين[(236]:" لا توجد آلية معينة تهدي العالم في الكشف عن قوانين الطبيعة أن الحدس وحده مع الفهم المتعاطف مع التجربة هو الكفيل باكتشاف القانون العملي". ويقول كذلك العالم الكبير ماكس بلانك[(237] Max Plank (ت1947م) صاحب نظرية الكوانتم:" أن البصيرة النافذة هي وحدها الهادية للاكتشاف". وكذلك من

(234) يحي هويري: مقدمة في الفلسفة العامة ، ب د ، ص154،153،

(235) ماهر عبد القادر محمد وحربي عباس عطيتو : اتجاهات التفكير الفلسفي في العصور الوسطى ،الاسكندرية2007 ،ص114؛ عبد الرحمن بدوي: دراسات في الفلسفة الوجودية، بيروت1980،ص14.

(236) أسامة علي الخضر: رؤية قرآنية لقوانين الكون،صنعاء 1998م،ص33.

(237) ماكس بلانك (1858 - 1947)، عالم فيزياء ألماني، يعد مؤسس نظرية الكم، ومن أشهر فيزيائيّ القرن العشرين، حاصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1918م.(للمزيد أنظر: بروي، لوي دي: علماء واكتشافات، ترجمة وائل الأتاسي، دمشق،1986م،ص150 وما بعدها).

علماء الإسلام الإمام الغزالي[238](ت505هـ) ، الذي يرى أن الحدس هو نور من الله يقذفه في قلب المؤمن فيعرف غير ما يعرف بالحواس.[239]

ومنهج الحدس في الدراسات التاريخية بشكل عام هو إعادة تمثل الماضي في زمن المؤرخ ، بحيث لا يكتفي بمجرد فهم مادته التاريخية وإنما يتجاوب معها إلى حد أن تعيش في ذاته وبذلك يبعث فيها الحياة حتى يستطيع أن يفهم عليه التاريخ الباطنية وعدم الاكتفاء بسطحية الأحداث ليكشف ببصيرته الفكر الكامن وراءها[240].

كولنجوود : منهج التعايش النفسي :

قدم الإنجليزي كولنجوود R.G.Collingwood[241] (1889-1943) نقدا ذكيا لمن سبقوه في موضوع منهج وفلسفة التاريخ[242]. إذ يعد من المناهضين لصلاحية مناهج العلوم الطبيعية لدراسة التاريخ.[243] وفي نظرته لمنهج دراسة التاريخ أوضح كولنجوود أن الشيء الأساسي في فهم التاريخ ليس تحليل الموقف بقدر ما هو العملية

---

(238) محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام: الفقيه المتكلم الصوفي، ترأس المدرسة النظامية ببغداد و تركها للعبادة والزهد ثم عاد للتعليم والتربية، له الكثير من المؤلفات. مولده ووفاته في الطابران بخراسان رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته.من أشهر مؤلفاته: إحياء علوم الدين.(للمزيد أنظر: أبو الحسن الندوي: رجال الفكر والدعوة في الإسلام،دمشق2002،ج1ص257 وما بعدها).

(239) انظر على سبيل المثال: الغزالي: إحياء علوم الدين، 27/4؛ أسامة علي الخضر: رؤية قرآنية لقوانين الكون،صنعاء 1998م،ص33.

(240) أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، 60 ؛ علي زيعور : مذاهب علم النفس، 425.

(241) كولنجوود: مؤرخ وفيلسوف انجليزي تخصص في الآثار الرومانية القديمة، عمل كأستاذ فلسفة في أكسفورد.(للمزيد انظر: Murrary, C., Key Writers on Art: The Twentieth Century, London 2005,p64).

(242) من خلال كتابه: فكرة التاريخ The Idea of History، ترجمه للعربية محمد بكير خليل.القاهرة 1968م.

(243) أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، 33،34.

الذهنية لإعادة معايشته. ولا يفيد تحليل الموقف إلا كمساعد لا غنى عنه لإعادة المعايشة أو التشخيص[244]. ولذلك انتقد كارل بوبر نهج التمثل النفسي عند كولنجوود، واعده منهجا ذاتيا لدراسة التاريخ، لا يمكن للمؤرخ نقده لأنه يصبح جزءا منه[245]. كان كولنجوود بهذا الفكر يمثل أبرز شخصيات الفكر المثالي في انجلترا في القرن العشرين. ويبدو انه كان على وعي مسبق بالانتقاد الذي يمكن أن يوجه إليه، لذلك يشير إلى: أن المؤرخ على وعي حين يتمثل فكر الغير وموقفه وسلوكه وأن هذا ليس فكره هو أو موقفه أو سلوكه، أان المؤرخ بذلك لا ينساق في تجربة ذاتية خالصة، وإنما هو مقيد بتجربة الغير الذي فكر وسلك على نحو معين[246].

وجدير بالذكر ان كولنجوود لم يكن منفردا في هذا المنهج اذ كان المؤرخ بول تلش[247] Paul Tillich (1886-1965م) قد دعا الى عنصر المشاركة العاطفية بين المؤرخ والمادة التاريخية اثناء كتابته لتاريخ الفكر المسيحي من منظور الفلسفة الوجودية.[248]

(244) كارل بوبر:أسطورة الإطار، ترجمة: يمنى طريف الخولي عالم المعرفة العدد 292 إبريل-مايو 2003، ص177. أنظر أيضا: أحمد محمود بدر: تفسير التاريخ، 30 ؛ أحمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ، 34.
-Britannica, Collingwood.
Atkinson,R.F, Knowledge and Explanation in History, New York 1978,pp23-25.-

(245) بوبر، كارل:أسطورة الإطار،178.

(246) أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ ،ص33حاشية2.ص49،48.

247) بول تلش: فيلسوف ومؤرخ الماني امريكي، قامت فلسفته على تفسير المسيحية على اساس وجودي ، اخذ اطروحة الدكتوراه من جامعة هال بعنوان: التصوف والوعي الآثم في تطور شيلينج الفلسفي.(ويكيبيديا، بوب تلش).

248) تلش، بول: تاريخ الفكر المسيحي، ترجمة، وهبة ابو العلا، القاهرة 2012م، ص16-17.

كروتشة :

ومنهج كولنجوود يقترب من منهج الايطالي بنيدتو كروتشة (ت1952م) bnditou kroutshh [249]الذي يقول[250]:" إنك لا تستطيع أن تؤرخ لعصر إلا إذا ألممت بروحه على هذا النحو الشامل ، وإنك لا تستطيع أن تؤرخ لرجل إلا إذا ألممت بظروف عصره كلها وتمكنت من الإحاطة بظروفه الشخصية أيضا، حتى أوصافه الجسمانية لابد من معرفتها، فهي في كثير من الأحيان ذات أثر بعيد في توجيه فكره وحياته. وبهذا فإن دراسة التاريخ عمليه معايشة العصر الذي يكتب عنه ومعايشة الرجل الذي يترجم له وإدراك روح الموضوع أيا كان ، إدراكا تاما.

وروح العصر الذي يعنيه كروتشه ، هو شخصيته ولبابه والجو السائد فيه والأفكار المسيطرة عليه والنظم والتقاليد التي تحكمه.[251]

ولعل هذا المنهج هو نفس المنهج الذي دعا إليه الأستاذ أبو الحسن الندوي (ت1999م)[252] لدراسة تاريخ الإصلاح في الإسلام، إذ يقول[253]:" ويجب على هذا الدارس ألا يقتصر على بعض النقول وألا يقتضب العبارات المنقولة عن كتب هذه الشخصيات العظيمة ولا يضن بالألفاظ والكلمات وأن لايمر بها وبمؤلفاتها ومنتجاتها

(249) كروتشة: او كروتشي فيلسوف ايطالي. عمل بالسياسة فكان عضو مجلس الشيوخ ووزير التعليم العام، لكنه اشتهر كفيلسوف من الفلاسفة المثاليين مع اختلاف جوهري مع هيجل، له العديد من المؤلفات من أهمها: فلسفة الروح، وكتاب : التاريخ بوصفه قصة الحرية. (عبد الوهاب الكيالي وكامل زهيري: الموسوعة السياسية، بيروت 1974م، ص437؛ كروتشي، الموسوعة العربية،1455).

(250) رأفت الشيخ : تفسير مسار التاريخ، القاهرة1420هـ، ص186.

(251) رأفت الشيخ: مسار التاريخ، 185،186 ؛ أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، 32،33.

252) ابو الحسن الندوي: مفكر وداعية اسلامي له عشرات المؤلفات العلمية والتاريخية.(ويكيبيدا: ابو الحسن الندوي).

(253) رجال الفكر والدعوة في الإسلام، الكويت1969م ، ص29.

مرا سريعا في دراسته التاريخية، بل يجب أن يعيش في كتبها ومؤلفاتها وأفكارها مدة ويتذوق أدبها وفكرتها ويتنسم طيبها ويحاول أن ينتقل من جوه إلى جو هؤلاء الرجال ومن عصره إلى عصرهم ، حتى يعرفهم على حقيقتهم ويصورهم في حقيقتهم ، ويشعر القارئ أنه انتقل إلى عصرهم وعرفهم معرفة شخصية ، وعاش معهم مدة من الزمن".

كانتور :

كذلك منهج مؤرخ العصور الوسطى نورمان كانتور(254) Norman Cantor لا يبتعد كثيراً عن منهج كولنجوود، حيث أضاف إلى منهج رانكه من وصف ما كان كما كان إلى وصف كيف حدث ما حدث، أو الطريقة التي حدثت بها الواقعة التاريخية. لكن لا يمكن أن نفهم التاريخ إلا من خلال فهم وإدراك درجة وعي الناس بالحوادث العظام التي حسمت مصيرهم، وبالتالي يجب أن نرى وان نحس، ليس فقط بالطبيعة الخارجية للحوادث، بل بمكنونها وطبيعتها الداخلية أيضا. وهذا يعني تأثيرها على فكر من عاصرها، ولا يكفي أن نحدد مراحل الغزوات الجرمانية وأحداث عصر شارلمان، أو أعمال الصليبيين على سبيل المثال، وإنما يجب أن نفهم كيف أثرت هذه الأحداث في وجدان الناس الذين عاشوا أثناءها. وأضاف كانتور إلى ذلك الدعوة إلى بحث العلاقة بين الأفكار وسياقها الاجتماعي الذي ظهرت به هذه الأفكار(255). ويؤخذ على كانتور اعتباره أن الدراسة العلمية للتاريخ لم تبدأ إلا مع الغرب، ولازالت لا توجد

---

(254) مؤرخ كندي من أصل يهودي، ولد عام1929 بكندا وتوفي عام2004م بالولايات الأمريكية، متخصص في العصور الوسطى، امتاز بأسلوبه السهل والقصصي في كتابة التاريخ، حصل على الدكتوراه من جامعة بريستون عام 1957م، وعمل كأستاذ في جامعة بريستون وجامعة كولومبيا وجامعة تل ابيب، له الكثير من المؤلفات من تاريخ العصور الوسطى وحتى القرن العشرين.

(أنظر http://www.nytimes.com/2004/09/21/obituaries/21cantor.html)

(255) كانتور: التاريخ الوسيط،13-19.

لدى الشعوب الأخرى إلا في أضيق الحدود حسب اعتقاده. وهذا تعصب لا يخفى للحضارة الغربية المعاصرة[256].

سايمنتن : منهج القياس التاريخي :

ومن أحدث المناهج العلمية المطورة لدراسة التاريخ في الولايات المتحدة الأمريكية هو منهج القياس التاريخي Historiometry وهو يختلف عن منهج الإحصاء التاريخي، ومنهج التحليل النفسي، حيث يهتم الإحصاء التاريخي باستخدامات علم الاقتصاد، بينما استخدام منهج التحليل النفسي ينصب للدراسات الفردية الخاصة، لكن منهج القياس التاريخي يهدف إلى كشف قوانين التاريخ، التي تمكن من خلالها، أفرادا محددين من صنع التاريخ.

و يمكن القول أن القياس التاريخي هو بمثابة الاتحاد بين القياسات النفسية والإحصاءات التاريخية. ويتكون التحليل الكمي في دراسات القياس التاريخية من أربع خطوات مميزة هي عادة تحديد عينات الوحدات الخاصة بالتحليل الإحصائي واختيارها، والتعريف الإجرائي Operational Definition للمتغيرات الحاسمة، أو الهامة التي ستخضع للفحص، وحساب العلاقات بين هذه المتغيرات، ثم استخدام التحليلات الإحصائية الأكثر تقدماً لاستخراج العلاقات السببية الأكثر احتمالاً في مجموعة البيانات[257].

وعليه يعرف القياس التاريخي أنه العلم الذي يهدف إلى اكتشاف المبادئ الناموسية العامة من خلال تطبيق الأساليب الكمية على قطاعات العينات التاريخية، ومن خلال

---

(256) كانتور: التاريخ الوسيط،16.

(257) سايمنتن، دين كيث: العبقرية والإبداع والقيادة، دراسات في القياس التاريخي، ترجمة شاكر عبد الحميد، عالم المعرفة العدد 167، الكويت أغسطس 1993، ص 22-23.

استخلاص تلك الحقائق المنتظمة من بين ذلك الكم الهائل من الأسماء والتواريخ والأماكن. إن الهدف الأساسي للقياس التاريخي هو التعميم الموضوعي واختزال ذلك العدد الكبير المحير من الحقائق التاريخية، إلى مجموعة أصغر من البيانات المجردة الخاصة بالكيفية التي تتمكن من خلالها فئة خاصة من الأفراد في إعادة تنظيم اتجاه التاريخ الإنساني[(258)].

من أمثلة القوانين التاريخية التي توصلت إليه دراسات علم القياس التاريخي، العلاقة بين الرخاء الاقتصادي والنشاط الديني، حيث كان سوروكن[(259)] Pitirim A.Sorokin (1889-1968م) وهو أول من اشتغل بمنهج القياس التاريخي، اثبت جانب من هذه العلاقة، وتشير دراسات القياس التاريخي، إلى أن عامة الناس تلجأ إلى الكنائس التسلطية في فترات الأزمات الاقتصادية والركود الاقتصادي، بينما في فترات النشاط الاقتصادي والرخاء يقل الإقبال على هذه الكنائس، ويتم الإقبال على الكنائس غير التسلطية.

كما أثبتت دراسات لسايمنتن[(260)] Dean Keith Simonton بموجب هذا المنهج، أن التفتت السياسي، والانقسام إلى كيانات سياسية متباينة مرتبط بمؤشر نمو الإبداع الفكري والثقافي وازدهاره والعكس صحيح.

---

(258) سايمنتن: العبقرية، 47.

(259) سوروكن : عالم اجتماع أمريكي من أصل روسي أسس علم الاجتماع في جامعة هارفرد الأمريكية عام 1930. طرد من الاتحاد السوفيتي لمعارضته للبلشفية ، تخصص في علم الاجتماع الريفي. له العديد من المؤلفات منها : الديناميكية الاجتماعية الثقافية.(أنظر Johnston,B., An Intellectual Biography: Pitirim A.Sorokin, Kansas 1995,pp5ff:)

(260) سايمنتن، دين كيث: أستاذ علم نفس أمريكي معاصر، درس في هارفرد وعمل أستاذا في جامعة ديفيس، له ما يقرب من 340 بحث.(Wikibedia, Dean Keith Simonton).

ويؤكد سايمنتن أن منهج القياس التاريخي يحقق محاور العلم وهي: التفسير، والتنبؤ، والسيطرة أو التحكم. إذ تعبر الدراسة عن قوانين التاريخ بمصطلحات رياضية دقيقة دقة كافية، ولهذا يمكن استخدام هذه المعادلات للقيام ببعض التنبؤات، كما حدث عندما استفاد من معادلة الانحدار المتعدد في التنبؤ بتقديرات العظمة لدى رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية، أو عندما تنبأ بالإنتاجية الإبداعية في حياة الأفراد. وهكذا – حسب زعمه – فإن علم القياس التاريخي قد خطا خطوات واسعة في الاتجاه المؤدي إلى التفسير الكفء والتنبؤ الدقيق.

أما التحكم – من وجهة نظره – فهو صعب المنال، حيث أن قوانين التاريخ هي اتجاهات احتمالية –كما يقول – أكثر منها قوانين، كما أن علم القياس التاريخي هو اصغر عمرا من بقية العلوم الأخرى، أضف إلى ذلك فإن الإنصاف يتطلب ألا نحكم على المستوى المطلق للموضوعية، بل على الزيادة النسبية في المعرفة الموضوعية والمعرفة الدقيقة [261].

---

(261) سايمنتن : العبقرية والإبداع ، 13 وما بعدها . يستخدم هذا العلم في دراسة سلوك ودوافع الزعماء العرب وتوقع تصرفاتهم. انظر على سبيل المثال: Kimhi, S E., Yassir Arafat: Behavioral and Strategic Analysis, Social Behavior and Personality: an international Journal, Vo1.31,No4,2003.

خاتمة:

بظهور مدرسة التحليل النفسي لفرويد تمكن علم النفس من تقديم تفسيرات معينة للأحداث التاريخية، مما ساعد على ظهور ما سمي بالتفسير النفسي للتاريخ، وكان بعض المؤرخين اهتموا كثيرا بالاستعانة بعلم النفس في دراسة التاريخ مثل لامبرخت وكولنجوود وبرجسون في منهج الحدس وكروتشه وكانتور، على اختلافات فيما بينهم.

كان هدف علم النفس منذ بداياته الأولى معرفة دوافع السلوك الإنساني، وهو بهذا يقترب ويتلاقى كثيرا مع هدف علم التاريخ في معرفة لماذا حدثت الواقعة التاريخية. ضمن أهداف دراسة التاريخ المعروفة وهي الإجابة على الأسئلة: ماذا حدث ولماذا وكيف ومتى؟ وللإجابة على هذه الأسئلة يستطيع المؤرخ الاستعانة بمختلف العلوم المساعدة لمعرفة الحقيقة التاريخية. ومن أهم العلوم المساعدة علم النفس الحديث لتقديم تفسير علمي مقبول للأحداث التاريخية، خاصة المتعلقة بالأفراد والزعماء وحتى الجماعات. وعلم النفس بدوره تطور كثيرا في استخدام المناهج العلمية الحديثة لعل من أهمها بالنسبة لدارس التاريخ هو منهج القياس التاريخي الذي جمع بشكل ناجح بين الدراسة النفسية والدراسة التاريخية للوصول إلى المعرفة العلمية الصحيحة وللكشف عن قوانين حركة التاريخ.

تاريخ الحروب الصليبية
على ضوء فلسفة التاريخ

مقدمة

المعنى الحرفي لكلمة فلسفة هو حب الحكمة كما هو معروف[262]، ولكن المعنى الاصطلاحي، أو المعنى المقصود بعلم الفلسفة انه العلم الذي يبحث في ماهية الوجود وماهية المعرفة ومناهجها من خلال النظر العقلي. لكن الفلاسفة يختلفون حتى في تعريف الفلسفة فابن رشد (ت595هـ)[263] يعرفها إنها:" ليست أكثر من النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع فان الموجودات إنما تدل على الصانع لمعرفة صنعتها"[264]. وهو بهذا يقدم تعريف الفيلسوف المسلم الذي يجعل النظر والفكر لأجل معرفة الله عز وجل. ويعرفها ابن حزم قائلا[265]:" ان الفلسفة على الحقيقة انما معناها وثمرتها والغرض المقصود نحوه بتعلمها ليس هو شيئا آخر غير اصلاح النفس بأن تستعمل في دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية الى سلامتها في المعاد".

على أن فلاسفة اليونان يختلفون معه في هذا التعريف، فجل تعريفهم أنها البحث في الموجودات لمعرفة حقائق الأشياء. ويعرفها أفلوطين[266] (ت270م Plotinus أن الغاية من الفلسفة هي الإرشاد إلى الطريق الذي يصل به الإنسان إلى فناء الذات في

---

262) هذا التعريف حسب نظر الفلسفة الرواقية. (عبدالمنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، القاهرة 2000م، ص387).

(263) ابن رشد، محمد بن أحمد أبو الوليد: فقيه وفيلسوف من قرطبة اهتم بفلسفة أرسطو وترجمها إلى العربية ، وزاد عليه زيادات كثيرة، ألف نحو خمسين كتاباً ، منها فصل المقال فيا بين الحكمة والشريعة ن الاتصال ،ومنهاج الأدلة في الأصول وتهافت التهافت في الرد على أبو حامد الغزالي. اتهمه أعدائه بالزندقة والإلحاد، فحرضوا عليه المنصور، ونفاه إلى مراكش، واحرق بعض كتبه ، ثم رضى عنه وأذن له بالعودة إلا انه توفي بمراقش، ونقلت جثته إلى قرطبة.(ابن العماد: شذرات الذهب،367/4؛ الزركلي خير الدين ، الأعلام ،318/5).

(264) عبدالرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، بيروت 1984،ج1ص26.

265) ابن حزم، علي بن احمد: الفصل في الملل والأهواء والنحل، القاهرة ب د،ج1ص79.

(266) أفلوطين فيلسوف أسكندري شهير من العالم القديم و يعد مؤسس الأفلاطونية الحديثة بجانب أستاذه أمونيوس ساكاس.وكانت الأفلاطونية الحديثة لها تأثير كبير في العصور الوسطى أشهر مؤلف له هو كتاب التاسوعات.(عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة،191/1 وما بعدها).

الوحدة الإلهية والى إيجاد التجربة الروحية التي يستطيع الإنسان بواسطتها أن يتحد بالواحد[267].

وبهذا فان الفلسفة هي فهم الأشخاص لقضية الوجود والحياة. ولهذا تختلف الفلسفة حتى بين الأستاذ وتلميذه مثل أفلاطون وأرسطو، لأنها تعتمد على الفهم الشخصي لكل منهم.

وفلسفة التاريخ مهمة بالنسبة للمؤرخ لأنها أداة تساعده على فهم وتفسير حركة التاريخ. وهي ضرورة للخروج من الجزئيات الى الكليات. وبدونها يكون المؤرخ مجرد مدون للأحداث ليس إلا.

على أن محاولات الخروج من الجزئيات إلى الكليات تعد أحد أهم التحديات التي تواجه الباحثين في التخصصات العلمية كافة، وفي مجال علم التاريخ لابد للباحث في هذه الناحية من الاستعانة بفلسفة التاريخ ، أو بنظريات ومدارس تفسير التاريخ.

والمقصود بالفلسفة – في هذه الدراسة– حقيقة المفهوم الكلي أو محاولة الفهم الكلي لهذه الأحداث التاريخية أو النظرة الكلية لتحليل الحروب الصليبية ، وبهذا فإن معالجتنا لفلسفة الحروب الصليبية لن تخرج عن إطار المدارس الفلسفية للتاريخ.

ولكن ما هي المدرسة الفكرية التي تستطيع أن تقدم تفسيراً كلياً مقنعاً لتاريخ الحروب الصليبية،أو ليصبح التساؤل كالتالي: ما هو الفهم الكلي والتفسير الكلي لتاريخ الحروب الصليبية بحسب منظور مدارس الفكر التاريخي أو بحسب منظور مدارس تفسير التاريخ ؟

فكيف نفهم هذه الحروب بالدرس والتحليل ؟ وبالقدرة على الخروج من دراسة الجزئيات إلى الفهم الكلي ؟ وكيف نستفيد من دراستنا لتاريخ الحروب الصليبية ؟

(267) عبدالرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، 196/1.

إن كيفية فهم التاريخ قضيه هامة ، لأنها ترتبط بفهم الإنسان لنفسه وللكون، وهذا مرتبط بما يعتقد من دين أو معتقدات أو حتى لا دين. مهما حاول أن يكون موضوعياً أو لا ذاتياَ في دراسته للتاريخ .

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى إجراء تطبيق عملي لفلسفة التاريخ لتحقيق فهم كلي وأعمق لتاريخ الحروب الصليبية من خلال منظور مدارس التاريخ المختلفة. وعلى ذلك فهدف البحث أيضا تحقيق أعمق وأشمل فهم كلي لقضية تاريخ الحروب الصليبية.

تمهيد:

امتدت الحروب الصليبية لأكثر من ثلاثمائة عام شكلت فترة مهمة من تاريخ المنطقة وأصبحت سمة بارزة من سمات تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب. بدأت بإعلان البابا أوربان الثاني Urban(ت1099م)[268] في الدعوة لها[269]، ثم سرعان ما استجاب الأمراء ثم الملوك في الحملات اللاحقة لهذه الدعوة في توحد تاريخي نادر للشعوب الأوروبية[270]، صادف حالة من الوهن والتمزق في العالم الإسلامي، تمزق شمل

---

(268) البابا اوربان الثاني: من أصول فرنسية ولد سنة 1042 من أسرة ارستقراطية وتدرج في التعليم حتى شغل مناصب دينية متعددة، منها الخدمة لدي البابا جريجيوري السابع، ثم شغل كرسي البابوية من الفترة 1088 إلى 1099م.(للمزيد عنه انظر: محمد محمد مرسي الشيخ: عصر الحروب الصليبية، الإسكندرية 1990م،ص31).

(269) تعددت المصادر الغربية في توثيق الخطبة التي دعا فيها اوربان الى الحروب الصليبية، انظر على سبيل المثال Guibert de Nogent., Historia Quae Dicitur Gesta Dei Per Francos, ed.R.H.C.-H. OCC.,IV, Paris 1879,pp137-140. أنظر أيضا: جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين ، الإسكندرية 1989، الملحق الثاني، ص301-311، وحاشية رقم3.

(270) انظر: الصوري، وليم: تاريخ الحروب الصليبية، الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ترجمة سهيل زكار، دمشق 1990،ج1ص174 وما بعدها.

صراعات سياسية ففقد المسلمون القيادة السياسية الواحدة[271]، ثم انقسامات عنصرية- عرب، كرد، ترك- ومنازعات مذهبية خاصة مع الباطنية، الوضع الذي استفاد منه الصليبيون وتسبب بسقوط إمارات إسلامية وقيام إمارات وممالك صليبية مكانها[272]. لكن هذه الكيانات الصليبية لم تستمر طويلا في الشرق، حتى زالت واحدة تلو الأخرى بفعل عوامل متعددة، كان من أهمها حركة الجهاد الإسلامي، ثم عوامل الوهن والتمزق الداخلي لهذه الكيانات الصليبية في الشرق.[273]

تاريخ الحروب الصليبية ونظرية العناية الإلهية :

من المعلوم أن أهم دافع لسلوك الإنسان وفعله هو فكره ومعتقداته، وفي العصور الوسطى الأوروبية سيطر فكر العناية الإلهية على المسيحيين وعلى غالبية الصليبيين المشاركين في هذه الحروب. ويستطيع المؤرخ أن يسجل ذلك ابتداء من مجمع كليرمونت 1095م وخطاب البابا اوربان الثاني الداعي إلى الحروب الصليبية عندما هتفت الحشود "هكذا أراد الله".[274]

وتجلى تأثير هذا الفكر المحرك لهذه الحشود الضخمة عند المؤرخين الصليبيين المعاصرين. الذين حشدوا تواريخهم بالأحلام والرؤى الدالة على العناية الإلهية الموجهة للحروب الصليبية، وفي قصة الحربة المقدسة في أنطاكية.[275]

---

(271) انظر على سبيل المثال: ابن كثير، عبد الرحمن: البداية والنهاية، بيروت1966، ج12ص157.

(272) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، القاهرة1963،ج1ص110.

(273) انظر على سبيل المثال: رنسمان، ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني، ب د، 1993،ج3ص659.

(274) انظر على سبيل المثال: Robert Le Moine., Historia Iherosolymitano Itinere .ed.R.H .C.-H III, Paris, 1866 ,pp729.CF.

(275) رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية ،172/1 وما بعدها.

وكان القديس سان أوغسطين (ت430م)[276] أول من قال بهذه النظرية في الفكر المسيحي، فإذا كان عالم الطبيعة مظهر لقدرة الله فإن عالم الإنسان مظهرٌ لعنايته، وانتصار المسيحية هو أبرز مظاهر العناية الإلهية. إذ أن حركة التاريخ هي حركة الصراع بين مدينة الله ومدينة الشيطان، حيث النصر وإن طالت مدة الصراع لمدينة الله[277]. وبالتالي فإن الحروب الصليبية بحسب هذه النظرية هي إرادة ربانية، وانتصار الصليبيين وإقامة مملكة بيت المقدس مظهراً من مظاهر العناية الإلهية، لكن هذه النظرية بطبيعة الحال تسقط أمام توالي الأحداث التاريخية حيث سقوط الممالك الصليبية وانتهاء هذا الحلم.

الحروب الصليبية على ضوء نظرية فيكو :

مثل فيكو[278](ت1744م) Vico أول يقظة للغرب في معرفة أهمية فهم وتفسير التاريخ فهما كليا، حيث حاول تفسير حركة التاريخ بالنمط الدوري القائم على العناية الإلهية، فالمجتمع في حالة نمو طبيعي متدرج، يشارك البشر فيه ببطء مطورين أشكالا مشتركة للحياة. وهذا التطور لا يخرج عن ثلاثة أقسام متعاقبة فيما بينها ، القسم الأول دور الآلهة حيث الحكم فيه للرؤساء الدينيين والقسم الثاني هو دور الأبطال حيث يكون العصر مهيمن عليه من قبل أبطال أشداء وتسود الارستقراطية . وهذا هو الدور الذي نشأت فيه الفروسية والحروب الصليبية، والقسم الثالث هو دور البشر

(276) القديس أوغسطين: رجل دين مسيحي، ولد في مقاطعة نوميديا في الجزائر عام354م، ثم انتقل إلى روما ثم ميلانو حيث تأثر بمواعظ القديس امبروزيوس، ولم يلبث أن اعتنق المسيحية بعدما كان مانويا بمساعدة وتأثير من والدته المسيحية مونيكا. له العديد من المؤلفات من أهمها: الاعترافات ومدينة الله وهو في فلسفة التاريخ.(عبد الرحمن بدوي: فلسفة العصور الوسطى، بيروت1997م،ص15 وما بعدها).

(277) أحمد محمد صبحي : في فلسفة التاريخ ، الإسكندرية 2004م، ص 173،172؛ انظر أيضا: موس، هـ. سانت ل.ب : ميلاد العصور الوسطى، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة 1967م،ص36.

(278) فيكو، جيوفاني : فيلسوف ايطالي ولد عام1668م في نابولي، عما أستاذا للبلاغة واللغة، له العديد من المؤلفات منها العلم الجديد في الطبيعة المشتركة للأمم (انظر: احمد صبحي: فلسفة التاريخ،159حاشية رقم1).

الذي تبرز فيه الأنظمة الديمقراطية بعد الملكيات المستبدة[279]. إذن فالحروب الصليبية على ضوء نظرية فيكو هي مظهر من مظاهر دورة تاريخية تسمى عصر الأبطال.

تاريخ الحروب الصليبية على ضوء نظريات التقدم :

سادت في القرن السابع عشر في أوربا نظريات أن التاريخ في حالة تقدم مستمر للعقل والفعل الإنساني، ومن أبرز فلاسفة هذا الفكر فولتير[280] (ت1778م) Voltaire الذي دعا إلى إعادة تقييم التاريخ الأوربي القديم والوسط لتبيان أخطاء الماضي وإمكان تجنبها في المستقبل، فمعيار التقييم لديه سيادة العقل، لذلك فإن أفضل فترات التاريخ حسب نظرته هو تاريخ اليونان القديم والرومان وعصور النهضة ثم عصر التنوير كما سماه.[281] بينما أعتبر العصور الوسطى وحروبها الصليبية عصر تدهور وركود وفضائع مخزية بسبب الباباوات ورجالات الكنيسة، حيث غاب العقل وسادت الخرافة حسب اعتقاده. إذن فهي فترات تاريخية سيطر عليها التعصب والأهواء والأحقاد.إن الله –حسب نظرته– خلق العالم وفقاً لقوانين ثابتة لا علاقة لها بأفعال الإنسان من خير أو شر وأن الله منح العقل ليحسن استخدامه من أجل سعادته وسعادة الآخرين ومن ثم فإن التاريخ لا يسير وفقاً لمفهوم العناية الإلهية لدى اللاهوتيين، وإنما بمقتضى العقل البشري نحو الأفضل والأحسن.[282] ولهذا فالحروب

---

(279) رأفت الشيخ: تفسير مسار التاريخ، القاهرة2000،ص106،105؛ رسل، برتراند: حكمة الغرب، الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ترجمة فؤاد زكريا، الكويت1983م، ج2ص100؛ احمد محمود صبحي: فلسفة التاريخ،165.

(280) فولتير: فيلسوف فرنسي من رواد حركة التنوير ولد في باريس عام1694م، وبسبب مواقفه نفي إلى هولندا ثم حبس في الباستيل، ثم أقام في انجلترا حيث تأثر بديمقراطيتها ودرس فلسفتها، أصبح احد أشهر مؤرخي فرنسا ومفكريها، له العديد من المؤلفات منها: فلسفة التاريخ، تاريخ نشأة المسيحية.(للمزيد انظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، بيروت 1984م، ج2ص201).

(281) أحمد محمود صبحي : فلسفة التاريخ، ص 186

(282) أحمد محمود صبحي : فلسفة التاريخ، ص 185-189.

الصليبية هي إحدى اكبر خطايا الكنيسة بحق الإنسانية وبحق الشعوب الأوروبية، حروب حركتها الخرافة والجشع والأحقاد وغياب العقل.

أما الماركيز كوندرسيه[283] (ت1794م) Condorcet فإنه في قراءته المتفائلة للتاريخ قدم لوحة تمثل تقدم البشر من خلال تسع مراحل تقريباً. وجعل الحروب الصليبية من فترات المرحلة السابعة حيث وأن كانت بسبب التعصب إلا أنها جعلت المساهمين بها يحتكون بالعالم الشرقي وحضاراته وعلومه، مما ساعد في نباهة الفكر الأوروبي ويقظته. أي أن كوندرسيه نظر للحروب الصليبية من جانبها الإيجابي حيث كانت عاملاً مساعداً لنهضة أوروبا .[284]

تاريخ الحروب الصليبية عن ضوء نظرية كانط:

لم يكن لدى أمانويل كانط[285] (ت1804) Immanuel Kant فلسفة خاصة للتاريخ سوى إنها جزء من فلسفته العامة، إلا أن بعض الباحثين رأى أن تفسير كانط للتاريخ أنه يمثل التقاء الفعل الإنساني مع التدبير والعناية الإلهية.[286]

حسب فلسفة كانط أن ما يظهر من أعمال عشوائية فإن للطبيعة– العناية الإلهية – هدف وغاية من ذلك ، ولذلك فإن هدف دراسة التاريخ :" الكشف عن النظام

---

(283) ماري جان أنطوان كوندرسيه: فيلسوف ورياضي فرنسي، ولد عام 1743 سليل أسرة نبيلة، شارك بحماس في الثورة الفرنسية ، إلا انه عارض إعدام لويس السادس عشر، ومن أبرز أفكاره الفلسفية تأثير التربية على النظام السياسي، إضافة إلى فلسفة التقدم.(عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة،350/2).

(284) أحمد محمود صبحي : ص190 وما بعدها ؛ ويدجيري، البان :المذاهب الكبرى في التاريخ ،ترجمة ذوقان قرقوط ، بيروت 1979 ص 202

(285) إيمانويل كانط : فيلسوف ألماني درس اللاهوت ثم الرياضيات والفلسفة والطبيعة، عمل معلما ثم أستاذا في الجامعة ، من أهم مؤلفاته نقد العقل المحض، نقد العقل العملي ميتافيزيقيا الأخلاق وغيرها. اعتبره البعض أعظم فلاسفة العصر الحديث.(للمزيد أنظر: عبدالرحمن بدوي موسوعة الفلسفة،269/2 وما بعدها).

(286) أحمد محمود صبحي : فلسفة التاريخ، 202.

والاطراد الذين يكمنان وراء ما يبدو فوضى".[287] وفي تفسيره للحروب فإن لها وظيفة هي إيجاد أحوال جديدة للمجتمعات والدول فالروح العدائية لدى الإنسان والحسد هي التي تساعده على إظهار قدراته ومحاولاته الدائمة للتطور والتفوق . ولولاها لبقت الاستعدادات الطبيعية في الإنسان خامدة لا تعرف النمو . فالطبيعة –العناية الإلهية– تريد من الإنسان أن يخرج من الركود والتراخي إلى العمل والكفاح.[288] وهذه وظيفة الحروب بشكل عام ومنها الحروب الصليبية. ولعل هذا ما حدث بالفعل ، حيث استفاد الغرب من هذه الحروب الصليبية حيث عرفوا حضارة الشرق، وأخذوا منه ما ساعد في تحقيق نهضتهم العلمية والفكرية.

تاريخ الحروب الصليبية على ضوء نظرية هيجل :

يرى هيجل[289] (ت1831م) Hegel أن كل شيء يتم وفق مخطط مرسوم للحوادث ولا مجال للمصادفة في التاريخ ، ولا يصح تفسير وقائعه بعلل جزئية فهذه ليست إلا أسباب عرضية ظاهرية. فالمطلق متحد بالروح الكلية التي تسري في أرجاء الوجود بما في ذلك تاريخ الإنسان فلا يصبح خارج المطلق شيئاً على الإطلاق.[290]

---

(287) أحمد محمود صبحي : فلسفة التاريخ، 202 وما بعدها.

(288) أحمد محمود صبحي : فلسفة التاريخ ،ص 203؛ أنظر أيضاً ويدجيري : المذاهب الكبرى،216 وما بعدها.

(289) هيجل، جورج فلهلم فردريك: فيلسوف ألماني، ولد عام 1770م ، درس اللاهوت والفلسفة، ثم عمل أستاذاً في جامعة برلين، له عدة مؤلفات منها : المنطق الكبير و موسوعة العلوم الفلسفية. وغيرها. (للمزيد انظر: عبدالرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة،570/2 وما بعدها).

(290) أحمد محمد صبحي : فلسفة التاريخ، ص 205

حيث الروح الكلية تسعى لتحقيق مرحلة الوعي الكامل بحريتها من خلال صراع المتناقضات.[291]

وحركة التاريخ هي حركة صراع المتناقضات في سبيل الكشف الفعلي عن مسار الروح في التاريخ ، ولذلك فإن التفسير الهيجلي للحروب الصليبية لا يخرج عن أن تكون شكلاً من أشكال الديالكتيك- الجدل- أو صراع المتناقضات المستمر الذي يحكم هذا الكون والذي تسيره الروح الكلية أو المطلق، فمثلت الحروب الصليبية الصراع بين الشرق والغرب وبين الإسلام والمسيحية كمتناقضين في تضاد مستمر .

تاريخ الحروب الصليبية على ضوء النظرية الماركسية:

تستند النظرية الماركسية والتي تسمى أيضاً النظرية المادية في تفسير التاريخ على أهمية العامل الاقتصادي وإشباع الحاجات المادية للإنسان وذلك من خلال ما يسمى صراع الطبقات في المجتمع، فحركة التاريخ عبارة عن صراع جدلي ولكن من منظور اقتصادي[292]، ولذلك ترى هذه المدرسة أن دافع الحروب الأساسية هو الدافع الاقتصادي. أي أن دافع الصليبيين كان البحث عن مكاسب اقتصادية وتجارية وهو ما تمثل في سلوك الأمراء والمدن الايطالية، وفي الأحوال الاقتصادية في أوروبا عشية الإعلان عن الحروب الصليبية. كما كان هدفهم التخلص من سوء الأحوال الاقتصادية الحاصلة في جميع أرجاء أوروبا آنذاك، وخاصة فرنسا التي كانت تعاني من مجاعة

(291) أنظر نقد هذه النظرية في : عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي لتاريخ ، بيروت 1975، ص 19 وما بعدها .

(292) رأفت الشيخ: تفسير مسار التاريخ: 167 وما بعدها.

كبيرة.[293] وعلى ذلك قامت الإمارات الصليبية لأسباب اقتصادية وانهارت لأسباب اقتصادية على اعتبار العامل الاقتصادي هو العامل الأهم.

تاريخ الحروب الصليبية على ضوء نظرية توينبي:

توصل توينبي[294] (ت1973م) Arnold Joseph Toynbee إلى ما يسمى بنظرية التحدي والاستجابة بعد دراسة مقارنة للمجتمعات ثم الحضارات ثم الأديان حيث يرجع الحضارات إلى مسببها الفعلي وهو الدين ولكن في ظل بيئة تحدي تحفز استجابة لها، والبيئة المتحدية إما طبيعة أو بشرية وهكذا يكون تاريخ البشرية سلسلة من الين واليانج أو التحدي والاستجابة.

وبذلك فإن قيام الحروب الصليبية كان استجابة الغرب لتحدي الاكتساح السلجوقي الذي تمثلت قمته في معركة مانزكرت وأسر الإمبراطور البيزنطي في صيف عام1071م[295]. والعكس صحيح أيضاً فقيام حركة الجهاد الإسلامي بقيادة عماد الدين زنكي[296] (ت541هـ/1146م) ثم ولده نور الدين محمود[297]

---

(293) انظر على سبيل المثال: سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، القاهرة 1986م، ج1ص426.

(294) ارنولد توينبي: مؤرخ انجليزي ولد عام1889 له العديد من المؤلفات منها تاريخ الحضارة الهلينية ومحاكمة الحضارة وغيرها ، لكن أهمها كتابه : دراسة للتاريخ.(رأفت الشيخ: تفسير مسار التاريخ،193 وما بعدها).

(295) أنظر: السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية،323-1081م، بيروت1982م،ص853.

(296) الاتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة الحاجب آق سنقر: سلطان الدولة الاتابكية والده مؤسس الدولة في الموصل ، قام عماد الدين بحركة جهاد واسعة ضد الوجود الصليبي كان أبرزها تحرير الرها.(أنظر على سبيل المثال: ابن خلكان، احمد بن محمد : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، بيروت1994م، ج2ص327؛ الزركلي: الأعلام،50/3).

(297) نور الدين محمود بن زنكي: سلطان الدولة الاتابكية بعد والده، ولد بحلب وملك الشام وديار الجزيرة ومصر وامتد نفوذه إلى اليمن والحجاز، اشتهر بالعدل وتوقير العلماء وبعمارة المدارس والخانقاوات، وبالجهاد ضد الصليبيين.(للمزيد أنظر: ابوشامة، المقدسي: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية بيروت ب د؛ الزركلي : الأعلام، 170/7).

(ت569هـ/1174م) ثم صلاح الدين الأيوبي (ت589هـ/1193م) كان استجابة العالم الإسلامي لتحدي الغرب الصليبي وهكذا.

تاريخ الحروب الصليبية على نظرية البطل صانع التاريخ

تقوم هذه النظرية على معتقد أن البطل هو صانع التاريخ وهو محرك الأحداث، سواء هو صانع عصره وليس العصر يصنعه، أو هو نتاج ظروف وفعاليات عصره. ولا يكون البطل هنا فقط في السياسة ولكن في كل المجالات البطل كنبي أو البطل كقسيس أو البطل كشاعر.[298]

وعليه فان تاريخ الحروب الصليبية ما هو إلا عظمة رجال وصنعهم، أمثال البابا اوربان الثاني والإمبراطور الكسيوس كومنين من الجانب الصليبي وعماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي من الجانب الإسلامي.

تاريخ الحروب الصليبية على ضوء نظرية ساركار الهندي[299]:

يوجد بحسب هذه النظرية قانون يحكم حركة التاريخ هو قانون الدورات الاجتماعية، فالمجتمع عبارة عن أربع فئات الأولى فئة المفكرين وهم المفكرون ورجال الدين والأطباء والمحامين والأستاذة .. الخ، والفئة الثانية هي فئة تستخدم قوتها البدنية لحل مشاكلها وتحقيق رغباتها مثل العسكر والرياضيين، ثم الفئة التي تسيطر عليهم غريزة جمع المال وهم المتكسبين، والفئة الرابعة هم الفئة التي تفتقر إلى مواهب الفئات الأخرى وهم فئة العمال غير المهرة و المزارعين. وقانون الدورات الاجتماعية يقول إن

(298) أحمد محمد صبحي: فلسفة التاريخ، 71 وما بعدها.

(299) ساركار، براتهات رانجان ساركار: زعيم وفيلسوف معاصر لطائفة هندية تدعى انائدا.

(أنظر: Wikipedia , Prabhat Ranjan Sarkar)

العصور التاريخية عبارة عن تداول بين هذه الفئات الأربع فعصر يسيطر عليه عقلية رجال الدين والمفكرين، وعصر يسيطر عليه العسكر، وعصر يسيطر عليه عقلية المتكسبين، وهكذا. والقرن الحادي عشر و الثاني عشر الأوروبي في العصور الوسطى كان تجسيداً لحكم فئة رجال الدين بالتحالف مع العسكر الذين يمثلون الإقطاع وفرسانه[300]، وبالتالي فإن الحروب الصليبية كانت مظهر ونتيجة لسيطرة عقلية رجال الدين والعسكر على أوروبا والأوروبيين . مما ينتج عنه استخدام الحروب تحت تبرير الدين وتنفيذ العسكر.

تاريخ الحروب الصليبية على ضوء التفسير الإسلامي للتاريخ:

أولا: التفسير الإسلامي للتاريخ بشكل عام:

وهو أن الحروب الصليبية حلقة من حلقات الصراع بين الإيمان والكفر أو بين الخير والشر. كما أنها حلقة من حلقات التدافع والتضاد بين آخر الرسالات السماوية بما تحمله للبشرية من خير وحب وتسامح وبين الكنسية المحرفة التي لم يكن لها من هم سوى تحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب المالية، فلم تتورع عن استخدام صكوك الغفران واللعن والطرد من رحمة الرب وغيرها من العقوبات لكل من لا ينصاع لأوامرها ورغباتها.[301]

---

(300) انظر: باترا، رافي: الكساد الكبير في التسعينات، ترجمة موسى الزعبي، بيروت 1993،ص25-58؛ محمد حسين الصافي: انهيار الرأسمالية، القاهرة 2004م،ص23 وما بعدها.

(301) للمزيد عن التفسير الإسلامي للتاريخ انظر على سبيل المثال: عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ، بيروت 1985.

ثانيا : جلال الدين الرومي أنموذجاً :

يقوم فكر جلال الدين الرومي(ت1273م)[302]على الحب حيث أن الملك العظيم يحب الإنسان ويريد له الخير ويريد له العودة إليه والقرب منه . لكن عندما ينصرف الإنسان عن الله عز وجل إلى الدنيا يصيبه الله بالسراء والضراء لعله يرجع إليه[303]. يقول المولى عز وجل:" وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ" (الانعام42). وقوله عز وجل:" قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ" (الانعام65).

والقراءة التاريخية الفاحصة تكشف أن المسلمين كانوا في حالة صراع على الدنيا وانغماس في الملذات مما تسبب في انحطاط عام. ولأجل تحقيق عودة إلى الله وصحوة عامة سلط الله عليهم الصليبيين. أي مسهم بالبأساء . وبالفعل عندما هزم المسلمون أمام الصليبيين، سرعان ما نشأت مدرسة الغزالي في التزكية والتربية ثم مدرسة الجيلاني في التزكية والتربية حتى ظهر جيل نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وحققا العودة إلى الله عز وجل والانتصار على العدو الخارجي.[304]

---

(302) محمد بن محمد بن حسين بهاء الدين البلخي؛ المعروف بمولانا جلال الدين الرومي. هو أديب وفقيه و صوفي. عرف بالرومي لأنه قضى معظم حياته لدى سلاجقة الروم في تركيا الحالية. انتقل مع أبيه واستقر في قونية في عام 632 هـ / 1226م حيث وجد الحماية والرعاية في كنف الأمير السلجوقي "علاء الدين قبقباذ"، واختير للتدريس في أربع مدارس ب"قونية". يعد من ابرز مفكري الإسلام. ابرز مؤلفاته المثنوي.(للمزيد أنظر:أبو الحسن الندوي : رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، دمشق2002،391 وما بعدهما).

(303) انظر على سبيل المثال : اوقويوجو، جيهان: مولانا جلال الدين الرومي، ترجمة اورخان محمد علي، القاهرة2009م،ص129،130.

(304) انظر على سبيل المثال: ماجد عرسان الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، اربد2003،ص97 وما بعدها.

ثالثا: نظرية ابن خلدون[305] :

ترتكز نظرية ابن خلدون (ت808هـ) -باختصار شديد- على وجود سنن تحكم حركة التاريخ" سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا".(الأحزاب 62) " ، ومن خلال رصد حركة تاريخ الدول وجد أنها تخضع لسنن محددة تمكن من الكشف عنها نتيجة المنهج المقارن الذي اتبعه، إذ تمر القبيلة ذات العصبية القوية من طور مجتمع في حالة البداوة والوحشية، حيث تتغلب على من سواها ثم طور التحضر والتمدن ثم طور الترف والصراع الداخلي ثم الانهيار.[306] ويمكن لنظرية ابن خلدون أن تساعد في فهم جانب من تاريخ الحروب الصليبية، حيث جسدت الشعوب الأوروبية آنذاك طور البداوة والخشونة[307]، وإن كانت تفاصيل حياة هذه الشعوب لا تتماثل مع بداوة العرب مثلاً . واستطاعت هذه الشعوب الأوروبية البدوية أن تكتسح المناطق والمدن الإسلامية التي وصلت إلى درجة متقدمة من التحضر المترف.[308]

---

(305) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد ابوزيد: الفقيه والأصولي والمؤرخ ولد بتونس من أسرة حضرمية اشتهر بالعلم فشغل وظائف حكومية وعلمية في تونس ومصر ، وزار العديد من البلدان والحكام، اعترف بفضله العلماء الغربيون المحدثون.من أشهر مؤلفاته كتاب ديوان العبر وكتاب المبتدأ والخبر، والمقدمة (ابن العماد، عبدالحي الدمشقي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت ب د،ج7ص75؛ الزركلي: الأعلام،330/3).

(306) ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة ، بيروت ب د ، ص138 وما بعدها.

(307) كانت أوروبا آنذاك في مرحلة تشكل سكاني نشيط، حيث استمرت الهجرات السكانية إليها سواء الهجرات الجرمانية أو الأسيوية حتى القرن العاشر الميلادي تقريبا في هجرات وغزوات الفيكنج وهي تمثل شكل من أشكال البداوة والخشونة الشديدة.(انظر: عبد الفتاح سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، القاهرة 1986 ، ج1ص218 وما بعدها). حتى صارت إلى شكلها السكاني الحالي الذي ينقسم إلى ثلاثة أجناس كبيرة تقريباً هم الانجلوسكسون واللاتين والسلاف.

(308) تحولت الدولة الإسلامية إلى طور الترف والتنعم منذ عصر الدولة الأموية، حتى وصل الأمر إلى حد كبير في أواخر عصر الدولة العباسية.(انظر على سبيل المثال: ابن كثير: البداية، 87،132/12).

ثم بقيام الدويلات الصليبية في الشام تحولت هذه القوى إلى طور الاستقرار والتحضر، وسريعاً ما وصلت طور التدهور نتيجة الانغماس في الترف والتنعم(309) ثم الصراع الداخلي، ولعل هذه القراءة صحيحة أيضاً عند تفسير الاكتساح السلجوقي للدولة البيزنطية .

خاتمة:

تعددت مدارس ونظريات تفسير التاريخ ، ولذلك تعددت رؤى فهم حقيقة الحروب الصليبية حسب كل مدرسة فكرية. وفي كل الأحوال فإن الحروب الصليبية شكلت فترة زمنية مهمة وحدثا تاريخيا طال مئات السنين وتأثر بها ملايين البشر، فكانت علامة بارزة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، بل وفي تاريخ الإنسانية بشكل عام. وستظل هدفا لكثير من الأبحاث والدراسات لسبر المزيد من أغوارها وفهم الحقيقة التاريخية ، والاستفادة من دروسها وعبرها.

(309) رنسمان: الحروب الصليبية، 519/2 وما بعدها.

قضية وحدة الوجود
في عصر الأيوبيين والمماليك

(دراسة تاريخية)

إذا كان هيجل من فلاسفة التاريخ

فإن الشيخ محيى الدين بن عربي أستاذ فلاسفة التاريخ

مقدمة

تُعْد دَرَاسَاتُ تَارِيْخِ الْفِكْرِ فَرْعاً مُهِماً مِنَ فُرُوْعِ الْدِّرَاسَاتِ الْتَّارِيْخِيَّةِ الْأَكَادِيْمِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ ، حيث يعتقد البعض أن تاريخ الإنسانية ما هو إلا تاريخ التطور العقلي والفكري للإنسان أو تاريخ الوعي الإنساني (السير نحو الكمال الإنساني). ولعل ذلك يفسر اختلاف الشرائع السماوية حتى وصول الإنسان إلى قمة الوعي في التلقي عن الله عز وجل في الشريعة الإسلامية آخر الرسالات السماوية.

وقضية وحدة الوجود في عصر الأيوبيين والمماليك من القضايا التي شغلت الحياة الفكرية والعقلية للمسلمين منذ ظهور المؤلفات التي نسبت إلى الشيخ محي الدين بن عربي[(310)] (ت 638هـ)، فأصبحت مثار جدل ونقاش ما بين معترض ناقد إلى حد التكفير أو مؤيد مدافع إلى حد التنزيه.

وإشكالية أطروحة وحدة الوجود والردود عليها أنها صدرت عن مناهج معرفة متعددة ، مثل المنهج العقلي الفسلفي أو المنهج الروحي الوجداني. ولهذا كانت متعددة الصيغ والمفاهيم، معقدة الأسلوب، لا تخلو من تناقضات تربك أي باحث يحاول سبر أغوارها. على أن البحث التاريخي يكشف أنه عارضها المحققون من أهل التصوف، ، وذلك بالعبارة البليغة:" إنما التوحيد إفراد القدم عن الحدث" التي أطلقها إمام أهل التصوف الجنيد بن محمد [(311)](ت297 هـ) إزاء ما نسب إلى الحسين بن منصور

(310) ابن العربي، محيي الدين: ولد بمرسية في الأندلس عام 506هـ ،اخذ العلم والتصوف عن جملة من علماء عصره ، ترحل في العالم الإسلامي حتى استقر به المقام في دمشق متوفيا فيها له الكثير من المؤلفات اشهرها الفتوحات المكية. (هناك عشرات المصادر التي ترجمت لابن عربي ، أنظر: المناوي، زين الدين محمد عبدالرؤف: مناقب الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي، تحقيق/محمد إبراهيم الحسني، دمشق2009،ص73 وما بعدها وحاشية رقم 1؛ الزركلي، خير الدين ، الأعلام،ب د ،281/6).

(311) الجنيد بن محمد الخراز البغدادي :أبرز أئمة التصوف وعلماءه حتى لقب بسيد الطائفتين لأنه جمع بين الفقه والتصوف ، عرف بالصلاح والعلم والدعوة إلى الله ، فتخرج بصحبته الكثير في سلوك طريق الله، عاصر الحلاج

الحلاج[312](ت309هـ/922م)؛ إذا كان المقصود عدم التمييز بين القدم والحدوث. كما أن الصوفية بينوا حقيقتها أيضا، ثم عارضها بعض الفقهاء من أصحاب النظر العقلي الذين استخدموا ردود وتبيين الصوفية لها ، وبرؤوا التصوف من هذا الفكر كما سوف نرى.

وفكر وحدة الوجود ليس حصرا على تاريخ الفكر الوسيط، بل هو فكر عالمي قديم ومعاصر. ولهذا كان لابد أن يكون مدخل هذا البحث في فكر وحدة الوجود في تاريخ الفكر الإنساني.

الكلمات المفتاحية: ابن عربي، وحدة الوجود ، التصوف.

أهداف البحث:

يهدف البحث من خلال القراءة التاريخية والفكرية إلى الإجابة على عدة أسئلة تمثل المحاور الأساسية لقضية وحدة الوجود في عصر الأيوبيين والمماليك. منها ما المقصود بوحدة الوجود؟ وما موقف الصوفية والفقهاء منها؟ وما علاقة التصوف بهذا الفكر؟

والشبلي.(أنظر ترجمته : الأصبهاني ، أبو نعيم أحمد بن عبد الله: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء،بيروت 1405هـ ،ج10ص255 ؛ الخطيب البغدادي، أحمد بن علي أبو بكر: تاريخ بغداد ، بيروت ب د، ج7ص241).

(312) الحسين بن منصور الحلاج: تضاربت حوله المصادر يعد تارة من كبار المتعبدين وتارة من الملحدين ، رده أكثر مشايخ التصوف ، وأبو أن يكون له قدم في التصوف، أصله من فارس وتنقل بين مدن العراق وغيرها ، كثرت الوشايات به إلى المقتدر العباسي فسجن وضرب وهو صابر لا يتأوه ولا يستغيث حتى قتل.(أنظر:أبو عبد الرحمن محمد السلمي :طبقات الصوفية، بيروت1998،ص236 ؛ الزركلي، خير الدين: الأعلام ،بيروت 1980،ج2ص260؛ أنظر أيضا: الحلاج،الحسين بن منصور: حقائق التفسير أو خلق خلائق القرآن والاعتبار، تحقيق/ محمود الهندي، القاهرة2006،ص21 وما بعدها). وله أقوال ونصوص ينزه الله عن الحلول والاتحاد كما اتهم.(أنظر: الحلاج: حقائق التفسير أو خلق خلائق القرآن والاعتبار، 140).

أهمية البحث:

قضية وحدة الوجود من القضايا المختلف في فهمها، وتباينت الرؤى والأحكام فيها، فشكلت إشكالية فكرية ومحور صراع في تاريخ الفكر الوسيط، ولهذا من المهم للعقل العلمي العربي والمسلم أن يفهم هذه المسألة الدقيقة فهما واضحا يتضمن فهم المقصود منها ، وما هو الموقف السليم أمامها؟ ويكشف اللثام عنها ويبذل المزيد من الجهد والدراسة والبحث لمعرفة حقيقة هذه الإشكالية سواء من الناحية التاريخية أو الفكرية، و بموضوعية أكاديمية ، خاصة أنها أحد قضايا التكفير بين المسلمين . ومن الجانب الأكاديمي الآخر يساعد فهم وقراءة فكر وحدة الوجود عند ابن عربي إلى فهم أطروحات الفلسفة المثالية في فلسفة التاريخ وخاصة عند هيجل.

الدراسات السابقة:

يوجد العديد من الكتابات عن قضية وحدة الوجود، على أن الباحث لم يقف على دراسة أكاديمية تاريخية فكرية موثقة للموضوع. لكن من الدراسات التي تعتبر ذات قيمة علمية دراسة نصر حامد أبو زيد بعنوان: هكذا تكلم ابن عربي، وهي دراسة تميزت بالتحليل الفلسفي لأهم نصوص ابن عربي وهو كتاب الفتوحات المكية، ولأجل ذلك يؤخذ عليه تمحوره حول مؤلف واحد من المؤلفات العديدة لابن عربي. كما أنه افتقد للجانب التاريخي الشيء الذي أظهر بعض الخلط والاضطراب والأخطاء في تحليل النص نفسه.[313] والدراسة الثانية للباحث محمد الراشد بعنوان: وحدة الوجود من الغزالي[314](ت505هـ) إلى ابن عربي ، وهي وان كانت دراسة بذل فيها جهد

(313) أنظر على سبيل المثال : نصر حامد أبو زيد : هكذا تكلم ابن عربي ، القاهرة2002م،ص26.

(314) محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام: الفقيه المتكلم الصوفي، له الكثير من المؤلفات. مولده ووفاته في الطابران بخراسان رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى

كبير إلا أنه سار منذ بداية البحث على فرضية مسبقة واحدة أن كل هؤلاء قالوا بوحدة الوجود ، وحاول لأجل ذلك تفسير أقوالهم على هذا المنوال، مما افقد الدراسة الموضوعية اللازمة للبحث في مثل هذا الموضوع. والدراسة الثالثة للباحث محمود غراب في تقديمه لمجموع رسائل ابن عربي ، وهي دراسة مفيدة من حيث تحقيقه النقدي لصحة نسبة بعض المؤلفات إلى ابن عربي، ومن أهمها فصوص الحكم. وهو ما سوف ندرسه في هذا البحث.

منهج البحث :

يتركز البحث على الإجابة عن الأسئلة الموضوعة كهدف للبحث ، والتي شكلت إشكالية فكرية وتاريخية. متبعاً منهج الوصف التحليلي المقارن ، مع استخدام النصوص-قدر الإمكان- كما هي لتحقيق أكبر قدر من الإيضاح ، ولتجنب تحوير الفكرة المقصود توضيحها في هذا الموضوع الشائك . وتعزيزاً للصفة الموضوعية للبحث. كما أن البحث سيركز على العنوان التخصصي وهو قضية وحدة الوجود، ولأهمية البحث وأهمية تقديم صورة متكاملة لهذه القضية فإن البحث سيقدم بعض مواقف العلماء بعد فترة الأيوبيين والمماليك.

الأوضاع الفكرية العامة في عصر الأيوبيين والمماليك:

ميز الحياة الفكرية والعلمية في تاريخ المسلمين بشكل عام وتاريخ الأيوبيين والمماليك بشكل خاص التنافس والتضاد في ثلاثة مجالات علمية هي: علم الفقه فكانت المذاهب الفقهية المتعددة والاختلافات والدفاعات والمطولات العلمية من

بلدته.من أشهر مؤلفاته: إحياء علوم الدين.(للمزيد أنظر: أبو الحسن الندوي: رجال الفكر والدعوة في الإسلام،دمشق2002،ج1ص257 وما بعدها).

الشروح والمتون وغيرها. وعلم الكلام فقامت الفرق الكلامية بأطروحاتها المختلفة، وعلم التصوف والعرفان في قضية وحدة الوجود. مما أثمر معه هذه الثروة العلمية والفكرية الهائلة التي ورثناها عن الحضارة العربية الإسلامية. وإذا كانت الحياة العلمية ازدهرت ازدهاراً كبيراً في عصر الأيوبيين والمماليك في كل مجالات العصر آنذاك[315]، إلا أن قضية وحدة الوجود برزت بشكل كبير وأخذت بلورتها الفلسفية النهائية في عصر الأيوبيين والمماليك، مع استمرار التنافس والتضاد في المجالات الأخرى أيضا. كما استمرت آثار المجالات العلمية الثلاثة حتى وقتنا الحاضر. وهو ما سوف نلاحظه في استمرار قضية وحدة الوجود إلى ما بعد عصر الأيوبيين والمماليك.

وحدة الوجود في تاريخ الفكر الإنساني:

صدر فكر وحدة الوجود عن حالتين إما نتيجة تأمل فلسفي عقلاني ، أو عن تجربة روحية عميقة تأثر بها صاحبها . ولذلك هي أطروحة تاريخية عالمية لا حدود جغرافية لها أو زمنية أو حتى عقائدية، سواء في الشرق أو الغرب ، في التاريخ القديم أو الحديث. طبعاً مع اختلاف وتباين أو تطابق بين هذه الأفكار[316]. وهو ما يمثل وحدة الإنسان وتشابه تجاربه الروحية والفكرية.

ظهر هذا القول في التاريخ الهندي القديم وخاصة في منهج الفيدا المعرفي[317]. حيث يتابع الإنسان طريقة في المعرفة للغوص في أعماق الوجود ، إلى أن يصل إدراكه

(315) للمزيد عن الحياة العلمية في عصر الأيوبيين والمماليك أنظر على سبيل المثال: سعيد عبدالفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة 1996،ص 139-321،146-328.

(316) ستيس، ولتر : التصوف والفلسفة ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، القاهرة1999،ص276،

(317) فيدا تعني المعرفة ، و الفيدا اسم عام يطلق على الكتب المقدسة القديمة للمعتقدات الهندوسية .تحتوي الفيدا على الأساسيات المذهبية التي تُعنى بالآلهة الهندوسية. وتقدم هذه الكتب كذلك أفكارًا فلسفية عن طبيعة البرهمي، والمعتقدات الهندوسية. للمزيد أنظر:(Bloomfield, M., The religion of the Veda: the ancient religion of India, London 2005,p17ff)

إلى المستوى الذي منه تبدأ الطاقة الإلهية في الظهور في الوجود – حسب قولهم – فيذوب الإنسان في العشق الإلهي نتيجة هذه التجربة.(318)

وعلى اختلاف المنهج برز فكر وحدة الوجود في الفلسفة اليونانية كنتيجة لفكر فلسفي،أمثال هراقليطس (319) Heracleitus (ت535م) –وحدة وجود مادية– ، كما كانت وحدة الوجود صريحة في المذهب الرواقي(320) وظهر في كتاب برميندس لأفلاطون(321). على أنه من المرجح أن أفلاطون توصل إلى ذلك نتيجة المنهج الروحي الاشراقي. إذ كان يتبع المنهجين العقلي والاشراقي في تعليم طلابه(322). وبشكل عام كان الفكر الفلسفي اليوناني يتقبل القول بوحدة الوجود التي يكون فيها الله–عز وجل – هو العالم، حيث لم يكن باستطاعتهم التصور أن الله خلق العالم من لاشيء.(323)

---

(318) http://alishraq.net/wisdom/ch102.htm ؛ أنظر أيضا:البيروني، أبو الريحان محمد : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، القاهرة2003، ص30،24؛ ويدجيري، البان ج: المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفوشيوس إلى توينبي، ترجمة ترجمة ذوقان قرقوط، بيروت 1979،ص69 وما بعدها.

(319) هيراقليطس: فيلسوف يوناني قديم من مدينة افسوس من نظريته أن قوام العالم الحقيقي هو التآلف المتوازن بين الأضداد، ووفقا لمقادير محسوبة يكمن انسجام خفي أو تناغم هو جوهر العالم.(انظر:رسل، برتراند: حكمة الغرب ، ترجمة فؤاد زكريا،الكويت1983، ج1ص46 وما بعدها).

(320) أسس المذهب الرواقي على يد فينيقي قبرصي يدعى زينون في النصف الثاني من القرن الرابع ق .م.تتركز فلسفة الرواقية على الأخلاق والفضائل (انظر:رسل، حكمة الغرب،210/1 وما بعدها).

(321) أنظر: Cooper, j., Panentheism ,the other god of the philosophers: from Plato to the present, New York , 2006, p1ff; Harrison, p., Elements of pantheism, Oxford,1999,p.5,ff.

لم يظهر مصطلح وحدة الوجود pantheism في الغرب إلا في عام 1705م على يد الكاتب الايرلندي جون تولاند toland (Britannica, pantheism) وتعرف قواميس اللغة الانجليزية هذه الكلمة أنها الاعتقاد أن الله و العالم المادي نفس الشيء أو الاعتقاد في كل أو عديد من الآلهة (أنظر: Encarta Dictionary, Pantheism).

(322) عبد الحليم محمود : التفكير الفلسفي في الإسلام ،القاهرة 2006،ص 136 ، 137.

(323) رسل، برتراند: حكمة الغرب، 252/1،251.

أما في العصر الحديث فبرز عدة فلاسفة مثل الفيلسوف سبينوزا Spinoza[324] (ت 1677م) وشيلر Scheler[325] (ت1928م). وهؤلاء عندهم وحدة الوجود أن الله –سبحانه وتعالى عما يصفون– والكون واحد. وهي لهذا يمكن تعريفها أنها وحدة وجود حلولية[326]. وهو نفس ما ذهب إليه بعض الفلاسفة المسيحيين القائلين إن الله هو الكل في الكل. وإن الإله يحتوي الطبيعة كلها . فهي هو وإليه مرجع كل شيء.[327]

على أنه كذلك واجه فكر وحدة الوجود في أوروبا انتقادات بعض الفلاسفة أمثال شوبنهور[328] Schopenhauer(ت1860م) حيث اعتبر الله –عز وجل– غير المشخص ليس بإله، بل هو تعبير مؤدب لكلمة إلحاد. ثم إن وحدة الوجود بهذا المعنى تتنافى مع الكمال الواجب لله ، إذ لا يليق ظهوره في هذا العالم الفاسد وفي شخص الملايين التعسة المعذبة ، وأخيرا فإن الأخلاق لن يكون لها مبرر داخل مذهب وحدة

(324) سبينوزا: فيلسوف هولندي ولد بأمستردام من أسرة يهودية إلا أنه طرد من الكنيس اليهودي بسبب أفكاره، عاش في عزلة مطلقة، توصل إلى فكرة وحدة الوجود من خلال معادلة في المنطق الاستنباطي، من أهم كتبه: الأخلاق.(أنظر: رسل، برتراند: حكمة الغرب، الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، ترجمة فؤاد زكريا ،الكويت1983، ج2ص76وما بعدها).

(325) شيلر ، ماكس: فيلسوف ألماني ولد بميونخ1874،عمل أستاذا في جامعة ميونخ ثم أستاذا للفلسفة وعلم الاجتماع في جامعة كولونيا. له العديد من المؤلفات منها: وجهات نظر فلسفية.
Max Scheler: Phenomenology (philosophy), Ethics, Philosophical, London, (2009,pp6ff)
Stevenson J.,The Complete Idiot's Guide to Philosophy,London,2003,p146.

(326) رسل، برتراند : حكمة الغرب ،2 /81-83 ؛ عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة،بيروت 1984م ،ج1 ص139،138.

(327) أنظر : عبد الرحمن بدوي : فلسفة العصور الوسطى،بيروت 1979 ،85،51 وما بعدها ؛ رسل، برتراند : حكمة الغرب ،276/1.

(328) شبنهور: فيلسوف ألماني من عائلة ارستقراطية تأثر بكانط ثم بالاوبنشاد الهندية، عمل مدة أستاذا في جامعة برلين. (للمزيد أنظر: Zimmern, H., Arthur Schopenhauer, New York 2009)

الوجود.وهذا النقد لمفهوم وحدة الوجود الأوروبية التي تقول أن الله –سبحانه– والطبيعة واحد. ورغم ذلك فإن شوبنهور يقول بوحدة الوجود من مفهوم وحدة الإرادة. [329]

لكن لابد من توضيح أن المعرفة الاشراقية الأوروبية يختلف عن أطروحات الفكر الفلسفي الأوربي اختلافاً جوهرياً من حيث أنها تنكر عليهم قولهم أن الله والطبيعة شيء واحد. [330]

وحدة الوجود في تاريخ الفكر الإسلامي:

ظهر فكر وحدة الوجود في تاريخ الفكر الإسلامي من بعض ممن ينتسبون إلى التصوف، و التصوف علم تزكية النفس للوصول بها إلى مقام الإحسان[331]، ومن أهم وسائل تزكية النفس وتحقيق السلوك الروحي المراد هو المجاهدة من الصيام وقيام الليل والخلوة والاعتكاف والذكر لله عز وجل على منهج النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا يؤدي كما بين ابن خلدون[332](ت808هـ) إلى كشف حجاب الحس إذ أن

---

(329) عبد الرحمن بدوي : موسوعة الفلسفية ،34/2.

(330) أنظر على سبيل المثال: عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة،201/1؛ ظهر حديثا كثير من المؤلفات الغربية حول فكرة وحدة الوجود من منظور مختلف مثل ما طرحه الأمريكي وين داير . انظر: داير، وين دبليو: سوف تراه عندما تؤمن به، الرياض 2011م، ص103 وما بعدها).

(331) انظر: السراج، أبي نصر عبد الله بن علي: اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي، بيروت 1421هـ/ 2001م، ص 11- 17، 327 ، 324 ؛ انظر أيضاً: ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة، 469 ؛ الأصفهاني ، أبو نعيم: الأربعون على مذهب المحققين من الصوفية، ب د ، ص1؛ أبو الحسن علي الندوي: ربانية لا رهبانية،بيروت1998م،ص33 وما بعده

(332) ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد ابوزيد: الفقيه والأصولي والمؤرخ ولد بتونس من أسرة حضرمية اشتهر بالعلم فشغل وظائف حكومية وعلمية في تونس ومصر ، وزار العديد من البلدان والحكام، اعترف بفضله العلماء الغربيون المحدثون.من أشهر مؤلفاته كتاب ديوان العبر وكتاب المبتدأ والخبر، والمقدمة (ابن العماد، عبدالحي الدمشقي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت ب د،ج7ص75؛ الزركلي: الأعلام،330/3).

المجاهدة والخلوة والذكر يتبعهما غالباً كشف حجاب الحس، والاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها و الروح من تلك العوالم، كما أنه وضح أن الكشف لا يكون صحيحاً كاملاً عندهم إلا إذا كان ناشئاً عن الاستقامة.[(333)]

على أن هذا السلوك الروحي الذي تحدث عنه ابن خلدون والشوكاني (ت1250هـ)[(334)]، وقبلهم الإمام الغزالي وغيرهم من المسلمين ينقسم إلى مراتب عدة ومقامات متباينة كل على حسب استعداده في الترقي وقدرته على ذلك[(335)]. إذ " تتنوع تنزلات الغيوب ، بتنوع استعدادات القلوب"[(336)]. ولأجل ذلك اختلفت الصيغ التي عبرت عن هذه التجارب الروحية كما سيأتي تفصيل ذلك.

---

(333) ابن خلدون ، عبد الرحمن : المقدمة ، ب د ، ص 467 ، 475 ؛ أنظر أيضاً الغزالي،أبو حامد محمد ، إحياء علوم الدين ،بيروت ب د، ج3ص25؛ عبد الحليم محمود : التفكير الفلسفي في الإسلام ،134.

(334) الفتح الرباني ، صنعاء ،ب د ،ج 2ص1048-1052. الشوكاني: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله: فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء.ولد بهجرة شوكان من بلاد خولان، ونشأ بصنعاء . وولي قضاءها سنة 1229 ومات حاكما بها. وكان يرى تحريم التقليد لمن وصل إلى درجة الاجتهاد.له العديد من المؤلفات المشهورة.(الزركلي : الأعلام،298/2). كان موقف القاضي محمد بن علي الشوكاني ، في أول حياته العلمية مضاد لابن عربي وأصحابه ، ثم تاب عن ذلك مفتيا بحرمة تكفير ابن عربي، يقول :" وأنا الآن أتوقف في حال هؤلاء وأتبرأ من كل ما كان من أقوالهم وأفعالهم مخالفا لهذه الشريعة البيضاء الواضحة التي ليلها كنهارها ولم يتعبدني الله بتكفير من صار في ظاهر أمره من أهل الإسلام ".(أنظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ،ب د ،ج2ص31 وما بعدها) .

(335) صديق بن حسن القنوجي: أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم،بيروت1979م، ج1ص400.

(336) ابن عربي ، محيي الدين : تنزل الأملاك من عالم الأرواح إلى عالم الأفلاك،وضع حواشيه: عبد الوارث محمد علي ،بيروت 2000م،ص16.

التضارب حول ابن عربي :

ظهر الشيخ محي الدين بن عربي في عصر ازدهار الفكر والحضارة الإسلامية كما يعتقد ذلك بعض الباحثين[337]، حيث كان التصوف والصوفية يؤديان أدواراً مهمة في المجتمع والدولة، سواء في التربية والتعليم أو في الجهاد ضد الصليبيين.[338] بدءاً من السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي كان مرتبطاً ارتباطاً كاملاً بالصوفية والتصوف، فكان يحضر بنفسه عند مشايخهم[339]، ويتبرك بهم[340]، كما كان يستدعيهم إليه ليحضر مجالس السماع[341]، وهو من انشأ لهم أول خانقاه في مصر بعد إسقاط

(337) ذهب نيكلسون إلى أن ابن عربي اثر في النهضة الأوروبية تأثيرا قويا. وأن دانتي الاجيري تتلمذ له في النهج والأسلوب وفي الصور والأمثال والاصطلاحات والأساليب الفنية.(أنظر: عبده الشمالي:دراسات في تاريخ الفلسفة العربية، 592 ؛ محمود قاسم : أصول الرومانتيكية عند محيي الدين بن عربي ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ،المجلد السادس عشر ،1971،ص21 وما بعدها؛ أنظر ايضا: عبدالقادر احمد اليوسف: العصور الوسطى الأوروبية،بيروت1967م،ص356،357). وذهب آخرون أن المرجح أن هيجل أيضا تأثر به لكثرة نقاط الالتقاء بين فكر ابن عربي وفلسفة هيجل المثالية(http://www.maaber.org/ibn_arabi/ibnarabi_3.htm) أما أسين بلاثيوس فيذهب إلى أن ابن عربي كان صدى للمسيحية والأفلاطونية المحدثة وهو ما أنتقده عبد الرحمن بدوي، (أنظر:بلاثيوس،أسين:ابن عربي، حياته ومذهبه،ترجمة عبد الرحمن بدوي، القاهرة1965،ص98 ، 117وما بعده)؛ وقد حضا ابن عربي باهتمام ودراسة كبار الباحثين الغربيين(أنظر على سبيل المثال: هدى المطاوعة: محيي الدين ابن عربي: ميراث الأمة المنسي،مجلة نزوى، مسقط، العدد الأربعون،أكتوبر2004،ص58 وما بعدها).على أن هذا الاهتمام لم يخلُ من النظر إلى فكره من زاوية الثالوث المسيحي(أنظر: Shahzad, Qaiser, Accommodating Trinity, A Brief Note on Ibn Arabi's Views, Journal of Ecumenical Studies, Vol.48,No.1,Winter 2013.)

(338) أنظر على سبيل المثال:اسعد الخطيب: البطولة والفداء عند الصوفية ،بيروت ب د،ص87 وما بعدها.

(339) أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي : الروضتين في أخبار الدولتين، النورية والصلاحية، القاهرة ب د ، ص281.

(340) أنظر على سبيل المثال: ابن شداد، أبو المحاسن يوسف بن رافع: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ب د ،ص133.

(341) ابن شداد: النوادر السلطانية، 36.

الدولة الفاطمية[342]. كذلك كان الصوفية مشاركين مع صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين حتى قيل انه لم يتخلف منهم احد.[343]

كل ذلك ساعد على تحقيق شهرة ومكانة مرموقة لابن عربي ومؤلفاته في هذا العصر، لكن هذه المؤلفات سببت انقسام الأقدمون والمعاصرين حوله وحول المؤلفات التي نسبت إليه . ورغم أنه لم يستخدم على الإطلاق في مؤلفاته مصطلح وحدة الوجود ، إلا أن عبارات مثل[344]:" فسبحان من أظهر الأشياء وهو عينها". وقوله [345]:" اعلم إنه كما إن الروح روح لبدنه ، فكذلك الحق تعالى روح للعالم ، وكما أن الروح يدبر بدنه بقواه ، فكذلك الحق تعالى يدبر العالم بأسمائه وصفاته ، وكما أن الروح ليس بحال في البدن ولا متحد به ، فكذلك الحق تعالى ليس بحال في العالم."

وهو مع هذه النصوص المنسوبة إليه والتي كثيرا ما تنقل مبتورة من سياقها الكلامي، ينزه الخالق تنزيها مطلقا إذ يقول[346] :" فلا يجتمع الخلق والحق أبدا في وجه من الوجوه فالعبد عبد لنفسه والرب رب لنفسه". على أنه يوضح العلاقة بين الحق والخلق فيقول[347] :" ما في الوجود إلا الله ونحن وإن كنا موجودين فإنما كان وجودنا به وما كان وجوده بغيره فهو في حكم العدم". ويستشهد بقول النبي صلى الله عليه وسلم

---

(342) المقريزي ، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية ، ب د.ج3ص178.

(343) ابن الوردي، ابو حفص عمر بن مظفر: تتمة المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي، بيروت ب د ،ج2ص95.

(344) الفتوحات المكية ،ب د ،ج4ص136.

(345) المسائل لإيضاح المسائل ، تحقيق / قاسم محمد عباس ، عمان 1999م ، ص123؛ انظر أيضا: الإسفار عن رسالة الأنوار فيما يتجلى لأهل الذكر من الأنوار،ب د ،ص10.

(346) الفتوحات المكية ،377/3.

(347) الفتوحات المكية ، 1/ 279.

[348]:"أصدق بيت قالته العرب ألا كل شيء ما خلا الله باطل". كما أنه يقر باختلاف المحدث (الإنسان) عن القديم (الرب). يقول[349]:"فاستدللنا بنا عليه فما وصفناه بوصف إلا كنا نحن ذلك الوصف إلا الوجوب الخاص الذاتي".

والحقيقة أن تناقض العبارات أهم إشكالات نصوص ابن عربي بل إنه من الصعب الإلمام حتى بالمحاور الكبرى لتراث الشيخ محي الدين بن عربي. فمؤلَّفاته من الكثرة بحيث يصعب فحصها بحثيا[350]، كما أن نصوصه شديدة التعقيد، بحيث لا تسهل كثيرًا للفهم الواضح، في بعض الأحيان على الأقل، فإن منهجه مركَّب من عناصر شديدة الاختلاف والتنوع؛ ومما يزيد الأمر تعقيدًا أن ابن عربي ربما قصد مسبقاً أن يفرق مذهبه الفكري داخل كتبه، ولاسيما داخل الفتوحات المكية، مع ما يحتويه من كثرة الموضوعات والأفكار والصور والمفاهيم.[351] ولهذا تعرض ابن عربي لكثير من الاتهام و سوء الفهم لكلامه أو سوء تفسير، مع أنه وصفَ من يقول بالحلول بجهل الحقائق فقال[352]" إن الله لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء، إذ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير". وقال" [353]أنت أنت وهو هو فاحذر أن تقول كما يقول العاشق أنا من أهوى ومن أهوى أَنا .. فَفرِّق واعتقد الفرقان تكُن من أهل البرهان، لا بل من أهل الكشف والعيان. قد علمت أن ثم غطاء يكشف وقد آمنت به فلا تغالط

(348) أخرجه البخاري برقم 6008 ومسلم برقم 4188 واحمد برقم 7079 بلفظ قاله الشاعر ورواه البيهقي بلفظ قالته العرب .

(349) فصوص الحكم، تحقيق/ نواف الجراح، بيروت2005،ص18،19.

(350) أنظر: الفتوحات المكية ، تحقيق عبد العزيز سلطان المنصوب، ب د 2010،ج1ص32.

(351) أنظر: الفتوحات، ب د،11/1؛
http://www.maaber.org/ibn_arabi/ibnarabi_3.htm

(352) الفتوحات المكية، 2/4.

(353) الفتوحات، 401/4.

نفسك بأن تقول أَنا هوَ وهو أنا". وهو في أطروحاته يتبع منهج دحض قدرة العقل على المعرفة الصحيحة بالله، ومعليا من شأن المعرفة القلبية[354]. وربما هذه هي الرسالة الأساسية التي أراد أن يقولها ابن عربي. وهي أهمية المعرفة القلبية وتقديمها على المعرفة العقلية.

على أن القائلين بوحدة الوجود من الصوفية المسلمين بعد ابن عربي أو المعاصرون له، انقسموا إلى قسمين تقريبا. الأول ذهبوا إلى القول بالوحدة المطلقة، أمثال عبد الحق بن سبعين[355](ت669هـ) حيث اسقط النسب التي قال بها ابن عربي، واعتبر كل ما عقل أو أحس فهو وجود ومرتبة، فالعقل مرتبة والحس مرتبة والمراتب زائلة والوجود ثابت والثابت حق والزائل وهم وباطل. وان لا فرق بين الوجود المقيد والوجود المطلق، وهو بهذا يختلف عن ابن عربي الذي قال بوجود الممكنات. ويذهب إلى أن الحق هو صورة كل موجود، حيث لا حقيقة لشئ إلا بالحق ولا وجود إلا منه. مفسرا ذلك بالقول بنظرية الفيض[356] ، وهي النظرية التي سبق للإمام الغزالي رفضها وانتقادها. على أن ابن سبعين كان عادلا عندما اعترف بالفرق بين الصوفي وبين القائل بوحدة الوجود، مفرقا بين التصوف وبين ما أسماه التحقيق، وهو القول بالوحدة المطلقة حسب مذهبه، ولم يكتف بذلك بل انتقد جميع أهل التصوف السابقين له.

---

(354) الفتوحات المكية ،72/1 ؛ فصوص الحكم ، 15.

(355) ابن سبعين،عبد الحق بن إبراهيم : فقيه متصوف غلب عليه التفلسف، ولد بالأندلس سنة 614 هـ ثم سافر للمغرب ومصر والحجاز ومات بمكة. اختلف الناس في أمره ما بين ناقد ومادح. له العديد من المصنفات. (للمزيد أنظر: أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق / إحسان عباس،بيروت 1388هـ، ج2،ص196 وما بعدها ؛ المناوي، زين الدين محمد بن عبد الرؤوف: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، بيروت2008م، ج2ص108.).

(356) أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: ابن سبعين وفلسفته الصوفية، بيروت1973،ص198 وما بعدها.

ولهذا لم يكن ابن سبعين مقبولا عند الصوفية.[357] إلا انه رغم أفكاره هذه كان يقدم الشريعة وإتباعها على الحقيقة ويوصي مريديه بذلك.[358]

والقسم الثاني شرح المقصود من وحدة الوجود عند ابن عربي أنها لا تعني وحدة الخالق والمخلوق. ومن هؤلاء عبد الغني النابلسي [359](ت 1143هـ) - ظهر بعد عصر الأيوبيين والمماليك- الذي يقول[360]:"اعلم بأنك إذا سمعتنا نقول إن الوجود هو الله تعالى فلا تظن أننا نريد بذلك أن الموجودات هي الله تعالى؛ سواء كانت الموجودات محسوسات أو معقولات، إنما نريد بذلك أن الوجود الذي قامت به الموجودات هو الله تعالى". وهو يهاجم الفهم الخاطئ لقضية وحدة الوجود، معتبراً أن من يقول أن الوجود الحق هو جميع المخلوقات و المخلوقين زندقة والحاد. والفرق بين الوجود والموجود أمر لازم متعين ، فالموجودات كثيرة مختلفة والوجود واحد لا يتعدد ولا يختلف في نفسه، وهو حقيقة واحدة لا تنقسم ولا تتجزأ، ولا تتعدد بتعدد الموجودات، والوجود أصل والموجودات تابعة له ، صادرة عنه ، قائمة به، وهو المتحكم بها بما يشاء من التغيير والتبديل.[361] وعلى ذلك يمكن فهم عبارة ابن عربي:"سبحان الذي أظهر الأشياء وهو عينها" ليس معناه أن الله عز وجل هو الأشياء ، بل المقصود فيه أن الأشياء ممكن الوجود وعينها واجب الوجود ، ولا وجود حقيقي إلا بواجب الوجود،

---

(357) التفتازاني: ابن سبعين ،162.

(358) أنظر: أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: المدرسة الشوذية في التصوف الأندلسي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الثالث والعشرون ، مدريد1985،ص178.

(359) عبد الغني النابلسي الدمشقي : عالم وأديب ولد عام1050هـ بدمشق ثم ترحل إلى بغداد وفلسطين ومصر والحجاز ثم عاد إلى دمشق، له العديد من المؤلفات، منها شرحا لكتاب فصوص الحكم لابن عربي(للمزيد أنظر: محمد أحمد درنيقة: الطريقة النقشبندية وأعلامها، بيروت2009م،ص144 -153؛ الزركلي، خير الدين : الأعلام،بيروت1980، ج4ص32)

(360) كتاب الوجود، تحقيق/ السيد يوسف أحمد، بيروت 2003م،ص19.

(361) النابلسي: كتاب الوجود،24،21 ،28.

وعلى ذلك معناها حسب منطق ابن عربي: سبحان الذي اظهر الممكنات وهو واجب وجودها.

والجدير بالذكر أن ابن عربي فرق بين واجب الوجود وممكن الوجود تفريقاً واضحاً ، يقول[362]:" أنى للمقيد بمعرفة المطلق وذاته لا تقتضيه وكيف يمكن أن يصل الممكن إلى معرفة الواجب بالذات وما من وجه للممكن إلا ويجوز عليه العدم والدثور والافتقار فلو جمع بين الواجب بذاته وبين الممكن وجه لجاز على الواجب ما جاز على الممكن من ذلك الوجه من الدثور والافتقار وهذا في حق الواجب محال فإثبات وجه جامع بين الواجب والممكن محال". ويفرق بين القديم والمحدث ، يقول[363]:" وإلا فأي نسبة بين المحدث والقديم أم كيف يشبه من لا يقبل المثل من يقبل المثل هذا محال". وهذا وإن كان من الإشكاليات الفكرية التي يقع فيها قارئ ابن عربي ، لأنه يقول أن الأسماء والصفات ليست أعيان زائدة عن الذات ، إلا أنه يوضح الفرق بين ابن عربي و وحدة الوجود الأوروبية الفلسفية التي لا تفرق بين الله والطبيعة أو الله والكون.

موقف بعض الفقهاء من ابن عربي:

لم تحفظ المصادر التاريخية تدخلاً من الحكام الأيوبيين والمماليك في هذه القضية، مما أعطى الحرية الفكرية الكاملة للمشاركة في هذا الخلاف سواء للمؤيد أو المعارض. ولعل أبرز من حاول تفسير كلام ابن عربي الوجداني بموجب منهج النظر العقلي هو الشيخ ابن تيمية[364] (ت728هـ) وذلك بحكم المسافة الزمنية القريبة بينهما، إذ فسر

---

(362) الفتوحات المكية ،3/1.

(363) الفتوحات المكية،70/1.

(364) ابن تيمية، احمد بن عبد الحليم الحراني: الإمام والفقيه والمفسر، ولد بحران سنة 661هـ وعاش في دمشق ومصر ، حبس في مصر بسبب فتاوى له ثم أطلق ثم حبس في دمشق وتوفي في السجن، له الكثير من المؤلفات.(ابن

بنفس المفهوم الفلسفي أن وحدة الوجود تعني وحدة الموجود، وأن الله سبحانه وتعالى هو و المخلوقات شيء واحد . حيث أن وجود الكائنات هي عين وجود الله (تعالى الله) . ويعترف ابن تيمية أن هذا التفسير أندهش له الصوفية عندما سمعوه من ابن تيمية لأنهم لم يفهموا من هذه العبارات هذا الفهم.[365] إذ أنهم يفرقون بين واجب الوجود وممكن الوجود.

على أن ابن تيمية اعتمد أيضا على ما قاله الصوفية أنفسهم في الرد على أمثال هذه الأقوال، مثل الإمام الجنيد الذي قال[366] " إنما التوحيد إفراد القدم عن الحدث".[367] ولكن يلاحظ أن ابن تيمية أورد هذه العبارة مقلوبة، إذ ذكر أن الجنيد قال : التوحيد إفراد الحدث عن القدم " وكرر قلب هذه العبارة طيلة فتاويه . الشيء الذي يبعث على التساؤل حول فهم ابن تيمية لهذه المسألة أصلا . إذ أن الحدث لا يفرد لأنه متكثر والإفراد للقديم أي للمولى عز وجل[368]. على أن أهل التصوف كان

حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر آباد 1972م،ج1ص168؛ الزركلي: الأعلام، 144/1).

(365) أنظر : ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم : جامع الرسائل ، ب د،ص 231.

(366) القشيري ، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن: الرسالة، بيروت ب د ،ص7؛ الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد: سير أعلام النبلاء، بيروت 1993، 69/14 ؛ اليافعي، عبد الله بن اسعد : مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ، ب د ،ص308 ؛ الشعراني،عبد الوهاب بن احمد: الطبقات الكبرى ، القاهرة ب د ،ج1ص84 ؛ إسماعيل حقي الخلوتي : روح البيان في تفسير القرآن،ج1ص236 ؛ الحبشي،احمد بن زين: شرح العينية ،ب د، 72.

(367) تعني هذه العبارة أيضا عند أهل السنة تنزيه الله عز وجل عن الظاهر المستحيل كالجسمية ولوازمها كالاستقرار على العرش والعلو الحسي ، والصعود والنزول المتعارفين، فصفة ذاته عز وجل مخالِفة للحوادث. (أنظر:محمد أمين الكردي: تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب، القاهرة 1332هـ ،ص42).

(368) أنظر على سبيل المثال : ابن تيمية : مجموع الفتاوي ،299،340/2، 126،230،491/5. يذهب الباحث ابو الوفا الغنيمي إلى ان ابن تيمية لم يفهم أيضا كثير من عبارات ابن سبعين القائل بالوحدة المطلقة، ورد

لهم ملاحظات أخرى على ابن تيمية لعل أهمها أن تصوفه عقلي نقله عن قصارى فهمه من بعض كلام القوم ولا يترجم عن الأحوال والمواجيد التي هي الأذواق مثل كلامه في الفناء وهو أمر ذوقي محض ، أي عن تجربة روحية[369]، بمعنى أنه يجادل في قضية بمنهج معرفي مختلف عن المنهج الذي صدرت عنه. ورغم ذلك يقر ابن تيمية أن ابن عربي هو أول من قال بهذا الفكر، وأقر له أنه أقرب من لحقه إلى الإسلام.[370]

كما أن ابن تيمية برأ التصوف والصوفية من ابن عربي، على اعتبار أن ابن عربي وأمثاله من صوفية الملاحدة الفلاسفة وليسوا من صوفية أهل العلم فضلاً عن أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنة كالفضيل بن عياض[371] (ت187هـ) و إبراهيم بن أدهم [372] (ت161هـ) و أبي سليمان الداراني[373] و معروف الكرخي

عليها بناء على فهمه الخاطئ (أنظر: أبو الوفا الغنيمي: ابن سبعين وفلسفته الصوفية، بيروت 1973م،ص237 وما بعدها).

(369) محمود محمود غراب : شرح كلمات الصوفية والرد على ابن تيمية من كلام الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي ، ب د 1402هـ-1981م،ص96 وما بعدها .

(370) ابن تيمية ، احمد بن عبد الحليم : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ب د ،ص233.

(371) الفضيل بن عياض التميمي: وُلد بخراسان وقدم الكوفة وهو كبير فسمع بها الحديث ثم تعبد وانتقل إلى مكة. وهو القائل العبارة المشهورة:"أصلح ما أكون أفقر ما أكون وإني لأعصِي الله فأعرف ذلك في خُلق حماري وخادمي". (أنظر: الأصفهاني، أبو نعيم احمد بن عبدالله: حلية الأولياء ،84/8؛ ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي: صفة الصفوة، ب د ،230).

(372) أبو إسحاق إبراهيم بن ادهم: كان والده من ملوك خراسان ، فترك الملك والتنعم وتفرغ للعبادة والزهد بعد أن تفقه وجاهد في قتال الروم حتى صار علما من أعلام التصوف.(انظر: الأصفهاني: حلية الأولياء،367/7 ؛ عبد الرحمن بن الجوزي: صفة الصفوة ،443).

(373) أبو سليمان عبد الرحمن الداراني العبسي: صوفي مشهور، من أهل داريا بغوطة دمشق رحل إلى بغداد، وأقام بها مدة، ثم عاد إلى الشام، وتوفي في بلده.(الأصفهاني: حلية الأولياء،254/9 ؛ ابن الجوزي:صفوة الصفوة،476).

[374](ت200هـ) و الجنيد ابن محمد و سهل بن عبد الله التستري[375](ت283هـ) وأمثالهم.[376]

وبهذا نستطيع أن نلخص رد ابن تيمية على ابن عربي بالتالي :

1. الرد عليه بما قاله الصوفية أنفسهم :"إنما التوحيد إفراد القدم عن الحدث". إلا أنه يزيد عليهم بالتكفير.
2. أن ابن عربي هو أول من ظهر منه هذا الفكر. مخالف بذلك أهل التصوف. حيث جمع بين الفلسفة والتصوف حسب تعبير ابن تيمية.[377]
3. أن هذا الكلام لمقام روحي ناقص ولابد من شهود مقام الفرق الثاني بعد مقام الجمع . وأخذ هذا الرد من الصوفية أيضاً .[378]
4. أن من قال ذلك عن سكر ووجد ونشوة الذكر فلا شيء عليه ومغفور له. ومن قالها وهو في صحو عقلي حوسب عليه، وهذا أيضا نفس موقف أهل التصوف.[379]

---

(374) معروف الكرخي، أبو محفوظ: أحد أعلام الزهاد والمتصوفين.كان من موالى الإمام علي الرضى بن موسى الكاظم.وأخذ عنه التصوف والسلوك، ولد في كرخ بغداد، ونشأ وتوفي ببغداد.اشتهر بالصلاح وقصده الناس للتبرك به حتى كان الإمام أحمد ابن حنبل ممن يختلف إليه. ولابن الجوزى كتاب في أخباره وآدابه.(الأصفهاني: حلية الأولياء، 360/8؛ الزركلي: الأعلام ،269/7).

(375) سهل بن عبدالله التستري: أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص وعيوب الأفعال. له كتاب في تفسير القرآن ، ورقائق المحبين وغير ذلك .وهو القائل عن التصوف: "أصولنا ستة أشياء التمسك بكتاب الله تعالى والإقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه و سلم وأكل الحلال وكف الأذى واجتناب الآثام والتوبة وأداء الحقوق (الأصفهاني: حلية الأولياء،190/10 ؛ ابن الجوزي: صفة الصفوة،413؛ الزركلي :الأعلام ، 143/3).

(376) ابن تيمية: أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ،58.

(377) ابن تيمية،احمد بن عبد الحليم :كتاب الإيمان الأوسط، ب د ،ص206.

(378) مجموع الفتاوي ، ب د ، 228/2، 232/2، 367/2 ، 369/2 ، 405/2.

(379) مجموع فتاوي ابن تيمية ، 377/2.

5. براءة التصوف والصوفية من هذا الفكر.

وبعد الفهم الذي قدمه ابن تيمية ، سار من اعترض من الفقهاء على ابن عربي على ذلك الفهم ، منم الحسين بن عبد الرحمن الأهدل[380] (ت855هـ) فإنه في كتاب له أفرده للرد على ابن عربي تمكن باقتدار من الفصل بين فكر ابن عربي والتصوف، وقدم دفاعاً قوياً عن التصوف أمام وحدة الوجود مستعرضا للعقيدة عند القشيري[381] (ت456هـ) والسهروردي(ت632هـ)[382] ، ومستشهداً بأقوال الغزالي وأبي طالب المكي[383](ت386هـ) والتستري والشبلي(ت334هـ)[384] والجنيد بن

(380) حسين بن عبد الرحمن الأهدل اليمني، فقيه وأصولي ، صاحب المؤلفات الصوفية والتاريخية العديدة ، منها سماء الباهر في مناقب الشيخ عبد القادر، والمطرب للسامعين في حكايات الصالحين.(أنظر : السخاوي ، الضوء اللامع ،72/2،73).

(381) أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبدالملك بن طلحة القشيري: الشافعي الصوفي المفسر، كان إماما قدوة في الزهد والتربية والسلوك والعلم،،وشيخ خراسان في عصره، له العديد من المؤلفات أهمها الرسالة .(الذهبي، سير أعلام النبلاء،298/18).

(382) شهاب الدين عمر السهروردي البكري البغدادي: صاحب احد أهم كتب التصوف عوارف المعارف، اخذ العلم والتصوف من عمه ابو النجيب وصحب فترة الإمام عبد القادر الجيلاني، قال عنه الذهبي: "الشيخ الإمام العالم القدوة الزاهد العارف المحدث شيخ الإسلام".(للمزيد أنظر: سير أعلام النبلاء، 373/22).

(383) أبو طالب المكي :محمد بن علي بن عطية الحارثي، : الزاهد، الفقيه.من أهل الجبل بين بغداد وواسط نشأ واشتهر بمكة. وسكن بغداد فوعظ فيها،.وتوفي فيها.من أشهر كتبه فوت القلوب في التصوف.(الذهبي : سير أعلام النبلاء،537/16 ؛ الزركلي : الأعلام،274/6).

(384) أبو دلف أبو بكر الشبلي:العابد الزاهد الفقيه.كان في مبدأ أمره واليا في دنباوند من نواحي رستاق الري وولي الحجابة للموفق العباسي، وكان أبوه حاجب الحجاب، ثم ترك الولاية وعكف على العبادة، فاشتهر بالصلاح.أصله من خراسان، ونسبته إلى قرية شبلة من قرى ما وراء النهر، ومولده بسر من رأى، ووفاته ببغداد.اشتهر بكنيته، واختلف في اسمه ونسبه، فقيل دلف بن جعفر وقيل جحدر بن دلف و دلف ابن جعترة و دلف بن جعونة و جعفر ابن يونس.(أنظر: الأصفهاني : حلية الأولياء،366/10 ؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء،367/15).

محمد ، وهؤلاء هم أعلام التصوف[385]. ويقول[386]:" هذا مذهب أهل الحق من الأصوليين والفقهاء ومشايخ التصوف." ويقول أيضاً[387]:" ولم يزل أكابر أهل الطريق من الصوفية ذوي التحقيق يتوجعون منهم ، ويحذرون من تلبيسهم ، وينبهون على أنهم ليسوا على طريق الصوفية المحققين".[388]

كذلك كان برهان الدين البقاعي[389](885هـ) صاحب مؤلف " تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي". حيث اقتصر عمله على نقد كتاب فصوص الحكم. على أن البقاعي وضح أن فكر ابن عربي ليس من التصوف أو الصوفية وأنكر بغضه للصوفية بل أظهر تقديره لأعلام الصوفية أمثال الجنيد وسري السقطي (ت253هـ) [390] وأبي يزيد البسطامي(ت261هـ)[391]وأبي سعيد الخراز (ت286 هـ) [392]، والأستاذ أبي

---

(385) الحسين بن عبد الرحمن الأهدل: كشف الغطاء عن حقائق التوحيد وعقائد الموحدين وذكر الأئمة الأشعريين ومن خالفهم من المبتدعين وبيان حال ابن عربي وأتباعه المارقين ، تونس ب د ، ص5 ،17 ،18وما بعدها.

(386) كشف الغطاء ،125.

(387) كشف الغطاء ، 170.

(388) يقترب من هذا الطرح محمد بن إبراهيم الوزير في تبرئة الصوفية من أقوال الاتحادية(أنظر: إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات الى المذهب الحق من أصول التوحيد، بيروت1987،ص38).

(389) إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي: مفسر ومؤرخ، نزيل القاهرة ثم دمشق له العديد من المؤلفات منها الجواهر والدرر في مناسبة الآي والسور (أنظر: االسخاوي : الضوء اللامع ،ب د ،63/1 ؛ الشوكاني، محمد بن علي: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع،ب د ،ج1ص18).

(390) سري السقطي: خال الجنيد بن محمد وأستاذه،كان من مشاهير العباد الزهاد .ا(نظر:أبو نعيم: حلية الأولياء،116/10 وما بعدها؛ المناوي: الكواكب الدرية،483/1 وما بعدها).

(391) أبو يزيد البسطامي ،طيفور بن عيسمن مشاهير الصوفية والزهاد. للمزيد عنه أنظر:أبو نعيم: حلية الأولياء،33/10 وما بعدها ؛ ابن الجوزي،أبو الفرج عبد الرحمن : صفة الصفوة،431 ؛الذهبي:سير أعلام النبلاء،ج13ص86).

(392) أبو سعيد احمد بن عيسى الخراز :من أئمة التصوف ورواة الحديث،بغدادي.نسبته إلى خرز الجلود.له مؤلفات في علوم التزكية منها كتاب الصدق، أو الطريق إلى الله (للمزيد أنظر:ابن عساكر:تاريخ دمشق، بيروت1998م،ج5ص129 وما بعدها).

القاسم القشيري، والشيخ عبد القادر الجيلاني (ت561هـ)[393] والشيخ شهاب الدين عمر السهروردي صاحب العوارف. مؤكدا أن طريق أهل التصوف هو الكتاب والسنة[394].

كما يلاحظ أن البقاعي استند في رده على ابن عربي لكلام أهل التصوف أنفسهم وعلمائه. مثل العلامة علاء الدين علي بن إسماعيل القونوي (ت729هـ) [395]وزين الدين العراقي[396](ت806هـ) وحجة الإسلام الغزالي وعلاء الدين البخاري(ت841هـ).[397]

وعلى هذا المنهج سار بقية الفقهاء الذين اشتغلوا بالرد على ابن عربي مثل العلامة علي بن سلطان القاري المكي[398](ت1041هـ) ، حيث فصل بين التصوف و ابن

(393) الجيلاني، عبد القادر بن موسى الحسني:الإمام الزاهد المجدد، ولد في جيلان ، وارتحل إلى بغداد شابا وطلب العلم وسلك التصوف حتى برز واشتهر وانتفع به جمهور المسلمين (للمزيد عنه أنظر:التادافي، محمد بن يحي: قلائد الجواهر ،القاهرة2004 ؛ أبو الحسن الندوي: رجال الفكر والدعوة في الإسلام ،319/1 وما بعدها).

(394) تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي ، تحقيق وتعليق / عبد الرحمن الوكيل ، ب د ، ص 260،261 . للأسف ارتكب محقق الكتاب جنايات عظيمة في حقه ، ابتداء من العنوان الذي حرفة إلى :" مصرع التصوف" إلى العناوين الفرعية مما سبب لي عنق النص . إضافة إلى ما أضاف إليه من هامش وحاشية تغير معنى النص ولا تنطق سوى بما في نفس المحقق . وهو ما يخالف الأمانة العلمية في التحقيق استجابة للتعصب الممقوت.

(395) إسماعيل بن يوسف القونوي علاء الدين الفقيه الشافعي الصوفي، ولد بقونية ببلاد الروم، وحصل العلم حتى تقدم في الفقه والتفسير والأصول والتصوف تخرج عليه معظم علماء مصر ولي قضاء دمشق فأحسن السيرة وأقام العدل وتوفي فيها. (أنظر ابن حجر: الدرر الكامنة،352،351/1).

(396) زين الدين عبدالرحيم العراقي : أبرز علماء مصر في عصره له العديد من المؤلفات أهمها:المغني عن حمل الأسفار في الإسفار في تخريج ما في الأحياء من الأخبار(للمزيد أنظر: السخاوي:الضوء اللامع،304/2).

(397) تنبيه الغبي ،66،67 ،78.

(398) الملا علي القاري علي بن محمد، نور الدين الملا الهروي القاري: فقيه حنفي، من صدور العلم في عصره ولد في هراة و سكن وتوفي في مكة.وله بعض المؤلفات في التصوف إضافة إلى الفقه وغيره مثل تعليق على بعض آداب المريدين، لعبد القاهر السهرودي و سيرة الشيخ عبد القادر. (الزركلي: الأعلام،12/5).

عربي مبيناً حقيقة التصوف أنه زبدة علوم الشريعة وروحها[399]. بل ودافع عن المنهج الكشفي والروحي مبيناً أن ظهور الخلق عند أهل الشهود يفنى أو يخفى عند نور الحق كغيبة الكواكب في حضرة الشمس، وهذا هو جل الأمر في موضوع وحدة الوجود.[400].

ولكن بالمقابل أيضاً كان هناك الفريق الآخر من العلماء الفقهاء الذين دافعوا عن شخص ابن عربي–وليس عن مؤلفاته– منهم الإمام الحافظ السيوطي[401](ت911 هـ)_مؤلف كتاب : " تنبيه الغبي إلى تنزيه ابن عربي"[402]. ومنهم من ذكره بالفضل والعلم مثل الإمام ابن مسدي[403](ت633هـ) المعاصر لابن عربي، كما حكى عنه سبط ابن الجوزي[404](ت654هـ)،_وترجم له ودافع عنه محي الدين الفيروزآبادي

(399) أنظر:علي بن سلطان القاري: الرد على القائلين بوحدة الوجود، تحقيق/ علي رضا ، دمشق1995 ،ص82، 92 ،93.

(400) القاري: الرد على وحدة الوجود،102.

(401) الجلال السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري السيوطي، جلال الدين: الإمام الحافظ له نحو 600 مصنف، نشأ في القاهرة يتيما ، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس، فألف أكثر كتبه.وكان الأغنياء والأمراء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها.وطلبه السلطان مراراً فلم يحضر إليه، وأرسل إليه هدايا فردها. من كتبه: الإتقان في علوم القرآن، و تاريخ الخلفاء و تفسير الجلالين، وغيرها (السخاوي الضوء اللامع، ب د،ج2ص231؛ الشوكاني،محمد بن علي: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع،ب د،ج1ص311؛ الزركلي: الأعلام،301/3).

(402) ابن عابدين، محمد أمين بن عمر :حاشية رد المختار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، بيروت2000 ،ج4ص238.

(403) أبو بكر محمد بن يوسف بن مسدي الأزدي المهلبي الأندلسي الغرناطي: الفقيه له تصانيف كثيرة وتوسع في العلوم وتفنن، وله في النظم والنثر و الفقه وغير ذلك(أنظر: الذهبي، محمد بن أحمد: تذكرة الحفاظ، تحقيق /زكريا عميرات، بيروت1998،ج4ص161).

(404) سبط ابن الجوزي : يوسف بن قزأوغلي أو قزغلي ، ابن عبد الله، أبو المظفر، شمس الدين، سبط أبي الفرج ابن الجوزي: مؤرخ ، ومن الكتاب الوعاظ. ولد ونشأ ببغداد، ورباه جده. وانتقل إلى دمشق، فاستوطنها وتوفي فيها. من كتبه: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان وتذكرة خواص الأمة بذكر خصائص الأئمة، وله تفسير في تسعة وعشرين

(ت817هـ) صاحب القاموس[405] ، إضافة إلى ابن حجر الهيثمي(ت974)[406]، والمقري(ت1041هـ)[407] في كتابه نفح الطيب[408]، وجمهور من العلماء الآخرين [409]. ثم طائفة ثالثة من الفقهاء كان موقفها الوقف والتسليم ، أي لا يعتقدون به ولا ينتقدون . ومن هؤلاء شيخ الإسلام النووي.[410]

وقد كان من المعتاد أن كثيراً من الفقهاء يأخذون كلام من عرف عنه بالصلاح بالتأويل الصالح فلا يتهورون بالتكفير أو الانتقاص إذا وجدوا فيها ما التبس عليهم[411].

مجلداً.(ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي،ب د،ج2ص145 ؛ خير الدين الزركلي:الأعلام، بيروت 1980،ج8 ص246).

(405) الفيروزآبادي: محمد بن يعقوب ، أبو طاهر، مجد الدين الشيرازي الفيروزآبادي: من أئمة اللغة والأدب.ولد بكارزين من أعمال شيراز.وانتقل إلى العراق، وجال في مصر والشام، ودخل بلاد الروم والهند.ورحل إلى زبيد سنة 796 هـ فأكرمه الاشرف إسماعيل وقرأ عليه، فسكنها وولي قضاءها.وانتشر اسمه في الأفاق، حتى كان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير، وتوفي في زبيد.أشهر كتبه القاموس المحيط.(السخاوي: الضوء اللامع،29/5؛ الزركلي:الأعلام،147/7).

(406) محمود محمود غراب : كتاب رسائل ابن عربي (المقدمة) ، بيروت 1997 ، ص 7، 8 .

ابن حجر الهيتمي، الإمام محمد بن إدريس الحافظ شهاب الدين أو العباس أحمد بن محمد الهيتمي السعدي المصري: مات بمكة ،إمام الحرمين كما أجمع على ذلك معاصروه،وبرع في علوم كثيرة من التفسير والحديث وعلم الكلام وأصول الفقه وفروعه والفرائض والحساب والنحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق والتصوف، وله العديد من المؤلفات ، خاصة في الفقه الشافعي (العيدروس: النور السافر،144).

(407) المقري أحمد بن محمد التلمساني: المؤرخ الأديب الحافظ، ولد ونشأ في تلمسان بالمغرب وانتقل إلى فاس، فكان خطيبها والقاضي بها. ومنها إلى القاهرة وتنقل في الديار المصرية والشامية والحجازية، وتوفي بمصر وقيل: توفي بالشام والمقري نسبة إلى مقرة من قرى تلمسان.(الزركلي : الأعلام،237/1).

(408) أحمد بن مقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،بيروت1997،ج2ص162

(409) محمود محمود غراب : كتاب رسائل ابن عربي (المقدمة) ، 7، 8 .

(410) المناوي : مناقب الشيخ الأكبر ، 76.

(411) انظر على سبيل المثال لا الحصر : القرافي ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس المالكي: أنوار البروق في أنواع الفروق ، ب د ، ج8 ص492 ؛ ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بك: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ب د ، ج3 ص330 .

والتبس هذا الموضوع على أحد الباحثين المحدثين فقدم صورة عن صراع تاريخي كان يدور بين الفقهاء والصوفية [412]، وهذا تفسير خاطئ لهذه المشكلة الفكرية التي ظهرت في الساحة الإسلامية . فالثابت تاريخياً أن قضية وحدة الوجود أيدها صوفية وفلاسفة وعارضها فقهاء وكثير من أهل التصوف[413]. كما أن الصوفية كانوا فقهاءً وكثير من الفقهاء كانوا صوفية. والحقيقة أن هذا الفصل بين الفقهاء والصوفية هو فصل ذهني عند البعض ، أما في الواقع التاريخي فهو عكس ذلك ، حيث تميز علماء الإسلام بشكل عام بالعلم الموسوعي فكان أحدهم عالم في القراءة والأصول والحديث والفقه والتصوف واللغة والهيئة ، إلا أنه يغلب عليه فن معين فيشتهر فيه[414].

على أية حال لعله يحق للفقهاء من أهل النظر العقلي محاكمة ابن عربي طالما انه تحدث عن التجارب الروحية بصيغ لغوية مخاطباً بها أهل النظر والعقل . أي أنه طالما قدم رؤية فلسفية عن الأحوال الوجدانية فيحق للفقهاء والفلاسفة من النقد والحكم على أطروحاته سلباً أو إيجاباً. أما إذا كان يخاطب أهل المعرفة الوجدانية والتجارب الروحية ، فان الأمر يصعب على أهل النظر الحكم فيه بدون المنهج المعرفي ذاته.

موقف الصوفية من وحدة الوجود:

تأثر بفكر ابن عربي بعض أهل التصوف، ولكن أيضاً عارضه –إذا يعني عدم التمييز بين القديم والمحدث أو الحلول والاتحاد– جمهور أهل التصوف ، وهي المعارضة

(412) أنظر: عبد الله الحبشي: الصوفية والفقهاء في اليمن ، القاهرة 1976م،ص83 وما بعدها. لم يوضح أنها أحداث فردية من بعض أفراد الصوفية وبعض الفقهاء، مخالفا بذلك نصوص المصدر التاريخي الأساسي الذي استند إليه (أنظر: الأهدل: كشف الغطاء ، 218 وما بعدها).

(413) سعيد عبد اللطيف فودة: فتح الودود بشرح رسالة الشريف الجرجاني في وحدة الوجود، عمان 2013، ص15،14.

(414) انظر على سبيل المثال لا الحصر : الشرجي: أبي العباس أحمد بن أحمد: طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص ، بيروت 1986م،ص128،127،95،88،44،43.

التي تمثل الثقل والاعتبار الحقيقي في رد وتوضيح هذه الأطروحة ، لأنها معارضة من نفس المنهج المعرفي ، وهي المعرفة الشهودية القلبية ، أو المعرفة الوجدانية الروحية. وقالوا أتكون الصنعة هي الصانع؟[415]

بدأت المعارضة من المعاصرين له ، مثل شمس الدين التبريزي[416](كان حيا حتى1247م) شيخ جلال الدين الرومي [417](ت672 هـ)-أحد أبرز رجال التصوف في التاريخ الإسلامي - الذي اجتمع مع ابن عربي. لكنه عارض فكره وناقضه في حوار معه ثم في كتابه المقولات.[418]

ومن هؤلاء الإمام علاء الدين أحمد بن محمد السمناني[419] (ت 736هـ) المفسر الصوفي، حيث رأى أن غاية السالك هي العبودية ، وليس التوحيد الوجودي[420] .

(415) أنظر على سبيل المثال: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: الحاوي للفتاوى،تحقيق / عبد اللطيف حسن، بيروت2000،ج2ص127 ،128؛ المناوي: الكواكب الدرية،166/2،165؛ محمد أمين الكردي : تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب، القاهرة1377هـ ، ص42.

(416)) شمس الدين التبريزي: لم نحصل على ترجمة وافية له ، سوى أنه لقب ب برندا أي الطائر لكثرة ترحاله، كان متضلعا في علوم التفسير والحديث كما يدل على ذلك كتابه المقولات، كان الشيخ المؤثر في حياة جلال الدين الرومي (جيهان اوقويوجو: مولانا جلال الدين الرومي، القاهرة2009،ص22).

(417) جلال الدين الرومي : محمد بن محمد البلخي القونوي الرومي: العالم الفقيه المتصوف ولد في بلخ بفارس وانتقل مع أبيه إلى بغداد، في الرابعة من عمره، فترعرع بها في المدرسة المستنصرية حيث نزل أبوه. ثم استقر في قونية سنة 623 هـ. وعرف جلال الدين بالبراعة في الفقه وغيره من العلوم الإسلامية، فتولى التدريس بقونية في أربع مدارس، بعد وفاة أبيه (سنة 628) ثم ترك التدريس والتصنيف والدنيا سنة 642 ، بعد لقاءه بالشيخ شمس الدين التبريزي فشغل بالعبادة والسماع ونظم الأشعار وإنشادها ثم بالتربية والتسليك .ونظم كتابه المثنوي وغيره. يرتكز الكثير من فكره في الدعوة إلى الحب والمحبة لله وخلقه ، وتحظى مؤلفاته بإقبال كبير في الغرب الأوروبي والولايات المتحدة الأمريكية.(أنظر:الندوي: رجال الفكر،391/1 وما بعدها).

(418) جيهان اوقويوجو: جلال الدين الرومي ، 49.

(419) علاء الدين أحمد بن محمد السمناني: ففيه عابد له أكثر من ثلاثمائة مؤلف،منها الفلاح و مصابيح الجنان وغيرها. (ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، 84/1 ، الصفدي، صلاح الدين: أعيان العصر وأعوان النصر، بيروت ب د، ج1ص85).

كذلك من أهل التصوف المحدث الصوفي قطب القسطلاني الشافعي[421] (ت686هـ)[422] .

ومن كبار الصوفية الذين عارضوا وبينوا فكر وحدة الوجود الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي[423] (ت1034هـ) إمام الطريقة المجددية النقشبندية ، حيث بين خطأ المنهج القلبي الروحاني دون الالتزام بالشريعة مثلما بين خطأ الاعتماد الكلي على العقل كما يفعل الفلاسفة[424] ، ووضح أن وحدة الوجود هي قول لمقام روحي معين يقف عنده صاحبه ، حتى إذا تجاوزه وصل إلى مقام وحدة الشهود[425]. أي ليس مشهوداً سواه وليس لا يوجد سواه. داعياً إلى نبذ كتاب الفصوص والفتوحات المكية.[426]

(420) أبو الحسن الندوي : رجال الفكر ، 275/3 .

(421) محمد بن أحمد بن علي القسطلاني: ، ولد بمكة المشرفة في سنة أربع عشرة وستمائة وسمع بها من والده وعلي بن البناء الشهاب السهروردي ولبس منه خرقه التصوف وغيرهم من شيوخها والقادمين إليها، ورحل إلى ببغداد ومصر والشام والجزيزة طلبا للعلم، تفقه وأفتى وطلب إلى القاهرة من مكة وتولى بها مشيخة دار الحديث الكاملية، كان شخصية تجمع بين العلم والعمل والورع والهيبة (أنظر: محمد بن محمد بن فهد المكي: لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، ب د 1998،ص55) .

(422) أبو الحسن الندوي : رجال الفكر ، 276/3 وما بعدها .

(423) احمد السرهندي الدهلوي ولد بمدينة سرهند بالهند عام971هـ ، وسافر إلى سيالكوت لطلب العلم فصحب كبار العلماء بعصره، ثم أخذ التربية والسلوك والتصوف على يد الشيخ عبد الباقي النقشبندي الدهلوي، فبرز إماما للسالكين وقدوة للعارفين، حتى لقب بمجدد الألف الثاني ، له العديد من المؤلفات منها المكتوبات (للمزيد أنظر: الندوي: رجال الفكر،147/3 وما بعدها).

(424) أبو الحسن الندوي : رجال الفكر ، 147/2 ، 221/3 .

(425) أبو الحسن الندوي : رجال الفكر ، 248/3 .

(426) الدهلوي، احمد السرهندي: المكتوبات ، ترجمة محمد مراد المترلوي، استانبول 2002،ج1ص382.

وموقف الإمام عبد الله بن اسعد اليافعي[427](ت768هـ) الصوفي الكبير كان كذلك لا يرى بمطالعة كتب ابن عربي مع التوقف عن تكفيره [428]. وهو كما رأينا نفس موقف القاضي الشوكاني بعد ذلك.

ويقول الإمام عبد الوهاب الشعراني[429](ت973هـ) وهو إمام أهل التصوف في مصر[430]: "ومن أخلاقهم : شد الحط والزجر والتوبيخ والهجر لمن يقول : ما ثم إلا الله تعالى، فإن إطلاق هذا اللفظ يبني عليه هدم الشريعة كلها... فهؤلاء اخس الطوائف." ويقول نقلاً عن السيد أحمد الرفاعي (ت578هـ)[431]:" من أقبح ما يقع فيه المريد خوضه في الكلام على الذات والصفات الإلهية ، وإذا كان العارف بالله تعالى

---

(427) أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي اليمني ثم المكي الشافعي ، شيخ الحجاز ولد بعدن فاشتغل بالعلم وحببت إليه الخلوة والانقطاع والسياحة في الجبال وصحب الشيخ على الطواشي وهو الذي سلكه طريق التصوف ثم لازم العلم ثم جاور بمكة وتزوج بها .كان إماما يسترشد بعلومه ويقتدى وعلما يستضاء بأنواره ويهتدى له الكثير من المؤلفات في أنواع العلوم إلا أن غالبها صغير الحجم. وكان يصرف أوقاته في وجوه البر وأغلبها في العلم كثير الإيثار والصدقة مع الاحتياج متواضعا مع الفقر مترفعا عن أبناء الدنيا معرضا عما في أيديهم وكان نحيفا ربعة من الرجال مربيا للطلبة والمريدين (الشرجي،ابو العباس احمد الزبيدي: طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، بيروت1986،172 وما بعدها ؛ ابن العماد : شذرا ت الذهب،209/6).

(428) الأهدل : كشف الغطاء ،276.

(429) أبو المواهب عبد الوهاب بن احمد الشعراني : العالم الزاهد إمام أهل التصوف بزمنه، ولد بمصر عام898هـ ، حصل العلم حتى صار من أكابر العلماء، فكان فقيها محدثا صوفيا، له عشرات المؤلفات لمختلف العلوم الشرعية.(للمزيد عنه أنظر: الشعراني، عبد الوهاب: الأخلاق المتبولية ، تحقيق / منيع عبد الحليم محمود ، القاهرة ، ب د ،ج 1ص6 وما بعدها).

(430) الأخلاق المتبولية ، 400/1،399.

(431)الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية،تحقيق/ طه عبد الباقي سرور و السيد محمد عيد الشافعي،بيروت2003،ص89 ، 97. أبو العباس احمد بن علي بن يحيى الحسيني الرفاعي(512 - 578 هـ /1118 - 1182 م): الإمام الصوفي الزاهد أستاذ التربية والسلوك في زمنه ،كان يسكن قرية أم عبيدة بالبطائح (بين واسط والبصرة) وتوفي بها.مؤسس الطريقة الصوفية التي تنسب اليه (أنظر: سير أعلام النبلاء،77/21؛ الزركلي: الأعلام،174/1).

سكوته على ذلك أفضل فكيف بالمريد". بل أنه يقول نقلاً عن مشايخه [432]:" كل مريد سمعتموه يقول: حقيقتي الله ، أو لا موجود إلا الله، فعرفوه بذنبه فإن لم يتب فاقتلوه ، فإنه زنديق". وهذه فتوى قوية من الإمام الشعراني ضد كل من يقول حقيقتي الله. و يقول موضحاً :"ومن فهم من الجمع أنه صار عين الحق تعالى ومن ادعى أنه قائم بنفسه فهو مشرك "[433]. على أن الشعراني يبرئ ابن عربي من كل التهم الموجهة وأشار أن جميع ما في كتب الشيخ ابن عربي مما يخالف الشريعة مدسوس عليه من قبل الحسدة ، لينفروا الناس من مطالعة كتبه[434]. باذلا جهودا كبيرة في التآليف المختلفة لشرح عبارات ونصوص ابن عربي ، وهو ما يعد أفضل شرح صوفي لمؤلفات ابن عربي [435].

وكان بعض أهل التصوف يتشددون مع أولادهم وطلابهم في منعهم مؤلفات الشيخ ابن عربي ، خوفاً عليهم من الفهم الخاطئ[436] ، يذكر الإمام أبوبكر العيدروس العدني[437] (ت914هـ) أن والده لم يضربه ولا نهره إلا مرة واحدة عندما شاهد في يده جزءاً من الفتوحات المكية فغضب عليه غضباً شديداً . [438] وهذا

---

(432) الأنوار القدسية ،97.

(433) الأخلاق المتبولية،363/2.

(434) الشعراني ، عبد الوهاب : الأخلاق المتبولية ، 1 /489 .

(435) أنظر على سبيل المثال : الشعراني ، عبد الوهاب : اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر ، ب د . وله أيضا : الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر ، ب د .

(436) انظر على سبيل المثال : محمد أمين الكردي : تنوير القلوب ، 42.

(437) الإمام أبوبكر بن عبدالله العيدروس : أبرز أئمة الدعوة والتربية والتصوف في زمنه ولد بتريم وعاش في عدن ، اتفق علماء عصره على فضله، له بعض المؤلفات منها: الجزء اللطيف في علم التحكيم الشريف.(العيدروس : النور السافر ،34 وما بعدها ؛ الزركلي : الأعلام،66/2).

(438) العيدروس : النور السافر ،172؛ أبو بكر بن علي المشهور: الأرض الخاشعة ، ب د، ص50 .

الموقف يبين بوضوح موقف مدرسة حضرموت الصوفية من المؤلفات المنسوبة إلي ابن عربي حتى أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي[439].

وقدم بعض الصوفية اللاحقون رؤية تشخيصية لقضية ابن عربي تكاد تكون شاملة، حيث أوضح أن المشكلات الواقعة في كتب الشيخ خاصة الفصوص والفتوحات كثيرة. وهي إما أن تكون دست على الشيخ وإما أن تكون برزت منه في حين غلبة حال ، واستيلاء سلطان حقيقة فيكون من الشطح الذي يعذر فيه من غلب عليه من أهله. وإما أن يكون أبداها، مورياً بها عن أسرار ومعاني تدق على العبارة فكانت القوالب والصور غير مستقيمة وهي لأرواح وحقائق صحيحة. وهذا التوضيح من أفضل ما وقف عليه الباحث في قضية ابن عربي وتشخيصها من خلال الاحتمالات الثلاثة التي قدمها. [440]

أما موقف أوائل أهل التصوف من قبل ظهور الشيخ ابن عربي فهو تنزيه الله عز وجل تنزيهاً مطلقا ، مثل الحارث بن أسد المحاسبي(ت243هـ)[441] ، والإمام الجنيد

(439) استمر هذا الموقف الفكري حتى بعد عصر الأيوبيين والمماليك وتمثل في موقف الإمام عبد الله بن علوي الحداد(ت1132هـ). حيث كتب إلى بعض أصحابه وهو إمام أهل التصوف في اليمن آنذاك : " لا تعلق خاطرك بالشيخ ابن عربي واضرابه فإن ذلك معجزة وربما دعا بعض الناس إلى الدعوى بما لا يبلغه وعليك بالعلوم الغزالية وما جرى مجراها من الصوفيات والفقهيات التي هي علوم الشرع وصريح الكتاب والسنة فثم السلامة والغنيمة واحترز مما سوى ذلك فإنه ربما يشوش على الإنسان سلوكه. (أنظر: رسالة المعاونة والمظاهرة والمؤازرة للراغبين من المؤمنين سلوك طريق الآخرة، ب د 1994 ،ص50).

(440) أنظر: عبدالله علوي الحداد: النفائس العلوية في المسائل الصوفية ، أبوظبي1193،ص187،186 ؛ يتفق أهل التصوف عن عجز اللغة في التعبير عن الأحوال الكشفية ، أنظر مثلا:النفري، محمد بن إبراهيم الرندي : غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية،القاهرة2005،ص164.

(441) أنظر: عبد الحليم محمود : أستاذ السائرين، الحارث بن أسد المحاسبي، القاهرة 1986م،ص72. المحاسبي (ت 243 هـ / 857 م) الحارث بن أسد أبو عبد الله ولد ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد. يعد من أكابر الصوفية.كان عالما بالأصول والمعاملات، واعظا مؤثرا له مؤلفات في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم.وهو أستاذ أكثر

وهو إمام أهل التصوف ويلقب بسيد الطائفة حيث يقول [442]: "التوحيد إفراد القدم عن الحدث " . وعلى هذا سار الصوفية من بعده[443].

ويقول الشيخ أبو نصر السراج الطوسي[444] (ت 378هـ) وكتابه من أقدم المصادر الصوفية في التاريخ الإسلامي[445] : " وينبغي أن يعلم العبد أن كل شيء رأته العيون ، في دار الدنيا من الأنوار ، إن ذلك مخلوق ليس بينه وبين الله تعالى شبه ، وليس ذلك صفه من صفاته ، بل جميع ذلك خلق مخلوق " . وهذا القول بطبيعة الحال يستند إلى إرشاد الشرع الحنيف ، حيث يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم[446]:" تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَمُوتَ".

كذلك كان موقف الإمام الغزالي الذي يعد أحد أهم رواد الفكر والدعوة في التاريخ الإسلامي ، وذلك بفضل إصلاحاته الفكرية والثورة الروحية التي نهض بها في عصر كان يعاني من التمزق و الانحطاط الفكري والروحي[447]. وهي النهضة التي أدت إلى ظهور جيل القادة المجاهدين أمثال عماد الدين زنكي ونور الدين محمود

البغداديين في عصره.من مؤلفاته آداب النفوس ،والمسائل في أعمال القلوب والجوارح، الرعاية لحقوق الله عزوجل.(ترجمت العديد من المصادر للمحاسبي. أنظر على سبيل المثال:الأصفهاني: حلية الأولياء،73/10؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء،110/12).

(442) القشيري : الرسالة ،136 ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء، 69/14 ؛ اليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ، ب د ،ص308 ؛ الشعراني الطبقات الكبرى ،ب د ،ج1ص84 ؛ إسماعيل حقي الخلوتي: روح البيان في تفسير القرآن، القاهرة ب د،ج1ص236 ؛ الحبشي : شرح العينية ، 72 .

(443) الغزالي ، محمد بن محمد الطوسي : معراج السالكين ، مجموع رسائل الامام الغزالي ،بيروت2000 ، 107.

(444) أبو نصر السراج،عبدالله بن علي الطوسي (ت 378 هـ / 988 م): الزاهد الصوفي شيخ الصوفية في عصره وصاحب كتاب اللمع.(الزركلي، الأعلام،104/4).

(445) كتاب اللمع ، بيروت 2001 ، ص380 .

(446) رواه مسلم ، حديث رقم5215.

(447) للمزيد أنظر : أبي الحسن الندوي : رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، 257/1 وما بعدها

وصلاح الدين الأيوبي[448]. وبعمل الغزالي هذا ظهر جليا أهمية التصوف كمنهج للتربية الروحية على نهج النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم . كما ظهر أهمية ملازمة الإصلاح الفكري للإصلاح الروحي مع الجوانب الأخرى للإصلاح. و الإمام الغزالي بكل أحواله وفكره و مؤلفاته الثابتة النسبة إليه يدعو إلى الالتزام بالكتاب والسنة ، ظاهراً وباطناً ، أي سلوكاً ظاهرياً وقلبياً . ولكن جنح بعض الباحثين إلى الزعم أن الغزالي من دعاة وحدة الوجود بحسب المفهوم الفلسفي لها . وذلك بناء على ما ورد في كتب مثل مشكاة الأنوار والمضنون به على غير أهله[449]. وهذه الكتب كما قال العلماء الأقدمون والباحثون المحدثون لا تصح نسبتها إلى الإمام الغزالي، بل تخالف ما جاء في كتبه المشهورة عنه والتي صحت نسبتها إليه مثل كتاب الإحياء والمنقذ من الضلال ، والتي يهاجم فيها القول بالحلول والاتحاد والشطح، وينكر فيها نظريات قدم العالم والخلق بواسطة الفيض.[450]ويوضح أن قيام الأشياء بالله هي من قبيل الانفعال وإيجاده بالفعل أي وقوف الإشارات والحركات عليه . فيكون هو المحرك القابض الباسط والنفوس معه كالحديد مع المغناطيس على وجه التمثيل ، ولله المثل الأعلى.[451]

(448) للمزيد أنظر : ماجد عرسان الكيلاني : هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس ، عمان 2003م،ص101 وما بعدها.

(449) أنظر : محمد الراشد : وحدة الوجود ،88 وما بعدها.

(450) أنظر: الغزالي ، محمد بن محمد : المنقذ من الضلال ، تحقيق/ جميل صليبا وكامل عياد، بيروت 1988،ص 140،64،29،141؛ السبكي، تاج الدين عبد الوهاب: طبقات الشافعية، ب د،ج4ص 131؛ عبد الرحمن بدوي: مؤلفات الغزالي، الكويت151،1977-153؛ مصطفى عبد الرحمن العطاس : منهاج الأصفياء، سنغافورة ب د ،ص36 وما بعدها.

(451) الغزالي ، معراج السالكين ،78.

على أن كثيراً من أهل التصوف المحققين لم يكتفوا برفض أقوال وحدة الوجود، ولكن وضحوها وبينوها ، على اعتبار أن ما يسمى بمقام الجمع[452] أو الوحدة مقام ناقص لأنه تعطيل للأسماء والصفات ، والكمال هو شهود الفرق الثاني ، أو شهود الجمع في الفرق وشهود الفرق في الجمع تحقيقاً للأسماء والصفات الربانية . مع الالتزام الكامل بالشريعة المحمدية[453] .

ويوضح بعضهم أن الفرق فرقان والجمع وجدان : فكل فرق بغير جمع جهالة . وكل جمع من غير فرق ضلالة . بل قال بعضهم أن الفرق بلا جمع فسوق والجمع بلا فرق زندقة ، أو كل جمع بلا تفرقة زندقة ، وكل تفرقة بلا جمع تعطيل، إن لم يكن سكراً لأنه يؤدي إلى إبطال الشرائع التي جاءت بها الرسل عليهم الصلاة والسلام . فالواجب أن يكون العبد مجموعاً في فرقه مفروقاً في جمعه[454] .

ويشرح أحدهم وحدة الوجود قائلاً[455]:" إن العبد إذا تخلق ثم تحقق ثم جذب اضمحلت ذاته وذهبت صفاته وتخلص من السوى فعند ذلك تلوح له بروق الحق بالحق فيطلع على كل شيء ويرى الله عند كل شيء فيغيب بالله عن كل شيء ولا شيء سواه فيظن أن الله عين كل شيء وهذا أول المقامات فإذا ترقى عن هذا المقام وأشرف على مقام أعلى منه وعضده التأييد الإلهي رأى أن الأشياء كلها فيض وجوده تعالى لا عين وجوده فالناطق حينئذ بما ظنه في أول مقام أما محروم ساقط وأما نادم تائب."

---

(452) لفظ الجمع مأخوذ من جمع الهمة على الحق تعالى ، ولفظ الفرق مأخوذ من تفرقتها في الكائنات مع الحق.(للمزيد أنظر: الرسالة القشيرية،ص58-60).

(453) الدرديري ، عبد الحافظ بن علي المالكي الصاوي: هدية الراغبين في السير والسلوك إلى ملك الملوك رب العالمين ، القاهرة ، ب د ، ص29، 30 ؛ أنظر أيضاً : الندوي : رجال الفكر والدعوة،282/3.

(454) السهروردي ، عوارف المعارف ، 474؛ البكري ، مصطفى: جوامع كلم الصوفية ، القاهرة ، ب د ، ص3، 4 ؛ الشعراني، الأخلاق المتبولية،363/2.

(455) ابن العماد : شذرات الذهب ،ج5ص189. العبارة للشيخ زين الدين الخافي.

بل أن السهروردي القتيل [456](ت587هـ) شيخ الإشراق والفلسفة الإشراقية المتأثرة بالأفلاطونية المحدثة انتقد وحدة الوجود، على اعتبار أن هذا الفهم سيؤدي بالضرورة إلى أن الذات الإلهية ستخضع للشرور والآثام والشهوات، وهذا محال في حق الله عز وجل .[457]

---

(456) الشهاب السهروردي : يحيى بن حبش بن أميرك، أبو الفتوح : فيلسوف، اختلف المؤرخون في اسمه .ولد في سهرورد من قرى زنجان في العراق العجمي ونشأ بمراغة، وسافر إلى حلب، فنسب إليه انحلال العقيدة. فأفتى العلماء بإباحة دمه، فسجنه الملك الظاهر غازي، وخنقه في سجنه بقلعة حلب.(الذهبي : سير أعلام النبلاء،207/21 ؛ الزركلي: الأعلام،140/8).

(457) أنظر : محمد الراشد : وحدة الوجود من الغزالي إلى ابن عربي ،دمشق 2006م ،ص110.

خاتمة:

سببت المؤلفات المنسوبة إلى ابن عربي انقسام حاد في عصر الأيوبيين والمماليك، تمثل في محورين أساسيين ، المحور الأول :حول صحة نسبة الأقوال المنبئة عن وحدة الوجود إليه. هل قالها أم لا . ومثل هذا الاتجاه من الأقدمين الإمام السيوطي ، ومثله أيضاً علم كبير من أعلام التصوف هو الإمام عبد الوهاب الشعراني[458]. والمحور الثاني: حول فهم وتفسير هذه النصوص. وهنا تأتي قضية المناهج ، فالفقهاء والفلاسفة فهموها بموجب النظر العقلي ، بينما الصوفية فهموها فهم ذوقي وجداني.

وعلى ذلك فعبارة ما في الوجود إلا الله –عز وجل- لها مفهومان ، المفهوم الفلسفي ،وهو أن العالم هو الله_سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا- ومفهوم صوفي. على أن المفهوم الصوفي ينقسم بدوره إلى ثلاثة فهوم: الأول : الفهم الذوقي وهو حالة نفسية للمحب لا يرى فيه إلا المحبوب. والمفهوم الآخر أنه مقام ناقص يسمى مقام الجمع. والمفهوم الآخر أن المقصود بها لا مشهود سواه عز وجل.حيث لا يوجد في هذا الوجود سوى الله وفعله، وخلقه من فعله.

ويستطيع الباحث أن يستخرج اتجاهين من النصوص المنسوبة إلى ابن عربي: الاتجاه الأول القول أن الوجود الحق هو واجب الوجود وان ممكن الوجود لا يقوم إلا بواجب الوجود ، وعليه فحكمه حكم العدم ، وان لا مناسبة بأي شكل بين واجب الوجود والممكنات. وهذه الرؤية تتناقض مع مبدأ الخلق، فالله عز وجل خالق كل شيء وهو اسم من أسمائه، فهل يخلق عدما. وهل هذا العدم ابدي في جنة أو نار.

---

(458) الشعراني ، عبد الوهاب : الأخلاق المتبولية ، تحقيق / منيع عبد الحليم محمود ، القاهرة ، ب د ، ج1 ص489 .

والاتجاه الثاني أن هذا الكون هو مظهر تجلي الأسماء والصفات وان الأسماء والصفات هي عين الذات. وهذان الاتجاهان كما هو واضح يبدو عليهما التناقض. إلا أن أردنا أن نفهم أن المقصود أن الأسماء والصفات عين الذات كواجب للوجود وان لا يعني هذا بأي حال أن هناك مناسبة بين واجب الوجود وممكن الوجود. وهنا يسقط التناقض في الاتجاهين.

و يمكن تبين عدة مواطن للخلاف بين ابن عربي وبين جمهور الصوفية من أهمها: أولاً: إن أكثر العارفين أضافوا معرفة الله إلى فناء الوجود ، أو فناء الفناء، وقد غلطهم ابن عربي في ذلك حيث ان معرفة الله حسب قوله لا تحتاج إلى فناء الوجود ولا إلى فناء الفناء ، إذ اعتبر أن الأشياء لا وجود لها ، وما لا وجود له لا فناء له، فإن الفناء بعد إثبات الوجود،[459]. وهذه مخالفة كبيرة بين ابن عربي والصوفية، حيث تقريبا جميعهم تحدثوا عن الفناء[460]. حتى ابن عربي نفسه تحدث عن الفناء[461]، وربما هذه من المتناقضات التي تميزت بمؤلفات ابن عربي.

ثانياً: والفارق الآخر أنه يرى أن الأسماء والصفات ليست أعياناً زائدة عن الذات بينما جمهور الصوفية من الأشاعرة وغيرهم لا يرون ذلك ويقولون:" ليس في المرآة هو ولا غيره"[462]. ثالثاً : أن الكون عند ابن عربي انبثق من الله عز وجل [463]، وهي

---

(459) ابن عربي، محيي الدين محمد: الرسالة الوجودية، بيروت2007،ص36.

(460) أنظر على سبيل المثال: محمد الكلاباذي أبو بكر، التعرف لمذهب أهل التصوف، بيروت ، 1400هـ،ص123 وما بعدها.

(461) الفتوحات المكية،169/1.

(462) العيدروس: فيض النفحات في مسألة الصفات، ،10 ؛ عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية،47/2.

(463) ابن عربي، محيي الدين محمد: عنقاء مغرب في ختم الأولياء وشمس المغرب،بيروت 2009،ص66.

رؤية تقترب من نظرية الفيض الفلسفية، بينما كان الإمام الغزالي وهو ممثل للتصوف انتقد نظرية الفيض وقال بالخلق من العدم.[464]

وإذا كان يفهم من ابن عربي أن المقصود من وحدة الوجود هو وحدة واجب الوجود ، فإن حاله في العبارات المثيرة للجدل المنسوبة إليه لا يخرج عن أربعة احتمالات: وهي إما أنه قالها وهو في حالة سكر روحي، أو دست على نصوصه، أو عبر عن أحوال كشفية بتراكيب لغوية خاطئة. أو فهمت خطأ وفسرت خطأ نتيجة التفسير الفلسفي. فوحدة الوجود عند الفيلسوف رؤية فلسفية عقلية بينما هي عند الصوفي حالة وجدانية قلبية ، إذ لا يرى في الوجود أساساً إلا الله عز وجل ، ولا يرى فعلاً إلا من الله. أما غير هذه الاحتمالات الأربعة فيناقضه تعارض العبارات وتناقضها.

على أن هناك مفهوم آخر لقضية وحدة الوجود، يشير الإمام الغزالي أن ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله ، ومملكته وعبيده من أفعاله[465]. وهذا قول يبدو أنه ليس ذات إشكال. وإن كان يعني فيما يعنيه من معاني وحدة الوجود. إذ بحسب معتقد أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه وتعالى خالق العباد وأفعالهم[466]، ولكنه ليس ذات إشكال في ظل إفراد القدم عن الحدث كما وضح أهل التصوف ذلك.

---

(464) أنظر: الغزالي أبو حامد، محمد بن محمد: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، تحقيق/ بسام عبد الوهاب الجابي،قبرص1987،ص76 ؛ عبده الشمالي: دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية،بيروت 1979،ص533.

(465) أحياء علوم الدين ، 218/2.

(466) أنظر على سبيل المثال : البخاري ، محمد بن إسماعيل : خلق أفعال العباد ، بيروت ،1991 ؛ ابن حزم،علي بن محمد الأندلسي: الفصل في الملل والأهواء والنحل ، بيروت ب د ،ج1ص277.

وبغض النظر عن صحة نسبة النصوص إلى ابن عربي أو عدم صحتها . فإن موقف أهل التصوف وجمع من الفقهاء كان في عدم الطعن في الأشخاص ، ولكن أيضاً رفض ما جاء في هذه الكتب[467]. إذا وجدوا بها ما يبدو عليه التعارض مع الشرع.[468].

(467) أبو بكر المشهور : الأرض الخاشعة ، 49 ؛ حسن كامل الملطاوي : الصوفية في إلهامهم ، 283/1 .
(468) العيدروس ، محي الدين : النور السافر في أخبار القرن العاشر ، ب د ،ص172 .

نظرات في
التفسير الإسلامي للتاريخ

المنهج الإسلامي يفسر التاريخ بموجب الكتاب والسنة النبوية. أي بموجب الإخبار الرباني والنبوي، حيث يعد التاريخ جزء من الديانة ومكمل ومفسر لها.[(469)] والكتاب وسنة النبي محمد صلى الله عليه وسلم هما معيار الحكم والنظر في التشريع وفي الحكم على التاريخ كذلك.

ونستطيع القول أن الفكر الإسلامي التاريخي يتضمن المحاور الثلاثة، محور منهج البحث من خلال علم الحديث ومنهج السند والجرح والتعديل ، ومحور المنهج التفسيري من منظور الكتاب والسنة ، سواء بالمأثور أو المعقول، ومحور النظرية الفلسفية الكلية المفسرة للتاريخ من خلال الإخبار والقصص القرآني والنبوي.

يقوم الفكر القرآني للتاريخ على أساس النظرة الكلية الواحدة للكون. فالتاريخ يبدأ من حدث خلق الله للسماوات والأرض ، ثم قصة خلق آدم وصراع الكفر والإيمان ، بين آدم وإبليس ليستمر السياق القرآني للتاريخ على أساس أنه صراع بين الخير والشر وبين الحق والباطل ، ليقص علينا قصص الأنبياء والرسل ثم يعالج فترة العهد النبوي الشريف ويستمر الإخبار التاريخي ليخبرنا عن إعادة الخلق يوم القيامة وانتهاء الصراع بين الخير والشر إما في الجنة أو في النار .

في هذا الأخبار القرآني للتاريخ يتبع منهج التوثيق التاريخي "وجاءك في هذه الحق ". (هود 120). والوصف التاريخي "وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل".(هود120)

---

(469) أبوبكر العدني بن علي المشهور : إحياء لغة الإسلام العالمية ، ب د ، 1426هـ ،ص140 ،141.

ويتبع منهج تفسير الحدث التاريخي "ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين".(القصص114) أي لأنه من المحسنين أتاه الله الحكم والعلم.

"واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون". (العنكبوت 39). أي أنه استكبر في الأرض لأنه ظن أنه لن يعود إلى الله ، ولا يوجد حساب لأعماله .

ويبين هذا المنهج الكريم أن الله هو الفاعل الأول والأخير في حركة التاريخ . "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً" (الإسراء 16) . وهو منشيء حركة التاريخ وتوالي ظهور الأمم يقول الله عز وجل " ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (31)". المؤمنون. ويقول ايضا:" ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (42)" المؤمنون.

فالله عز وجل هو الرافع والخافض وهو المعز والمذل " ألم تر كيف فعل ربك بعاد" (الفجر 6) . وعلى ذلك ما حركة التاريخ إلا تجليات الأسماء والصفات الربانية وظهور فاعليتها. كما أن نظرية العناية الإلهية تأخذ شكل أوسع في المنظور القرآني، فهي تدبير كلي يشمل المؤمن والكافر وكل الخلق:" يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ". (السجدة 5).

كما يمتاز المنهج القرآني بالقدرة على الخروج من الجزئيات إلى الكليات، اي المنهج الاستقرائي "سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً " (الأحزاب: 62) . مثل سنة أن التنازع يؤدي إلى الفشل والهزيمة "وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ" (الانفال 46).

أضف إلى ذلك أن هذا المنهج عند تحليله ودراسته للحدث التاريخي ، يأخذ بكافة العوامل الصانعة لهذا الحدث ومنها العامل الغيبي أو تدخل قوى الغيب للمساهمة في

صنع الحدث التاريخي، ومثال على ذلك روايته لما حدث في معركة بدر من أن الشيطان كان المحرض الأول لهذه المعركة بهدف استئصال المؤمنين ثم نزول الملائكة مسلحين مقاتلين مع المسلمين. هذه الرؤية التي تأخذ بالجانب الغيبي مفقودة تماماً لدى كافة المناهج الحديثة لدراسة التاريخ . "وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ" (الأنفال 48).

كما يعلمنا الإخبار القرآني والنبوي للتاريخ بأهمية العامل الفيزيائي والطبيعي . فالبيئة الفيزيائية والطبيعية المحيطة بالإنسان تتأثر وتتفاعل مع فعل الإنسان، إن كان خيراً بخير أو شراً بشر . فالكفر والإفساد يؤدي إلى غضب الطبيعة بأمر ربها . والإيمان والإصلاح يؤدي إلى عطاء الطبيعة وخدمتها للمؤمن كما في حديث السحابة التي تسقي زرع المؤمن المتصدق [470]. وقوله عز وجل : " ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض". (الأعراف 96) .

والقرآن الكريم ألقى الضوء على المنهج الجدلي الظاهر في حركة التاريخ . فيقول المولى عز وجل:" وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ." (البقرة 251). ويقول:" وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (الفرقان 31). ولأجل ذلك من سمات ورثة الأنبياء والدعاة الربانيون أن يبتلوا بالإيذاء والعداوات والقدح فيهم.

أضف إلى ذلك أن المنهج القرآني والنبوي لم يغفل دور الإنسان البطل في حركة التاريخ فأثبت ما بذله أنبياء الله من دور، مثل قصة طالوت، وهي قصة تاريخية تحمل

(470) انظر على سبيل المثال: صحيح مسلم ، رقم7664 ؛ صحيح ابن حبان، رقم 3355.

التوصيات الثلاثة الضرورية للنهضة بأي امة تريد لنفسها النهضة والنصر.[471] "وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" (248) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ" (249 البقرة). فأعطاهم أولا: القائد، وثانيا: رد لهم التابوت الذي فيه بقية مما ترك آل موسى والذي كانوا يتوسلون به إلى الله. وثالثا: اختبار الشرب من النهر للانتصار على النفس قبل الانتصار على العدو الخارجي. وهذا يذكرنا بأهمية تزكية النفس قبل الجهاد على الأعداء.

وحيوية التاريخ الايماني من خلال ثنائي الكتاب والمصطفين، اي الكتاب والانسان الذي يحمله "ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ "(فاطر32). وهم الذين اسماهم توينبي النخبة التي تقود الحضارة.

كذلك يخبرنا الله عز وجل عن طبيعة حركة التاريخ بين الخالق والحضارات الإنسانية ، يقول المولى:" وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ

(471) سورة البقرة ، 247 وما بعدها.

وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (95) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96)".الأعراف101.

فالبأساء والضراء حركة تاريخية وأسلوب رباني لإعادة الأمم لربها والإنابة إليه، والعودة إلى الله سبب للرخاء والسعادة على الأرض.

إن هذا المنهج الكوني الشامل لدراسة التاريخ تفتقد إليه كل المناهج المعاصرة فأحداث الطبيعة لديهم مجرد مصادفات خبط عشواء لا علاقة لها بسلوك وفعل الإنسان . كما أنهم لا يدرسون أو يؤمنون بأي تدخل لقوى الغيب في الأحداث التاريخية .

وبهذا فإن المنهج القرآني للتاريخ يحقق أهدافه السماوية في العظة والعبرة وفي التربية القلبية والوجدانية والعقلية وفي الربط بين الماضي والحاضر والمستقبل وفي التنبيه لكافة العوامل الصانعة للحدث التاريخية ليستطيع المؤمن أن يقف على بينه من أمره، وفي رفع مستوى الوعي الكوني والتاريخي والوظيفي للإنسان.((472))

أما في التفسير النفسي للتاريخ فإن القرآن الكريم والحديث النبوي يقدمان رؤية كلية شاملة في التفسير النفسي لتاريخ الإنسانية منذ الأب الأول آدم عليه السلام ، إلى الإخبار المستقبلي بالتاريخ والأحداث.

ويوضح الإخبار القرآني والنبوي في أن دافع السلوك نفسي، والنفس تتأثر بعاملين أولهما ذاتي أو داخلي وآخر خارجي، أما الذاتي فمتأثر بطبيعة خلق الإنسان الطينية والروحية ، إذ أن الإنسان مخلوق من قالب طيني ونفخة روحية ربانية،" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ

---

(472) أنظر عبد الكريم زيدان : السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد ، بيروت 1993م،ص7.

مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ" (الحجر29). ولهذا تتجاذبه نزعتان ، نزعة طينية وهي التي تمثل الصفات السلبية من الشهوات بمختلف أنواعها من الجنس والطعام والأخلاق الحيوانية من الحقد والطباع السبعية والكسل الخ... ونزعة روحية تسمو به نحو المثل والقيم والأخلاق والدين والذكر لله والسمو إلى الله. ثم إضافة إلى هاتين النزعتين تأثير داخلي آخر وهو التأثير الوراثي، أو الجبلة الوراثية، حيث تكون احد أهم العوامل المؤثرة في السلوك . وفي ذلك يشير القرآن الكريم بقوله:" فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا". (مريم 28). ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم[473]:" وانظر في أي نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس".

وأما العوامل الخارجية فتتمثل في عدة تأثيرات: الأول تأثير الشيطان ووسوسته لتحريك الجوانب الجسدية أو الطينية والأخلاق الحيوانية في الإنسان "قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (62) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (63) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا". (64). والتأثير الثاني تأثير الملك بإلهام الخير ، وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم[474]: " إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ اللَّهِ فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ الْأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ثُمَّ قَرَأَ{ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ }".

(473) رواه الشهاب القضاعي في مسنده، رقم 411.

(474) رواه الترمذي رقم 2914 والنسائي في السنن الكبرى رقم11051 والطبراني في المعجم الكبير رقم8454 وابن حبان في صحيحه رقم 1002.

وإضافة إلى تأثير هذين العاملين الخارجيين هناك عامل خارجي آخر هو تأثير البيئة الخارجية والصحبة. ولأهمية ذلك يقول المولى عز وجل:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ" (التوبة 119). وقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[475]:" كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ". وقال -صلى الله عليه وسلم-[476]:" إنما مثل جليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا منتنة".

ونستطيع أن نقول أن ضابط الإيقاع بين العوامل الذاتية الداخلية والعوامل الخارجية هو العقل ، الذي أخبر به القرآن:" وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ."(يس68).

تأتي أهمية العامل الذاتي أنه يعد من نوازع النفس الأمارة بالسوء وبالتالي من المهم معرفة كيفية علاجها ومجاهداتها، والترقي بها إلى مقامات روحية عالية .

والأمثلة التي يقدمها القرآن الكريم على أثر العامل النفسي على السلوك الإنساني كثيرة . بدءا من تحريك الشيطان لنوازع الشر عند آدم وحواء عليهما السلام:" فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى".(طه120). فخاطب فيهما حب الخلود والملك، وهما من نوازع وغرائز النفس.

---

(475) رواه البخاري، رقم 1385.

(476) رواه أبو يعلي في مسنده، رقم7307.

ثم في قتل قابيل لأخيه هابيل، وكيف كانت النفس هي الدافع الأساسي لهذا الفعل الإجرامي" فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ". (المائدة30).

وتتعدد نماذج التفسير النفسي للتاريخ في القراءة القرآنية مثل معركة حنين: "لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ" (التوبة25). فالعجب بالنفس والغرور كان سببا في هزيمة المسلمين أول المعركة.

كذلك إذا كانت حركة التاريخ عند البعض ما هي إلا نتيجة دوافع السلوك الإنساني، فإن المفهوم الإسلامي للدافع هو الباعث و الخاطر:" فمبدأ الأفعال الخواطر-سواء خاطر خير أو خاطر شر- ثم الخاطر يحرك الرغبة والرغبة تحرك العزم والعزم يحرك النية والنية تحرك الأعضاء والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر أعني إلى ما يضر في العاقبة وإلى ما يدعو إلى الخير أعني إلى ما ينفع في الدار الآخرة فهما خاطران مختلفان فافتقرا إلى اسمين مختلفين فالخاطر المحمود يسمى إلهاما والخاطر المذموم أعني الداعي إلى الشر يسمى وسواسا".[477] وعلى ذلك فإن ما يسمى بالخاطر هو أول التفكير بالشيء سلبا أو إيجابا ثم يتحول هذا التفكير إلى الفعل والسلوك. وهذا هو التفسير الديني لباعث الفعل بشكل عام. يقول السيد المسيح عليه السلام[478]: "إن الأشياء التي تخرج من القلب ، كالكلمات والأفعال ، تأتي من نفس الإنسان، وهي التي يمكن أن تكون طاهرة أو قذرة، مقدسة أو نجسة، فمن النفس تولد الأفكار الشريرة والقتل والزنا والسرقة وشهادة الزور والافتراء والحسد

(477) الغزالي أبو حامد ، محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، بيروت ب د، ج3ص27.

(478) هيجل، فردريك: حياة يسوع، ترجمة جرجي يعقوب، بيروت1984م،ص76.

والكبرياء وحياة الفجور والبخل. وهذه الشرور هي التي تنجس الإنسان". إذن النفس أولا ثم الفكر ثم الفعل.

ويوضح الكتاب الكريم العديد من البواعث للسلوك، أولا باعث للسلوك لطريق الآخرة ، وباعث للسلوك لتحقيق أهداف دنيوية فقط.وقد حددها المولى عز وجل فقال:" زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (آل عمران 15).

فدوافع السلوك شهوة الجنس أو غريزة الجنس ثم حب الأولاد أو غريزة البقاء والتناسل ثم حب المال أو غريزة التملك. فهذه بواعث للسلوك عند الكثير . أما باعث الآخرة فهو نتيجة سلامة القلب و صحة الفكر والتصور وصحة العزم وعدم الارتكان والخور. فيتوجه السلوك إلى عبادة الله والعلاقة مع الإنسان والكون وبالتالي صناعة التاريخ .

ولهذا نظرية التوازن تحكم الرؤية الإسلامية بين الكبت والإطلاق ، فلا ترى أن الكبت يؤدى إلى المرض النفسي كما يقول فرويد ، بل إن النفس إذا أطمعت طمعت وإذا أُقنعت قنعت[(479)] كما يقول أهل التزكية. يقول المولى عز وجل:" وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى" (النازعات 41).

وبناء على نظرة الإسلام هذه إلى النفس وأهمية تأثيرها على الإنسان والمجتمع كان عمل المصلحين والمجددين في التاريخ الإسلامي هو إصلاح النفس أولا حتى يمكن

(479) السهروردي، أبو حفص عمر بن محمد: عوارف المعارف، القاهرة 2004م،ص153

إصلاح المجتمع ، لقوله تعالى :" إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ..."(الرعد11).(480) وبإصلاح النفس يصلح الفرد وبصلاح الفرد يصلح المجتمع وبصلاح المجتمع تصلح الدولة. وهذا هو أساس عمل الأنبياء والرسل والمصلحين المجددين والعلماء الربانيين.

كذلك يأخذ القرآن بأهمية العامل الاقتصادي والعامل السكاني البشري وبالعامل العسكري في صنع التاريخ وقيام الدول . يقول المولى عز وجل:" ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا". (الاسراء6). وهذه العوامل الثلاثة قوة المال والاقتصاد والقوة البشرية والقوة العسكرية، هي في الحقيقة عوامل قيام الدول والحضارات. ولا يمكن لأي حضارة أو دولة أن تقوم بدون هذه العوامل الثلاثة.

على أن الرؤية الإسلامية توضح أن التاريخ الإنساني تاريخان: تاريخ أبوي وتاريخ انوي، فالتاريخ الأبوي هو تاريخ أبونا ادم وأبونا إبراهيم عليهم السلام أي تاريخ الأنبياء والرسل والصالحين المجددين وقصة الصراع بين الإيمان والكفر والخير والشر . وتاريخ انوي ينطلق من قول الإنسان كما قال الشيطان أنا خير منه[481]. وهو تاريخ الصراع على الدنيا والسلطة والمال والنفوذ، وكل تاريخ الحروب والصراع العبثي مثل حروب نابليون أو الحرب العالمية، فهو تاريخ ولكن تاريخ انوي ونحن ندرسه لأخذ الفائدة والعبرة منه.

(480) ينظر على سبيل المثال: أبو الحسن الندوي: رجال الفكر والدعوة في الإسلام، دمشق2002 م، ج1ص141 وما بعدها.

481) ينظر: أبوبكر بن علي المشهور: إحياء لغة الإسلام العالمية، ب د 2005م، ص 51 وما بعدها.

المناهج الأوروبية المعاصرة
ودراسة التاريخ الإسلامي

ينقسم المشتغلون بالتاريخ الإسلامي بموجب المنهج الأكاديمي إلى عدة فئات، فئة المستشرقين وكثير من هؤلاء استخدموا المنهج الأكاديمي أداة للطعن بالإسلام وتاريخه ورجاله، وتحريف دلالاته وأهدافه النبيلة[482].

وفئة من المسلمين استغربوا، فكتبوا بموجب ما تعلموه من المنهج الأكاديمي الغربي، فنحو منحى الاستشراق، فكانوا كذلك من معاول نقض وتشويه فهم الإسلام، وفئة من الباحثين العرب والمسلمين أيضا، لكن لا تملك من منهج سوى العمل بالمنهج الأكاديمي الغربي، واعتبار الغيب وانفعال الظواهر خارج إطار البحث العلمي.

وانعكست التحولات المنهجية على الدراسات الغربية للتاريخ الإسلامي، حيث تضمنت دراستهم عن الإسلام نقد المصادر والنصوص والمقارنة بينها وتحليلها، بدلا عن الدراسة الوصفية. "فدراسة الأخبار إذن لا تقتضي تعيين مصادر ثابتة بل يقتضي تحليل مجموعة الروايات المتعلقة بالموضوع الذي يدرس"[483]. ويسمى هذا المنهج اتجاه نقد الروايات. وهو منهج يفرض على المؤرخ أن يجمع اكبر عدد ممكن من الروايات عن أي موضوع ثم يخضعها معا للتحليل الدقيق. وبهذا كانت الكتابة الغربية في التاريخ الإسلامي تتضمن ثلاثة اتجاهات منهجية ، الاتجاه الوصفي ، واتجاه نقد المصادر ،

(482) عبد الرحمن الشجاع : دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة ، صنعاء1999 ،ص13 وما بعدها؛ عماد الدين خليل : المستشرقون والسيرة النبوية : بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتغمري وات ، كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية ، الرياض 1985م ، إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ج1ص113 وما بعدها ؛ أنظر أيضا: مسعود ضاهر : أضواء على الكتابات التاريخية اليابانية عن العرب، مجلة عالم الفكرالعدد4 المجلد 129 ، الكويت ابريل يونيو 2001،ص112 وما بعدها .

(483) فرح دونر : اتجاهات الكتابة الغربية عن تاريخ الإسلام، قراءة نقدية ، مجلة التسامح ، العدد 8 السنة الثانية، خريف 1425هـ/2004م،ص240.

ومثل هذا الاتجاه المؤرخ الهولندي دي غويه De Goeje (1836-1909) [(484)]، ثم الاتجاه الثالث نقد الروايات ومثله المؤرخ المجري جولدزيهر[(485)] Goldziher (1850- 1921م) [(486)]، والذي حاول من خلال هذا المنهج الطعن في السيرة النبوية والحديث الشريف[487]، واتبعه في ذلك كل من شكك في الحديث النبوي.

وعليه نستطيع القول إن المنهج التحليلي النقدي المقارن هو المنهج المعني بصحة وسلامة المعلومات التاريخية وهو المنهج الذي يسبق المنهج التفسيري للتاريخ .

كما وضح سابقا، المنهج هو أداة ووسيلة للوصول إلى المعرفة، فهل حقق ما يسمى اليوم المنهج الأكاديمي غايته في الوصول إلى معرفة وحقيقة التاريخ الإسلامي؟

نستطيع أن نقول أن المنهج العلمي لم يستطع الوصول إلى معرفة وحقيقة التاريخ الإسلامي بسبب انحصار اهتمامه على نسق واحد هو نسق النشاط الإنساني، أو الفعل الإنساني. ويتغافل أو لا يستطيع أن يستوعب أو أن يتعامل مع نسقين مهمين لفهم التاريخ الإسلامي، وهو نسق البعد الغيبي وعلاقته بحركة التاريخ، أي علاقته بالفعل الإنساني، وتدخله سلبا أو إيجابا بالنشاط البشري. ونسق البعد الفيزيائي والطبيعي والعلاقة بين قوانين الطبيعة المادية وقوانين حركة التاريخ. أو العلاقة بين قوانين الطبيعة والسلوك البشري.

---

(484) دي غويه : عالم هولندي تخصص في التاريخ العربي ، وكان ماهرا باللغة العربية ، أصبح أستاذ الدراسات العربية في جامعة ليدن.(الزركلي: الأعلام،7،338).

(485) فرح دونر : اتجاهات الكتابة الغربية ، 240-242.

(486) جولدزهير : مستشرق مجري من أصل يهودي ، يعد من مؤسسي الدراسات الإسلامية الحديثة في أوروبا. كان أول من شكك بالحديث النبوي.(أنظر:الزركلي: الأعلام،84/1).

487) الزركلي: الأعلام،84/1.

وإذا كان هدف الباحث التاريخي هو معرفة الحقيقة بكل أبعادها ، فإن إغفال البعد الغيبي في دراسة التاريخ ليس من العلم في شئ. خاصة بعد الاكتشافات الفيزيائية الحديثة . إذ كان العلماء في عصر نيوتن يعتقدون أن هذا العالم عبارة عن ثلاثة أبعاد : الطول والعرض والارتفاع . ثم ظهر اينشتاين بنظريه النسبية ليقول أن العالم مكون من أربعة أبعاد : الطول والعرض والارتفاع نسبة إلى الزمن أي أنه أضاف بعدا رابعا هو الزمن وظهر ما سمي الزمكان. ثم لم يلبث العلماء أن كشفوا أن هذا الكون متعدد الأبعاد بفضل الاكتشافات الفضائية الحديثة وبفضل التقدم الهائل في علوم الحاسوب . ولكنها أبعاد لا تستطيع حواسنا المعتادة إدراكها لأنها خارج قدرتها [488]. كما أنهم كشفوا أن هذا الكون عبارة عن منظومة من طاقة اهتزازية تتراوح قدرة الإنسان في المعرفة إلى حدود معينة ، فما زاد عن درجة اهتزاز معين لا تستطيع حواسنا إدراكها وما نقص كذلك لا تستطيع أن تدركه.[489]

و إغفال هذه الأبعاد من الدراسات التاريخية ربما يعود إلى عدة أسباب، بالنسبة للبعد الغيبي، فهو إما أن الباحث لا يؤمن بالغيب أصلا. أو انه لا يملك أدوات منهجيه لبحث العلاقة بين قوى الغيب والفعل الإنساني. رغم إمكانية استخدام المنهج الوصفي.

وبالنسبة للبعد الفيزيائي والطبيعي، فهو إما لا يؤمن بوجود علاقة بين الفعل الإنساني والطبيعة المادية المحيطة به. أو لا يملك أدوات منهجية لبحث العلاقة بين حركة التاريخ والظواهر الطبيعية. وهكذا ، الطبيعة بالنسبة للمنهج الأكاديمي مجرد

---

(488) للمزيد أنظر : غرين ، براين : الكون الأنيق ، الأوتار الفائقة والابعاد الدفينة والبحث عن النظرية النهائية ،ترجمة فتح الله الشيخ ،بيروت2005،ص209 وما بعدها ؛ديفيز ، بول و جريبين ، جون: أسطورة المادة ، صورة المادة في الفيزياء الحديثة، ترجمة علي يوسف علي،القاهرة 1998،ص182 وما بعدها.

(489) رؤوف عبيد : الإنسان روح لا جسد ، القاهرة 1966، ج2ص29 وما بعدها.

مصادفات خبط عشواء، فتسونامي هو اهتزاز قشرة الأرض، والإيدز فيروس انتقل من القرود إلى الإنسان في أفريقيا.. وهكذا .

وربما انكشفت لعلماء الغرب نماذج من حالات تؤكد لهم هذه العلاقة. لكن يظل ينظر لها كحالات فردية. مثل اكتشاف أن استرداد الإنسان لعافيته بعد إجراء العمليات الجراحية يتأثر بالقمر. ووجد أن حدوث نزيف عقب عمليات الحلق أكثر بحوالي 82% خلال التربيع الثاني للقمر في فلوريدا. بينما الشفاء من كسور رأس عظمة الفخذ يتأثر في ايرلندا بتغير لأوجه القمر وهكذا[490].

هكذا أصبح " اعتماد المنهج الوضعي للدراسات الإنسانية كان من نتائجه أن تم اختزال الظواهر الإنسانية في جوانبها الحسية والفيزيقية، وإسقاط كل ما هو متجاوز وغيبي من هذا الوجود، حتى إنه لم يعد هناك فرق بين الظاهرة الإنسانية والظاهرة الطبيعية. كما تم فصل العلم عن كل قيمة أخلاقية، واكتفي بطرح سؤال الوسائل دون سؤال الأهداف والغايات ."[491]

إن أبسط تعريف للمنهج الأكاديمي الحالي:" انه منهج أوروبي لدراسة تاريخ النشاط الإنساني، مجرد من أي أبعاد غيبية أو فيزيائية "، عندما نقول منهج أوروبي يعني أنه يحمل كل إسقاطات الفكر الأوروبي بمختلف تبايناته المتعددة.

فكيف يمكن لهذا المنهج أن يفهم – كمنهج تفسيري – الغيب والوحي والكرامات والجن.. إلى آخر الأبعاد الغيبية ؟ وكيف يمكن لهذا المنهج أن يفهم علاقة الحب بين المسلمين وجبل أحد على سبيل المثال ؟ إذن هو منهج ذاتي حتى في أقصى

---

(490) فيبس ، إي.دبليو.جي: زمان الجسم ، كتاب فكرة الزمان عبر التاريخ ، عالم المعرفة العدد 159الكويت مارس1992، ص152،153.

(491) علي صديقي: إشكالية المنهج.http://www.odabasham.net/print.php?sid=22315&cat=#_edn3 .

موضوعيته. وهو منهج يفشل في وصف ما كان كما كان بالنسبة للتاريخ الإسلامي على الأقل. إن لم يكن فاشلا في التاريخ الإنساني عامة.

من جانب آخر فإن منهج جمع الروايات التاريخية ودراستها وتحليلها ونقدها، لم يكن منهجاً جديداً على المؤرخين المسلمين القدامى. ويستطيع الباحث أن يجد في دراسة ابن كثير– على سبيل المثال – لواقعة الإسراء والمعراج، معالجة منهجية دقيقة تكاد تفوق كثير من الدراسات الأكاديمية المعاصرة[(492)]. أما الإمام السخاوي فقد قدم منهجاً دقيقاً لكتابة التاريخ سبق فيه الأوروبيين بمئات السنيين.

على أية حال، يعد موضوع المنهج الأكاديمي وعلاقته بدراسات التاريخ الإسلامي جزء من قضية العلاقات بين الشرق الإسلامي والغرب بكل تناقضاته العلمانية والمسيحية، العلاقات الفكرية والعلمية بين الطرفين. ولهذا يدخل في حكم هذه العلاقة. أي أن نأخذ ما يناسب ديننا وفكرنا وعقيدتنا، ونترك ما لا يناسب ولا ينسجم مع ديننا ومبادئنا. على أن يكون هذا الأخذ إيجابياً، متفاعلاً، ويضيف إلى ما وصلوا إليه. ويقدم للبشرية خطوات في سعيها للوصول إلى المعرفة الحقة. لتكون جذوة لكل صادق يبحث عن الحقيقة والمعرفة. وما أكثرهم في زماننا هذا وما أسهل التواصل معهم في زمن الانترنت.

(492) أنظر : ابن كثير ، أبو الفدا إسماعيل: السيرة النبوية ، بيروت 1976م، ج2ص93.

الدكتور محمد حسين الصافي:

ولد في الخليج الأمامي على بعد أمتار من شاطئ البحر بمدينة عدن. من أسرة آل الصافي المعروفة بالتجارة والعلم، جده الحبيب العلامة عبد الله بن حامد الصافي من كبار علماء اليمن في عصره، ووالده الأستاذ حسين الصافي الإعلامي المشهور أول مدير عام للإذاعة والتلفزيون ومؤسس التلفزيون بمدينة عدن. انتقل مع أسرته إلى مدينة صنعاء عام 1972م، ودرس بالمدرسة الأهلية ثم بمدرسة جمال عبد الناصر، وأدى خدمة الدفاع الوطني في اللواء الخامس مشاة السوادية، البيضاء. التحق بكلية الآداب جامعة صنعاء، وحصل على الماجستير عام 1998 والدكتوراه عام 2008م.

أنظم مع والده في العمل الحر أثناء دراسته الجامعية، وبعد وفاه والده أسس شركة صافوان للتجارة الحائزة على العديد من الوكالات التجارية العالمية، منها شركة AT&T الأمريكية- اكبر شركة اتصالات في العالم- وغيرها، كذلك أسس صافوان للأبحاث وأبحاث السوق، ثم تفرغ للعلم دراسة وتدريس منذ العام 2003م، قام بالتدريس في جامعة العلوم والتكنولوجيا منذ العام 1997م وفي جامعة صنعاء منذ العام 1999، وفي المعهد العالي للتوجيه والإرشاد العام 2013م. في عام 2002م تولى إدارة فرع دار المصطفى بصنعاء، عين عام 2003 مدرسا في قسم التاريخ كلية الآداب بجامعة صنعاء، ثم أستاذا مساعدا عام 2009م، وأستاذا مشاركا عام 2017م، ورائدا للشباب عام 2019م. أسس عام 2005م مركز الإبداع للدراسات وخدمة التراث فرع صنعاء. له العديد من المؤلفات العلمية والأنشطة الفكرية منها نظرية النبض الكلي، وهي

محاولة تفسير جديدة للتاريخ. كرم عام 2016 من قبل كلية الآداب والعلوم الإنسانية لجهوده العلمية والثقافية المتميزة. وكرم عام 2018م من قبل الاتحاد العربي للثقافة والإبداع ووزارة الثقافة جمعية المنشدين اليمنيين لجهوده في الحفاظ على التراث الإنشادي حاصلا على قلادة الاتحاد العربي للثقافة والإبداع.

التعليم:

- دكتوراه بامتياز في تاريخ العصور الوسطى، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب بعنوان: العلاقات التجارية بين الشرق والغرب عبر اليمن والبحر الأحمر في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي. جامعة صنعاء 2008.إشراف مشترك مع جامعة المنصورة.
- ماجستير بامتياز في تاريخ العصور الوسطى، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب (حروب صليبية) بعنوان: دور ريمون الرابع كونت تولوز في الحرب الصليبية الأولى. جامعة صنعاء 1998م.
- بكالوريوس آداب – قسم تاريخ – مايو 1993م – جامعة صنعاء

يدرس المواد التالية:

- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى.
- تاريخ الدولة البيزنطية.
- تاريخ الحروب الصليبية.
- تاريخ الأيوبيين والمماليك.
- فلسفة التاريخ.
- تيارات فكرية معاصرة.
- تاريخ الرومان.
- العلاقات التجارية بين أوروبا والمسلمين. (دراسات عليا).

الأعمال الإدارية:

- مساعد مدير مكتب الصافي للإعلانات 1982-1983. (وكلاء الخطوط الجوية اليمنية).
- مدير مكتب الصافي للإعلانات 1983-1988م.
- مدير عام صافوان للتجارة 1988م حتى 2003.
- مدير عام صافوان للأبحاث وأبحاث السوق 1989-2003م.
- مدير فرع دار المصطفى بصنعاء 2003-2005م.
- مدير مركز الإبداع الثقافي فرع صنعاء 2005- إلى الوقت الحاضر.
- عضو الهيئة العلمية الاستشارية لمجلة أبحاث الوسطية الشرعية. جامعة الوسطية الشرعية. حضرموت.

له العديد من الدراسات منها:

- انهيار الرأسمالية، الفوضى القادمة. كتاب نشر مكتبة مدبولي القاهرة 2004.
- علماء التزكية ودورهم العلمي والدعوي. المؤتمر العلمي الأول لكلية الآداب جامعة تعز2009.
- قراءة في المناهج الغربية لتفسير التاريخ في القرن 19م. مجلة كلية الآداب، المجلد 34 العدد2 ابريل- يونيو2013م.
- مدخل إلى المناهج الغربية لتفسير التاريخ في القرن العشرين. مجلة كلية الآداب، المجلد 34 العدد4 أكتوبر-ديسمبر 2013م.

- قراءة في مناهج التفسير النفسي للتاريخ. نشر في كتاب: دراسات في المنهج والفكر التاريخي، نشر مركز الإبداع للدراسات وخدمة التراث، صنعاء 2016م.
- مدرسة حضرموت العالمية، تناول تاريخي لدور حضرموت في التاريخ الإسلامي. قدم في ندوة الإمام الحداد، المكلا 2007.
- الصراعات الفكرية في عصر الأيوبيين والمماليك. قضية وحدة الوجود أنموذجا. مقبول للنشر، مجلة الباحث الجامعي، جامعة إب 2013/6/10م. نشر في كتاب: دراسات في المنهج والفكر التاريخي، نشر مركز الإبداع للدراسات وخدمة التراث، صنعاء 2016م.
- مناهج المعرفة ودراسة التاريخ. نشر في كتاب: دراسات في المنهج والفكر التاريخي، نشر مركز الإبداع للدراسات وخدمة التراث، صنعاء 2016م.
- وحدة اليمن عبر التاريخ2010. التوجيه المعنوي للقوات المسلحة.
- التوحيد والعقلانية في الفكر الأوروبي الوسيط. بتر ابيلارد أنموذجا. مقبول للنشر، مجلة الباحث الجامعي، جامعة إب 2013/11م
- تاريخ الحروب الصليبية على ضوء فلسفة التاريخ. مقبول للنشر في مجلة الباحث الجامعي، جامعة إب2013/11/20م. نشر في كتاب: دراسات في المنهج والفكر التاريخي، نشر مركز الإبداع للدراسات وخدمة التراث، صنعاء 2016م.
- نظرية النبض الكلي، البعد الطبيعي والفيزيائي لحركة التاريخ والنظرة الموحدة للكون والإنسان والتاريخ. نشر في كتاب: دراسات في المنهج والفكر التاريخي، نشر مركز الإبداع للدراسات وخدمة التراث، صنعاء 2016م.

- حيوية تاريخ الفكر الإسلامي، مع مقارنة بتاريخ الفكر الأوروبي، تحت النشر.
- دراسات في المنهج والفكر التاريخي، كتاب نشر مركز الإبداع للدراسات وخدمة التراث، صنعاء 2016م.
- نظرات مقارنة بين تاريخ الفكر الأوروبي وتاريخ الفكر الإسلامي. صنعاء 2017م. تحت النشر.
- كتاب: الناجحون، التنمية البشرية على ضوء السنة النبوية، تحت النشر.
- قراءة نقدية لمنهج وفكر المؤرخ هنري بيرن على ضوء كتابة تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. بحث تحت النشر .
- أساسيات المناهج المعرفية لنظريات تفسير التاريخ، مجلة آداب الحديدة، كلية الآداب، جامعة الحديدة، العدد العاشر، يوليو، سبتمبر 2021م.
- صوفية اليمن، الفكر والواقع، منتدى مجال،2021م.
- البحر الأحمر، الماضي، الحاضر، المستقبل، منتدى مجال،2022م.
- منهجية قراءة التاريخ في ضوء فقه التحولات، المؤتمر العلمي الأول لجامعة الوسطية سيئون، حضرموت، 17/ 9/ 2022م.
- نقد للقراءات الحداثية للتراث والتاريخ الاسلامي، محمد عابد الجابري أنموذجا، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة صنعاء، العدد45، يوليو سبتمبر 2020م.

المحاضرات العلمية والفكرية العامة التي ألقاها:

- البعد الفيزيائي والطبيعي في حركة التاريخ، فعاليات الأسبوع التاريخي، جمعية التاريخ والآثار، جامعة صنعاء2002م.

- التعليم المعاصر والتعليم النبوي (شبوة 2005).
- مدرسة حضرموت العالمية (المكلا2007).
- المنهج الأكاديمي ودراسة التاريخ الإسلامي(سيئون).
- في فقه التحولات، قراءات تاريخية (عدن2007).
- المناهج الغربية ودراسة السيرة النبوية (جامعة صنعاء 2009).
- انهيار الرأسمالية (جامعة صنعاء 2009).
- دور التصوف في التاريخ الإسلامي (مركز دال للدراسات – صنعاء 2008)
- الأزمة المالية العالمية، رؤية كلية (مركز منارات – صنعاء 2009).
- الإمام الغزالي ودوره في نهضة الأمة. (جامعة صنعاء2009).
- الحركة الإسلامية المعاصرة في تركيا. (جامعة صنعاء2010).
- قضية وحدة الوجود في الفكر الإسلامي. (الجمعية الفلسفية اليمنية 2011).
- التنمية البشرية والسنة النبوية. (جامعة صنعاء 2013/1/21م).
- مناهج التفسير النفسي للتاريخ. سمنار علمي في قسم التاريخ-جامعة صنعاء. (2013/4/30م).
- الحب في الفكر الإسلامي، مولانا جلال الدين الرومي أنموذجا. (جامعة صنعاء2015/12/22).
- روجيه جارودي، الفكر والإنسان. (جامعة صنعاء 2016/5/3م).
- الناجحون. (جامعة صنعاء 2018/11/18م).
- الفكر الأوروبي والفكر الإسلامي في العصور الوسطى، قراءة مقارنة، سيمنار علمي، قسم التاريخ، جامعة صنعاء2019م.

- نقد للقراءات الحداثية للتراث والتاريخ الإسلامي، الجابري أنموذجا، سيمنار علمي، قسم التاريخ، جامعة صنعاء 25 أكتوبر 2020م.
- النظرية النسبية لإينشتاين والمنهج التاريخي، سيمنار علمي، قسم التاريخ والعلاقات الدولية، جامعة صنعاء 24 نوفمبر 2021م.
- حيوية تاريخ الفكر الإسلامي، سيمنار علمي، قسم التاريخ والعلاقات الدولية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة صنعاء، 2022/2/27م.
- المنهج الروحي للمعرفة، سيمنار علمي، قسم التاريخ والعلاقات الدولية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة صنعاء، 11 /10/ 2022م.

أشرف وشارك في تنفيذ الدراسات الاقتصادية والبيئية التالية:

- دراسة مستوى الوعي البيئي في اليمن.
- الدراسة الاقتصادية الاجتماعية التمهيدية لدراسات تغيرات المناخ في اليمن.
- دراسة أثر تغيرات المناخ في القطاع الزراعي.
- دراسة أثر تغيرات المناخ في قطاع الطاقة.
- سيناريو تغيرات المناخ في اليمن.
- دراسة أولية لمشروع تمويل الصناعات النسيجية الصغيرة.
- دراسة سوق المياه المعدنية في اليمن.
- دراسة سوق غاز الفريون بصنعاء.
- دراسة سوق الأجبان في اليمن.

- دراسة تسويقية للتحويلات الهاتفية لأسواق: (السعودية–الإمارات–البحرين–الكويت–باكستان–تونس).
- دراسة جدوى اقتصادية لمشروع مدينة سكنية – عدن.
- دراسة جدوى اقتصادية لمشروع شاليهات – عدن.
- دراسة هندسية لمشروع مدينة سكنية – عدن.
- دراسة هندسية لمشروع شاليهات – عدن.
- تصور إعادة بناء وتأهيل مدينة عدن بعد الحرب (المؤتمر الشعبي العام).
- دراسة إدارة مجلة التجارة والاقتصاد – وزارة التجارة والتموين – 1989م.
- تصور متكامل لمشروع المؤتمر اليمني الأول للتجارة والاقتصاد 1991م.

الندوات التي شارك فيها أو في إدارتها:

- ندوة الاجتهاد في الفكر الإسلامي فرع دار المصطفى بصنعاء (2003م)
- ندوة يوم الأرض الفلسطيني، بيت الثقافة صنعاء (2003م).
- ندوة إحياء التراث الإسلامي _ جامعة صنعاء (2004).
- ندوة المادية المعاصرة ورقي الإسلام الروحي_ جامعة صنعاء 2006م.
- ندوة قصة إسلامي _ جامعة صنعاء 2005م.
- ندوة دور علم التزكية في العملية التعليمية. اتحاد الأدباء والكتاب 2006م.
- ندوة الخطاب الديني في الإعلام اليمني والعربي، اتحاد الأدباء 2006م.
- تريم عاصمة الثقافة الإسلامية. جامعة صنعاء2010.
- دور المنظمات غير الحكومية في العمل التكافلي. جمعية الإصلاح الخيرية، جامعة صنعاء،2012م.

- التنصير في العالم الإسلامي. جامعة صنعاء 2013/1/30م.
- التغريب. جامعة صنعاء2014/12/3م.
- الغزو الفكري في تاريخ المسلمين، عرض نموذج تاريخي، جامعة صنعاء 2017م.
- التصوف والصوفية بين الماضي والحاضر، نادي عبق الثقافي، صنعاء 2019/11/21م.
- أعلام المسلمين: حجة الإسلام الغزالي، مركز المرصد النبوي، صنعاء 2022/11/25م

فلسفته وفكره:

نظرية النبض الكلي: يقول الدكتور محمد بوجود طاقة كونية مظهرها قانون كلي عام هو قانون حركة النبض الكلي الحاكم للكون والتاريخ والإنسان. حركة نبض كلي لا يفلت منها شيء كبير أو صغير في هذا الوجود يأخذ شكل الدوران للإلكترون ويأخذ شكل ولادة النجوم وموتها، ويأخذ شكل قيام الحضارات وسقوطها. وهو نبض منتظم يترتب عنه حركة منتظمة ابتداء من انتظام سرعة الضوء وهو الأعجوبة الكبرى في هذا الكون، وانتهاء بانتظام سرعة دوران الأرض حول الشمس، في تناغم وانسجام مدهش. وهذا ليس تفسيرا آليا للكون والتاريخ. لكنه كون يتسم بالحياة والنبض وكل ما فيه يتسم بهذه الخاصية. نبض لكل مستويات الوجود، الوجود الذي هو عبارة عن مستويات متدرجة من الطاقة، بما فيها المادة التي هي شكل من أشكال الطاقة المحكومة بهذا النبض. وعلى ذلك فقيام الحضارات الإنسانية ما هو إلا تكتل لشكل من أشكال الطاقة، وانهيارها ما هو إلا تبدد هذه الطاقة لكن بحسب قانون النبض الكلي

العام الحاكم للإنسان والكون والتاريخ. والدولة هي تموضع للطاقة في هذه الحضارة. فالدولة هي اظهر شكل للطاقة الإنسانية في التاريخ. وبما أن ليس كل الدول في التاريخ هي دول خير وحضارة راقية وجمال، فهناك دول شر وتدمير وخراب وأنانية وسفك دماء. كذلك الطاقة ليس كلها طاقة ايجابية، بل هناك طاقة سلبية مدمرة. وإذا كانت حركة التاريخ في كثير من نواحيها هي حركة الصراع بين الخير والشر وبين الإيمان والكفر، فعلى ذلك فإن حركة التاريخ هي حركة الصراع بين الطاقة الايجابية البناءة والطاقة السلبية المدمرة. وهذا هو التوازن بين المتضادات الذي يقوم عليه هذا الكون الأعجوبة الرائعة للخالق البديع. فحركة النبض هي الحاكمة لحركة الجدل نفسها في صراع المتناقضات ونسيج الأضداد أي أن توازن الطاقة هو المبدأ الذي يقوم عليه نسيج الأضداد.[493]

كيف تولد الحضارات والدول: بحسب نظرية النبض الكلي والطاقة الكونية للتاريخ فإن ولادة الحضارات والدول تكون بولادة روح جديدة وطاقة جديدة وهو ما يتمثل في التقاء أربعة عوامل أساسية. أولا: في الانفجار السكاني. فقيام الحضارات والدول كان روحه ومظهره والملازم له هو الانفجار السكاني. ولم نشاهد ولادة حضارة أو دولة وهي تعاني من نقص عدد السكان. وأسباب الانفجار السكاني ثلاثة: توفر الغذاء يؤدي إلى انفجارا سكانيا كما رأينا سابقا. وعاملا آخر يساهم في حدوث الانفجار السكاني هو الإحساس بالتحدي الذي تشعر به جماعة ما أو شعب ما، فتكون ردة الفعل في التكاثر. وفي هذه الجزئية تتوافق هذه النظرية مع نظرية التحدي والاستجابة لتوينبي. والسبب الثالث هو

---

[493] الصافي: دراسات في المنهج والفكر،74 وما بعدها.

الدورة الطبيعية للتكاثر السكاني بين العلو والانخفاض، والتي تخضع لها تقريبا كل الكائنات ضمن حركة النبض الكلي.

والعامل الثاني في قيام الحضارة هو وجود وتوفر طاقة القوة الاقتصادية والمالية، فكثير من الحضارات والدول قامت بسبب وجودها على طرق التجارة الدولية مما وفر لها قوة طاقة المال والاقتصاد. وهذا العامل يرتبط بعامل الانفجار السكاني، حيث يكون وفرة المال وقوة الاقتصاد عاملا في توفير الغذاء.

اما العامل الثالث: فهو قيام قوة عسكرية ذات امكانات قوية، تستطيع فرض وجود الحضارة وحمايتها من الاخطار الخارجية والداخلية. وهي التي عبر عنها ابن خلدون بقوة العصبية.

وكل هذا تمثله الآيات الكريمة:" وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6)". الاسراء. وقوله تعالى:" أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134)". الشعراء.

والعامل الرابع ظهور زعامة وقيادة قوية تستطيع توحيد الجماعة وتقودها لتأسيس الدولة والحضارة.

فإذا كانت هذه عوامل وأسباب ولادة الحضارات والدول فإن موت الحضارة والدولة بفقدان هذه العوامل الأربعة، أو واحد منها، مثل فقدان الأهمية الاقتصادية والقوة المالية للدولة، أو تناقص عدد السكان بشكل كبير، أو ضعف ووهن القوة العسكرية مما يؤدي إلى تعرضها للغزو والتدمير. أو سقوطها في صراعات داخلية مدمرة يعرضها للتمزق نتيجة فقدان القيادة الموحدة للجماعة.

الحضارة= انفجار سكاني+ قوة المال والاقتصاد+ قوة عسكرية+ شخصية قيادية.

الحضارة (طاقة كبيرة) = انفجار سكاني (رافد من الطاقة) + قوة المال والاقتصاد (رافد من الطاقة) + قوة عسكرية (رافد من الطاقة) + شخصية قيادية (رافد من الطاقة).

تأخذ هذه النظرية في اعتبارها التفسيرات الفيزيائية الحديثة للكون وللعالم وللوجود، فالتفسير الفيزيائي للكون والتاريخ أن الكون عبارة عن منظومة كهربائية (منظومة من الطاقة) تتحرك وتسير عبر التضاد المتوازن، فالتدافع والتضاد المسيطر عليه من قوة أعلى طبيعة أساسية في الكون وفي التاريخ. إن هذا الكون بكل ما فيه ليس سوى موسيقى بديعة للخالق العظيم. وإن التنوع والاختلاف هو جزء أساسي من هذه الموسيقى والمعزوفة الكونية الرائعة. وما بين التفرد والتجانس وبين الوحدة والتنوع واختلاف الترددات والاهتزازات تنطلق العلاقة المعقدة بين الكون والتاريخ. وبين الوجود الحي أو الطاقة الفاعلة وبين الإنسان الحر المسئول، في علاقة تفاعلية متبادلة نتج عنها تراث التاريخ الإنساني الهائل بكل ما فيه من جوانب ايجابية أو سلبية.

ولابد من الإشارة إلى أن هذه النظرية ليست تفسير مادي للتاريخ بل كشف عن طبيعة حركة التاريخ ذو النبض الكلي الذي لا يصدر إلا من حي قيوم يهب الحياة والقيومية لكل ما في الوجود في كل حين وثانية. ضمن قانون انسجام وتوازن كلي بديع للكون كله.

حيوية الحضارة الإسلامية: ينتقد الدكتور محمد قراءة محمد عابد الجابري وأمثاله للتاريخ والحضارة الإسلامية ويرفض المنهج البنيوي في دراسة الحضارة والفكر الإسلامي الذي اتبعه محمد عابد الجابري ومحمد أركون، حيث استخدم هذا المنهج لهدم التراث العربي وتشويهه والحط من شأنه. وقدم صورة مغلوطة لحقيقة وروح التاريخ والتراث العربي والإسلامي، وذلك بهدف إحلال الفكر الأوروبي الوضعي بدلا عن الفكر الإسلامي المرتبط بالرسالة السماوية.

يقول الدكتور محمد: قامت الحضارة الإسلامية العظيمة والتي لم تر البشرية مثيل لها ثمرة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم سواء بالكتاب أو السنة. وحكمت سنة التدافع والتضاد التاريخ السياسي والحضاري للمسلمين، حيث تداولت المذاهب الإسلامية في الحكم والدول. والحقيقة أن اختلاف البشر من سنن الحياة والكون والطبيعة، وعظمة الإسلام هو في قبوله للسنن الإلهية واحتوائه لها. سواء هذا في الحياة السياسية أو في غيرها من الميادين. كانت الأوضاع التاريخية المتتابعة عاملاً مهماً في ظهور العلوم الإسلامية المختلفة، فكانت الفتنة والاختلاف والتغيرات دافعا للحفاظ على أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتمييز الصحيح من الموضوع، وكانت حاجة المجتمع المسلم المتغيرة دافعاً لظهور علم الفقه والمذاهب الفقهية في ظل الاختلاف حول النصوص ظنية الدلالة أو النصوص ظنية الثبوت. وكان طغيان المادية وحب الدنيا واختفاء مظاهر السنة دافعاً لظهور علم التصوف وطرق التربية الروحية، كما كان تحدي الفكر المسيحي والفكر الهندي واختلاف المسلمين في قضايا الإمامة والقضاء والقدر والصفات دافعاً لظهور علم الكلام ومدارسه الفكرية المختلفة.

هكذا إذن كانت حيوية الفكر الإسلامي تحكمه حركة التضاد والتدافع، فرفضاً للفتنة ونتائجها ظهر الخوارج الذين كفروا الإمام علي ومعاوية معاً، وقالوا بكفر مرتكب الكبيرة، ورفضاً للخوارج ظهر المرجئة الذين قالوا لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة، ورفضاً للمرجئة ظهر المعتزلة الذين قالوا مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين، ورفضا للمعتزلة ظهر الحنابلة ورفضاً للحنابلة ظهر الأشاعرة ورفضا للأشاعرة ظهر فكر ابن تيمية الذي لم يشهد من وجود تاريخي سوى في العصر الحديث، مما سبب في بروز الفكر الاثنا عشري لكن المتجدد في نظرية ولاية الفقيه للإمام الخميني بعد سقوط خلافة أهل السنة. واستمرت جميع هذه المدارس في الوجود وحركة التدافع الذي ساعدتها على التنافس والمجاهدة ضد الخصوم وإبراز أفضل ما لديها، بل إن هذه الفرق تطورت نتيجة التضاد والتنافس فيما بينها، وفي الفقه ردا على مدرسة الرأي لأبي حنيفة ظهرت مدرسة النص لمالك، ثم مدرسة التوفيق بينهما للشافعي، وفي الدعوة والسلوك رفضا للخروج على السنة والترف ظهر التصوف بمدارسه المختلفة. وفي السياسة رفضا لدولة بني أمية المناصبة العداء لآل البيت ظهر التشيع بمذاهبه المختلفة. كذلك بظهور الرازي بما يمثله من عقلانية وعلم الكلام ظهر مولانا جلال الدين الرومي بما يمثله من روحانية وعشق إلهي رفضاً للعقلانية الجامدة، وبظهور ابن عربي بما يمثله من فكر مثالي مغرق في المثالية ظهر ابن تيمية بما يمثله من فكر تجسيمي نسب إليه وتبرأ هو منه واسماه إثبات الصفات.

طبيعة حركة التاريخ الإسلامي هذه تدافعية وليس على منهج هيجل في الجدل، إذ لا نفي فيها، بل جميع المدارس والفرق لا زالت حتى اليوم تتواجد ولو

بأحجام مختلفة استمراراً لطبيعة التنوع والتعدد في الخلق البشري. ويتميز هذا التاريخ الإيماني باستمرار ظهور المجددين فيه.

وبحسب الدكتور الصافي تعاني الأمة اليوم تزييف الوعي في كل العلوم الإسلامية تقريبا. فعلم القران مستهدف بالتفسير المنحرف له المضاد للنص الصريح وللسنة، والحديث مستهدف بالدعوة بالاكتفاء بالقران الكريم والطعن والحط والتشكيك في الحديث النبوي وهو شارح ومطبق ومفسر للقران الكريم والمصدر الثاني للتشريع، كذلك مستهدف من خلال الأخذ منه بغير فقه فيحرف المعنى إلى غير المقصود منه. وعلم الفقه مستهدف من خلال الدعوة إلى إلغاء المذاهب الإسلامية بحجة أنها فرقت بين المسلمين بينما هي مناهج استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة، والمشكلة في التعصب لها وليس فيها، وعلم التصوف استهدف بحجة انه شركيات ودروشة وتكاسل وخمول بينما هو علم التزكية والتربية والسلوك وكل ما يخالف الشريعة ليس من التصوف والأمة اليوم بأمس الحاجة للنهضة الروحية. واستهدف علم الكلام بحجة انه سفسطة وجدل لا طائل منه في قضايا لا تهم المسلم بينما هو علم الدفاع عن الإسلام والإيمان والنبوة من خلال الأدلة العقلية وعلم المنطق وهو مهم في مواجهة الغزو الفكري ومواجهة عقول كبيرة تدعو للإلحاد. واستهدفت اللغة العربية بحجة أنها لا تواكب العصر فالانجليزية هي لغة العصر ولغة العلم والمال والأعمال، بينما اللغة العربية هي وعاء الفكر ومنهجه وأثاره ولغة الحضارة الإسلامية وعلومها ولغة القران الكريم، بينما اللغة الانجليزية مجرد علم آلة ليس مقصود لذاته.

رأيه في التفسير الإسلامي للتاريخ: يشير الصافي إلى أن المنهج الإسلامي للتاريخ منهج كوني شامل لدراسة التاريخ تفتقد إليه كل المناهج المعاصرة، حيث يبدأ من خلق السماوات والأرض ويتضمن ربط حركة التاريخ الإنساني والفعل الإنساني بالبعد الطبيعي والبعد الغيبي، فأحداث الطبيعة ليست مجرد مصادفات خبط عشواء لا علاقة لها بسلوك وفعل الإنسان. كما أن المناهج الأخرى لا تدرس أو تؤمن بأي تدخل لقوى الغيب في الأحداث التاريخية. هذا المنهج عند تحليله ودراسته للحدث التاريخي، يأخذ بكافة العوامل الصانعة لهذا الحدث ومنها العامل الغيبي أو تدخل قوى الغيب للمساهمة في صنع الحدث التاريخي،

كما يعلمنا الإخبار القرآني والنبوي للتاريخ بأهمية العامل الفيزيائي والطبيعي. فالبيئة الفيزيائية والطبيعية المحيطة بالإنسان تتأثر وتتفاعل مع فعل الإنسان، إن كان خيراً بخير أو شراً بشر. فالكفر والإفساد يؤدي إلى غضب الطبيعة بأمر ربها. والإيمان والإصلاح يؤدي إلى عطاء الطبيعة وخدمتها للمؤمن كما في حديث السحابة التي تسقي زرع المؤمن المتصدق [494]. وقوله عز وجل: " ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض". (الأعراف 96).[495]

على أن الرؤية الإسلامية توضح أن التاريخ الإنساني تاريخان: تاريخ أبوي وتاريخ انوي، فالتاريخ الأبوي هو تاريخ أبونا ادم وأبونا إبراهيم عليهم السلام أي تاريخ الأنبياء والرسل والصالحين المجددين وقصة الصراع بين الإيمان والكفر والخير

(494) صحيح مسلم، رقم7664؛ صحيح ابن حبان، رقم 3355.

(495) الصافي: دراسات في المنهج والفكر،267 وما بعدها.

والشر. وتاريخ انوي ينطلق من قول الإنسان كما قال الشيطان أنا خير منه[496] .
وهو تاريخ الصراع على الدنيا والسلطة والمال والنفوذ، وكل تاريخ الحروب والصراع العبثي مثل حروب نابليون أو الحرب العالمية، فهو تاريخ ولكن تاريخ انوي ونحن ندرسه لأخذ الفائدة.

انهيار الرأسمالية: في كتابه انهيار الرأسمالية، الفوضى القادمة، قدم الدكتور الصافي رؤيته في مستقبل الحضارة الغربية الرأسمالية من الناحية التاريخية والاقتصادية. مبينا أن خلل الدورة المالية في المجتمع هو العامل الأساس في سقوط النظام البنكي المالي وبالتالي في سقوط الحضارة الغربية برمتها. إضافة إلى انتهاء عمرها التاريخي والحضاري[(497)] .

[496]) المشهور، ابوبكر بن علي: إحياء لغة الإسلام العالمية، أربطة التربية الإسلامية، عدن، 200م، ص6.

[(497)] الصافي، محمد حسين: انهيار الرأسمالية، الفوضى القادمة، مكتبة مدبولي، القاهرة 2004م.

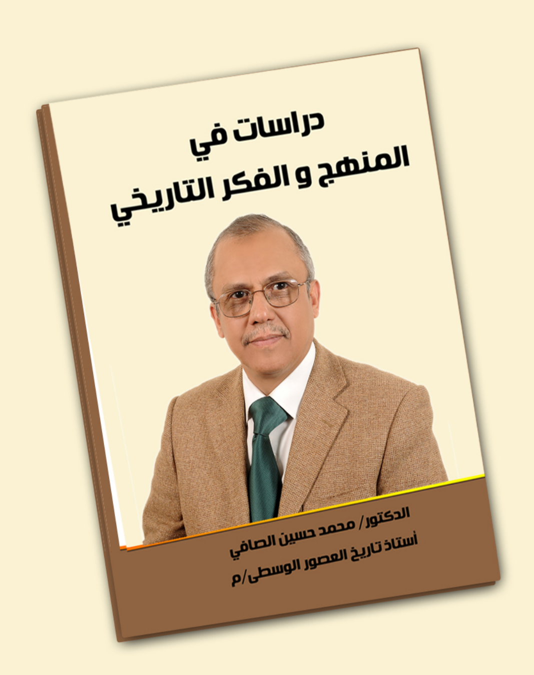
مدونة الدكتور محمد حسين الصافي.

/https://mohammedalsafy.blogspot.com

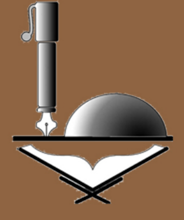
Posts | Facebook - صفحة الدكتور محمد حسين الصافي

https://www.facebook.com/D.MOHAMEDALSAFI/posts

– بريد الكتروني: **malsafi19@gmail.com**



- المناهج الغربية لتفسير التاريخ في القرن 19م.
- المناهج الغربية لتفسير التاريخ في القرن العشرين.
- الحروب الصليبية على ضوء فلسفة التاريخ.
- قضية وحدة الوجود في عصر الأيوبيين والمماليك.
- نظرات في التفسير الإسلامي للتاريخ.
- المناهج الأوروبية المعاصرة ودراسة التاريخ الإسلامي.



مركز الإبداع الثقافي للدراسات وخدمة التراث

فرع صنعاء. شارع الستين الغربي. ت 715101331